

أساسيات اللغة

three buck book singer finger air hair
free col caught pour
poor

تأليف: ر. ل. تراسك
ترجمة: رانيا إبراهيم يوسف

المشروع القومي للترجمة

أساسيات اللغة

تأليف : ر . ل . تراسك

ترجمة : رانيا إبراهيم يوسف



٢٠٠٢

المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

-- العدد : ٢٨١

-- أساسيات اللغة

-- ر . ل . تراسك

-- رانيا إبراهيم يوسف

-- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ترجمة كاملة لكتاب :

LANGUAGE : The Basics

تأليف : R. L. Trask

صادر عن : **ROUTLEDGE**

1999

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084 E. Mail : asfour @ onobox. com

المحتويات

11 مقدمة المؤلف
13 الفصل الأول : تفرد اللغة البشرية
14 ثنائية التمييز
17 اللاحضور والنهايات المفتوحة
21 الحرية المشروطة
22 التوفيقية
25 الجهاز الصوتي
29 الشمبانزى يشير
33 الفصل الثانى : الأساس النحوى
 نظرة أولية إلى قواعد اللغة الإنجليزية
37 قاعدة نحوية إنجليزية
40 قاعدة أخرى
43 الفصائل النحوية
46 فصيلة العدد
48 النوع
53 الفصل الثالث : اللغة والمعنى
53 صعوبة تعريف الكلمات
59 معانى الكلمات وتعريف المفردات اللغوية
64 المعنى وعلم النحو
69 المعنى والعلم
77 اللغة والسياق

83 الفصل الرابع : تنوع اللغة
83 التنوع الجغرافي
87 أنواع أخرى من التنوعات
89 دراسة التنوعات
96 اللغة والهوية
98 اللغة والنوع والجنس
101 الحياة باستخدام لغتين
105 الفصل الخامس : تغير اللغة
106 اللغة الإنجليزية منذ ألف عام
111 إنها كلمة ظريفة هل تمنع في اقترابها ؟
119 لا ينطق الصوت "H" في أغلب كلامنا
126 من أين أتت اللغة الإنجليزية ؟
133 الفصل السادس : اللغة والعقل والمخ
133 مخ تالف ، كلام مضطرب
139 اليسار مقابل اليمين
145 النفس المقسمة
147 أشياء مضحكة وأسننة
150 ما لون اسمي ؟
153 الفصل السابع : الأطفال واللغة
154 ما لاحظناه
157 نظرة أكثر قرباً
159 لماذا يحدث ذلك ؟
161 البحث عن اللغة
164 هل هناك سن معينة يتوقف عندها اكتساب اللغة ؟
166 هل تتواجد اللغة في جيناتنا ؟

171 الفصل الثامن : اتجاهات حول اللغة
171 هل من الممكن أن تكون اللغة لا أخلاقية ؟
176 ماذا يحدث للغتنا ؟
179 التنقية اللغوية
183 الطريقة المثلى للحديث
190 اللغة والهوية : تكرار

فائمة الأشكال

- 19 (١-١) النحل الراقص
- 20 (٢-١) الرقصات التي ترشد النحل الشغالة إلى ثلاثة أماكن للغذاء آ ، ب ، ج ..
- 26 (٣-١) الجهاز الصوتى للإنسان
- 27 (٤-١) الجهاز الصوتى للشعبيانزى
- 90 (١-٤) الكلمات الدالة على "فتاة" بإنجلترا
- 92 (٢-٤) الكلمات الدالة على "اليعسوب" فى شرق الولايات المتحدة الأمريكية ..
- 94 (٣-٤) معدلات استخدام الشكل In - بمدينة النرويش الإنجليزية
- 123 (١-٥) مناطق إنجلترا التي ينطق بها الصوت "H"
- 129 (٢-٥) شجرة عائلة اللغة Ingvaenonic
- 130 (٣-٥) شجرة عائلة اللغات الجرمانية
- 138 (١-٦) النصف الأيسر للمخ
- 140 (٢-٦) اختبار لتصف المخ الأيمن

تقديم

يهدف هذا الكتاب إلى إثارة انتباه القارئ إلى موضوع اللغة البشرية ، تلك السمة الفريدة التي تميزنا كبشر ، يعد هذا الموضوع - من وجهة نظري - من أجدر الموضوعات التي يجب أن نوليها اهتمامنا ، ولذلك فإنتى أمل أن أقتنعك بأهميته ، بل أحفزك على التطرق إلى مزيد من القراءات في الأمر ذاته .

لقد تم اختيار ثمانية جوانب مختلفة لدراسة اللغة ، وعرضت الاكتشافات القديمة والحديثة التي قام بها دارسو تلك الجوانب ، كل في تخصصه ، تمت بعض هذه الاكتشافات منذ عقود عدة ، ولكن كان أغلبها اكتشافات حديثة ، بل حديثة للغاية حتى إنه من الصعب إيجاد ذكر عنها في كتب أخرى .

عند قراءتك لهذا الكتاب ستعرف الأسباب التي تجعل من اللغة البشرية لغة فريدة ، وستكتشف أنك تعرف الكثير من قواعد اللغة الإنجليزية دون وعى منك بذلك ؛ لأنك - لسبب بسيط - لا تعرف الطريقة التي تصاغ بها تلك القواعد ، كما ستعى أن اللغة الإنجليزية يتم تحديثها بطرق مختلفة في أماكن مختلفة ، بل في نطاق المكان الواحد يتباين نطقها من شخص إلى آخر ، إنك ستدرك أن اللغة تتغير سريعاً ومن وقت إلى آخر وسيظهر لك أسباب هذا التغير وما يترتب عليه من نتائج ، وستتأكد تماماً من أن اللغة الإنجليزية تواقة إلى اقتراض الكلمات من لغات عدة ، وستشاهد حرباً من الحروب الضارية ، تلك التي قامت بشأن الصوت "H" ، وسترجع بالزمن لتعرف أصل اللغة الإنجليزية ، كما ستدرك علاقة المخ باللغة ومدى تأثيره عليها إذا ما أصابه عطب أو تلف ما ، وستتعرف على أصناف من البشر لا يمكنهم التعرف على أنفسهم إذا ما شاهدوا صورهم الفوتوغرافية ، وأصناف أخرى يصفون رائحة العشب بأنها قرمزية ، كما ستعرف المراحل التي يمر بها الطفل في ركاب تعلمه للغة ، وتعرف مدى تأثير ظروف النشأة غير الطبيعية لبعض الأطفال على اكتسابهم للغة ، ومدى تأثير الجينات في ذلك الاكتساب .

عند انتهائك من الكتاب ستكون قد عرفت شيئاً عن لغة الحماة الأسترالية ، عن الإجراءات الغريبة التي قام بها النرويجيون من أجل لغتهم ، وستدرك سبب اختلاف

السباك عن المحامى ، وستعى حقيقة الكلمة "تلج" فى لغة شعب الإسكيمو ، كما أنك ستتمكن من التعبير عن معان غير موجودة ، وستجد أنه من المستحيل طرح بعض الأسئلة باللغة الإنجليزية ، كما ستكتشف أنه من الممكن لكلمة عادية مثل "معرضة" أن تحدث ضجة غير عادية فى إحدى المناسبات العامة .

أخيراً ، أود أن أنوه إلى أنني أضفت بعض الحواشى التى تفيد فى شرح بعض المعانى التى قد يجد القارئ صعوبة فى تفسيرها ، وأرجو أن يستمتع كل القراء بهذا الكتاب كما استمتعت بقراءته وترجمته .

المتريجة

مقدمة المؤلف

- ما الذى يجعل من اللغة البشرية ظاهرة فريدة فى نوعها ؟
هل يتحدث النساء بطريقة مغايرة لتلك التى يتحدث بها الرجال ؟
ترى ما معنى "المعنى" ؟
هل هناك أشكال للإنجليزية أفضل من غيرها ؟
ما الوظيفة التى يقوم بها اللغويون تحديداً ؟

يقدم كتاب "أساسيات اللغة" عرضاً لموضوع اللغة ، فهو يمد الدارسين والقراء بمعلومات أولية - لا تخلو من كونها أساسية - عن اللغة ، إنه بأسلوبه الشيق الممتع يعرض الموضوعات فى عجلة ويقف وقفة طويلة ليركز على تفسير المصطلحات اللغوية الأساسية .

يحفز كتاب "أساسيات اللغة" القارئ على التفكير فى أمر اللغة ويدفعه لأن يعيد النظر فى الأخطاء الشائعة التى درج عليها متحدثو اللغة ، ومن هنا يمكنه معرفة الوظيفة التى يقوم بها اللغويون أو علماء اللغة ، يصلح هذا الكتاب لكل الدارسين فى المدارس والمعاهد والجامعات ، كما أنه مقتنى ضرورى لكل فرد يتهمه الآخرون باستخدام المصدر المنشطر .



الفصل الأول

تفرد اللغة البشرية

إذا سُئلت عن الصفة التي تميز البشر بشكل قاطع عن سائر المخلوقات على كوكب الأرض، ماذا ستكون إجابتك؟ الحب؟ أم الحرب؟ أم الفن والموسيقا؟ أم التكنولوجيا؟ ربما تكون إحدى هذه الخيارات هي الإجابة، لكن معظم الناس الذين يبحثون النظر في هذا السؤال يأتون بإجابة واحدة، وهي: اللغة.

تعد اللغة الإنسانية السمة الوحيدة الأكثر تمييزاً لنا كبشر، وهذا ما سوف نحاول إثباته فيما بعد، إن ملكة اللغة التي عادة ما نأخذها كقضية مسلم بها تحوى عدداً من الخصائص الملحوظة بل المدهشة، فبدون اللغة كان من الصعب علينا خلق العالم الإنساني المتعارف عليه، إذ إن تقدمنا في كل شيء بدءاً من الموسيقى وانتهاء بالحروب كان يصعب تحقيقه في غياب اللغة، تلك الخاصية الفريدة التي تجعل منا بشراً.

قد يبدو هذا التفرد غير واضح منذ النوهة الأولى؛ فكل مخلوق تقريباً على وجه الأرض لديه نوع ما من نظام الإشارة، إنها طريقة تمكنه من التواصل مع أفراد فصيلته وكذا أفراد الفصائل الأخرى، فالصراصير تسقسق والطيور تغرد والقردة توقوق وحشرات الليل تومض وحتى النمل يترك آثاراً ذات رائحة حتى يتسنى لجماعاته اتباع بعضها بعضاً، ولاشك أنك مقتنع بتواجد بعض الإشارات والإيماءات الخاصة بقططك والتي تعنى "أنا جوعان" أو "أريد الخروج"، علاوة على ذلك، كشفت الدراسات الحديثة لعلماء الحيوان عن كون النظام الإشاري أكثر من شيق، وهذا ما يفوق المتعارف عليه، فعلى سبيل المثال قد يتطرق إلى أسماعك الآن أن فصيلة معينة من الحيتان مشهورة بأنها تغني أو أن النحل يؤدي رقصات معينة تعلن عن مكان تواجد الرحيق لأفراد الخلية.

إن المذهل في مثل هذه الاكتشافات هو الحقيقة القائلة بأن اللغة البشرية مختلفة تمام الاختلاف عن كل الأنظمة الإشارية، مما يضطرنا إلى معاملتها كشيء مختلف، كظاهرة فريدة حقاً.

سوف نحاول من خلال هذا الكتاب شرح بعض الأشياء المذهلة التي اكتشفناها بشأن اللغة ، وسنبداً ببعض الخصائص الأساسية والتي تُعرف في كثير من الأحوال بالخصائص الشكلية للغة، وهي تلعب دوراً حيوياً في وجود اللغة.

ثنائية التمييط :

يعد الكلام الوسيلة الطبيعية للتعبير عن اللغة لدى جميع الناس معظم الوقت، فكيف نتكلم ؟ إنه شيء يسير : نسمع لهواء الرتقين بالمرور عبر أفواهنا وفي ذات الوقت نحرك أفواهنا بطرق مختلفة من أجل إحداث أصوات الكلام الصامتة والصانقة، يتكون كل مقطع نطقه من تتابع أصوات الكلام الواحد تلو الآخر، هنا يبرز سؤال مهم : كم يبلغ عدد أصوات الكلام المختلفة التي يمكنك إحداثها ؟ أي الأصوات المتباينة بدرجة كافية لتجعل الشخص الذي نتحدث إليه لا يبذل جهداً في تمييزها، لا توجد إجابة شافية كافية لهذا السؤال فهي تعتمد على مدى الاختلاف الذي تريد إظهاره ، ومع ذلك فالعدد ليس كبيراً بالضرورة، فإذا لم تكن قد حصلت على تدريب متخصص في علم الصوتيات (علم دراسة أصوات الكلام) ستجد أنه من الصعب إحداث عدد مائة من الأصوات المفردة المختلفة (تذكر أننا نتحدث عن الأصوات المفردة لا عن تتابع الأصوات)، وفي الحقيقة تشتمل كل لغة بشرية على عدد أقل من هذا بكثير، وفيما يلي سنلقى نظرة على اللغة الإنجليزية.

سنأخذ كلمة قطة "cat" كمثال، كم صوتاً تشتمل عليه هذه الكلمة ؟ إنها تتكون من ثلاثة أصوات : صوت k، صوت æ، صوت t، لكل صوت من هذه الأصوات رمز معين : /k/، /æ/، /t/ على الترتيب ، تستخدم القطع المستطيل لتوضيح أننا نتحدث عن أصوات محددة للغة بعينها وهي هنا اللغة الإنجليزية، ويطلق على هذه الأصوات المحددة فونيمات^(١) اللغة ، لذا طبقاً لفونيمات اللغة الإنجليزية فكلمة cat يرمز لها /kætv/.

إذا سألك شخص ما عن معنى كلمة /kætv/ فإنك لن تجد أدنى صعوبة في الإجابة، ولكن افترض أن السؤال كان هذه المرة عن معنى الفونيم /k/، ستكون الإجابة مستحيلة لأن الفونيم /k/ ليس له معنى في الإنجليزية وكذلك باقي الفونيمات.

(١) الفونيم : أصغر وحدة صوتية يمكن فصلها عن الكلام المسموع .

هناك شيء آخر عليك ملاحظته وهو إمكانية إعادة ترتيب تلك الفونيمات العديدة المعنى من أجل إنتاج كلمات مختلفة ، بمعانٍ مختلفة ، فالترتيب /tæk/ يعطى كلمة tack (مسماة صغير) بينما /æct/ يعطى act (يمثل)، و /æt/ يعطى at (حرف الجر فى، إلى، على، من)، و /ækt/ يعطى tact (براعة) و tacked (يُلحَق)، (لاحظ أن كلمتى tact، tacked لهما نفس النطق عند معظم متحدثى الإنجليزية بالرغم من اختلاف حروفهما وتركيباتهما).

لنضيف فونيمًا آخر لمجموعتنا وهو صوت p أو /p/ ، ويمكننا باستخدامه تكوين الكلمات pat/pæt (يضرب بلطف)، tap/tæp (سدادة)، pack/pæk (زمرة)، cap/kæp (غطاء الرأس)، pact/pækt (ميثاق) أو packed (ملا)، tapped/tæpt (يقرع)، /æpt/ apt (فَطِنٌ)، capped/kæpt (يغطى) وغيرها.

يمكنك ملاحظة ما يحدث : إمكانية إنتاج عدد كبير من الكلمات المختلفة ذات المعنى عن طريق تجميع عدد قليل للغاية من الأصوات العديدة المعنى بطرق مختلفة، يسمى هذا النوع من التركيب "ثنائية التعميط" أو "الثنائية" مراعاة للاختصار، ونجد أن كل اللغات البشرية تتكون بهذه الطريقة ، إذن فالثنائية هى استخدام عدد قليل من العناصر العديدة المعنى من أجل إنتاج عدد هائل من العناصر ذات المعنى.

لماذا يمتلك هذا النوع من التركيب مثل هذه الأهمية القصوى ؟ لكى نتعرف على الإجابة، تخيل البديل ، أى افترض عدم وجود هذه الأصوات العديدة المعنى ليكون لكل صوت مفرد معنى قائم بذاته، ماذا ستكون النتيجة ؟ إنه شيء واضح، سيصبح عدد المعانى المختلفة التى نستطيع أن نعبر عنها أقل من عدد الأصوات المختلفة التى تصدرها، وطبقا لما رأيناه سوف لا يتسنى لنا إصدار أكثر من مائة صوت مختلف وبالتالي ستكون النتيجة لغة محتوية على مائة كلمة تقريبا، هذه هى الطامة الكبرى : تخيل اللغة الإنجليزية وهى لا تحتوى على أكثر من مائة صوت ، إنه ليس ببعيد - بامتلاك هذا العدد المحدود من الكلمات - أن نفتقد القدرة على فعل أغلب الأشياء التى نفعلاها باستخدام اللغة الإنجليزية : سوف لا نستطيع شرح ما حدث لسيارتنا من عطل ولا نتمكن من سرد حكايات عن الأراب والأقزام لأطفالنا كما أننا لن نستطيع تنظيم الانتخابات ولا مناقشة الاتفاقيات ولا التأثير على شخص ما باستخدام ما هو ساحر من الكلمات ، وفوق هذا وذاك سوف لا نتمكن من تأليف كتب عن اللغة.

قد تتساءل عند هذه المرحلة ماذا بعد ذلك ؟ لماذا نصنع كل هذه الجلبة عن الثنائية ؟ أليست هذه هي الطريقة الواضحة لمباشرة الأمور ؟ ربما يكون الأمر كذلك ولكن هنا تكمن العقدة : لا يمتلك أى جنس على وجه الأرض نظاماً إشارياً قائماً على الثنائية فهي صفة خاصة باللغة البشرية. (في الحقيقة تشتمل أغاني الطيور والحيتان على عنصر الثنائية لكنهما لا يحسبا من الأنظمة الإشارية).

السؤال هنا ماذا تفعل المخلوقات الأخرى وهي لا تستطيع التعبير باستخدام الثنائية ؟ إنهم يفعلون الشيء الذى أعلننا عدم قابلية تحقيقه في اللغة البشرية، أى أن نظامهم الإشاري يقوم على مبدأ "صوت واحد، معنى واحد" فالحيوان يمتلك صوتاً ذا معنى واحداً مثل "هذه أرضي" أو معنى آخر "انظر هناك خطر قادم" ومعان أخرى قليلة، لكن يبقى شئ وهو أن مجموع أعداد الأشياء المتباينة التي يستطيع الحيوان التعبير عنها لا يتعدى ما هو متاح لديهم من أصوات مختلفة، لكي نضع الأمر في صورة تطبيقية نقول : إن عدد الإشارات أو النداءات المستخدمة من قبل أى فصيلة من الفصائل تتراوح عادة ما بين ثلاثة إلى ستة ويستثنى من ذلك الفرفر^(٢) الذي لديه عدد معين من الإشارات يقارب العشرين أو ما إلى ذلك، وبهذا يتضح حجم الاختلاف، تتجلى بعض الخصائص الهامة للغة - والتي سوف نناقشها فيما بعد - عن طريق ارتباطها بتلك الخاصية الرئيسية.

بهذه المناسبة قد تتساءل عن عدد الفونيمات التي تشتمل عليها اللغة الإنجليزية، فتكون الإجابة أربعون فونيماً أو أكثر، تتسم الإجابة بهذا الغموض لأن متحدثي اللغة الإنجليزية لا يستخدمون أصوات الكلام بصورة متساوية، فعلى سبيل المثال هل تنطق كلمتي **book** (كتاب)، **buck** (نكر الظبي) بنفس الطريقة أم أنهما مختلفتان في النطق ؟ إن الناس الذين ينطقونهما مختلفتين لديهم حرف صائت لا يملكه أولئك الذين ينطقونهما نفس النطق، ماذا عن **air** (هواء)، **hair** (شعر) ؟ يمتلك الناس الذين ينطقون هاتين الكلمتين بصورة مختلفة حرف صامت لا يملكه أولئك الذين ينطقونهما نفس النطق، ينطبق الأمر ذاته على **"free, three"** (ثلاثة، حر)، **"cot, caught"** (سرير متحرك للأطفال، مسك)، **"poor, pour"** (يسكب، فقير)، **"pool, pull"** (يدفع، حوض السباحة)، **"fur, air"** (فراء ، هواء)، بنفس الطريقة يمتلك الناس الذين لا تتقافى لديهم

(٢) قرد أفريقي صغير .

كلمتي "singer, finger" (إصبع، مطرب) حرفاً صامتاً لا يمتلكه أولئك الذين تتقافى لديهم هاتان الكلمتان، (قد تندش عندما تعرف أن هناك أناساً يصنعون فروقاً أثناء الكلام لا تصنعها أنت أو يخفقون في إحداث فروق تنجح أنت في صنعها، فتلك هي الطريقة التي تسير عليها الأمور)، ومع ذلك فإن عدداً قليلاً جداً من متحدثي الإنجليزية يمتلكون أقل من أربعين فونيماً أو أكثر من خمسة وأربعين.

تتباين اللغات الأخرى في عدد الفونيمات التي تتضمنها، فمن ناحية تحتوي اللغة البرازيلية "بيراها" على عشرة فونيمات فقط (سبعة فونيمات صامته وثلاثة صائتة) بينما تحتوي بعض اللغات القوقازية على ثمانين فونيماً على الأقل (أغلبهم من الصوامت) وذلك من الناحية الأخرى، يمثل الرقم المتوسط بين هذين الرقمين حوالي خمسة وعشرين فونيماً ولذلك فالإنجليزية بفونيماتها الأربعين تفوق المتوسط بقليل، لكن بغض النظر عن عدد الأصوات المستخدمة تبني كل لغة بشرية على مبدأ "ثنائية التتميط"، ذلك المبدأ الذي تنفرد به ويتواجده في عالمنا الطبيعي والذي بدونها لم تظل اللغة كما نعرفها.

اللاحضور والنهايات المفتوحة :

"اللاحضور" هو استخدام اللغة بهدف الحديث عن أشياء غير متواجدة في التو واللحظة، فنحن لا نجد أدنى صعوبة في التحدث عن مباراة كرة القدم التي تمت الليلة الماضية أو عن طفولتنا أو عن سلوك الديناصورات التي عاشت منذ أكثر من مائة مليون عام أو المصير النهائي للكون ، وينفس الدرجة من اليسر نستطيع مناقشة الأحداث السياسية التي تقع في "بيرو" أو على سطح كوكب نبتون.

تُعرف "النهايات المفتوحة" بأنها قدرتنا على استخدام اللغة من أجل الحديث عن أي شيء على الإطلاق بما في ذلك الأشياء التي لم نسمع بها من قبل، وإليك بعض الجمل الإنجليزية :

- تحتل لوكسمبورج نيوزيلندا.
- إن العنكبوت الكبير ذا اللون الورد والذى يرتدى نظارة شمسية ويمسك مكتسة من الريش يرقص على الأرضية.
- كتب شكسبير مسرحياته باللغة السواحيلية ثم تمت ترجمتها إلى الإنجليزية بمساعدة حراسه الأقارعة.

من المؤكد أنه لن يسبق لك مقابلة مثل هذه الجمل، وبالرغم من ذلك فإنك لم تجد أية صعوبة في فهمها بالرغم من عدم اقتناعك بها جميعاً، كما أنك لا تصالف صعوبة في إنتاج المزيد من الجمل الإنجليزية الجديدة تماماً عند الحاجة إلى ذلك، ففي الحقيقة معظم الأشياء التي نقولها وتسمعها كل يوم تكون جديدة تماماً وربما لم يتفوه بها أي شخص من قبل.

إن هاتين الظاهرتين - قدرتنا على الحديث عن أماكن وأشياء بعيدة في المدى والزمن وكذلك قدرتنا على إنتاج وفهم مقاطع جديدة بلا حدود - مألوفتان لنا حتى أنهما لا يشغلان تفكيرنا كثيراً، وهذا لا ينقص من أهميتهما شيئاً فهما حقا على جانب كبير من الأهمية، هل باستطاعتك الحديث عن الوقت الحاضر فقط أو الأشياء التي تراها أثناء كلامك؟ وبالمثل هل باستطاعتك تخيل الحديث بلغة لا تتكون إلا من عدد محدود من المقاطع حتى إنك في كل مرة تفتح فيها فمك للكلام لا تمتلك إلا اختيار مقطع واحد من تلك القائمة المحدودة؟ بالطبع ستكون هذه اللغة أبعد ما يكون من اللغات المتعارف عليها.

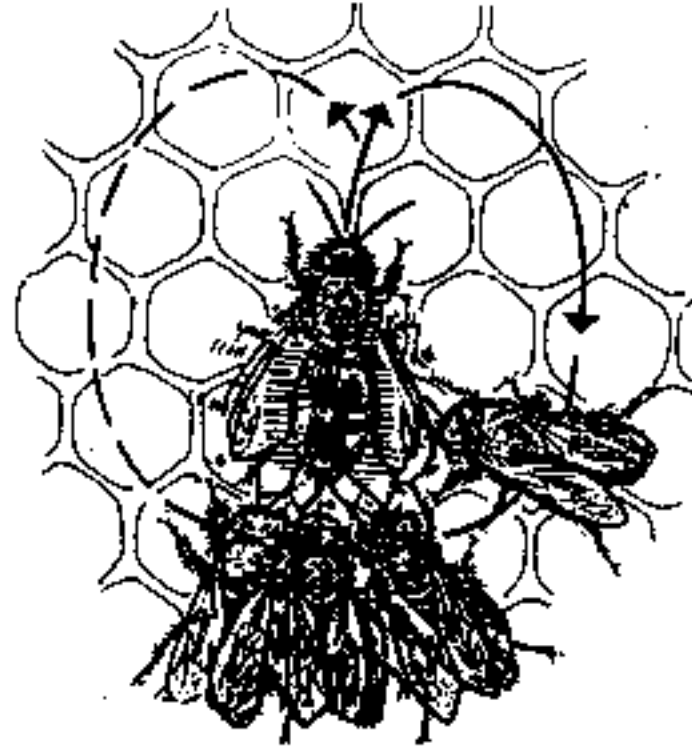
تتشابه الحالة السابقة مع النظام الإشاري للحيوانات ولكن باستثناء واحد سنناقشه فيما بعد وهو عدم استخدام الحيوانات لخاصية "اللا حضور"، فالفئران لا تتبادل الحكايات عن مشاجراتها المتوقعة مع القطط، والدببة لا تناقش قسوة الشتاء القادم، كما أن الأرنبي لا تدخل في مناقشات حادة عن ذلك الشيء الذي يروونه فوق التل، ولا يخطط الإوز لهجرته القادمة، في الواقع ترتبط كل التعبيرات التي يصدرها الحيوان ارتباطاً مباشراً وكلياً بزمان ومكان الحدث.

علاوة على ذلك لا تمتلك مثل هذه المخلوقات ما يسمى بالنهايات المفتوحة حيث يظهر بدلاً منها عدد ضئيل من المقاطع التي تكون النظام الإشاري لكل فصيلة، وبخلاف تلك المقاطع المتاحة لا يمكن التعبير عن شيء، ربما يستطيع القرد التعبير عن القول "احترس هناك نسر إذا كان الحدث متمثلاً أمامه و لكن لا يستطيع القرد نفسه تقديم أي مقاطع جديدة كأن يقول بلا سابق إنذار "احترس هناك اثنان من الصيادين يمسون بناق"، أو يتساءل عند رؤية السيارة "لاند روفر" يا رفاق ماذا تظنون أن يكون ذلك الشيء؟".

بالطبع لا يوجد بديل إذا ما اختفت خاصية "الثنائية"، إنها وسيلة ضرورية للتعبير عن المزيد من المعاني المختلفة، بدون الثنائية تظهر المخلوقات غير الإنسانية وكأنها مقيدة بعالم من التعبيرات غير المفهومة، إنه عالم خال من الماضي والمستقبل، محاط بالأفق، يفتقد التجديد و يتكون من عدد لا نهائي من الرسائل المألوفة المتكررة التي تعبر عما يحدث في الوقت الحاضر.

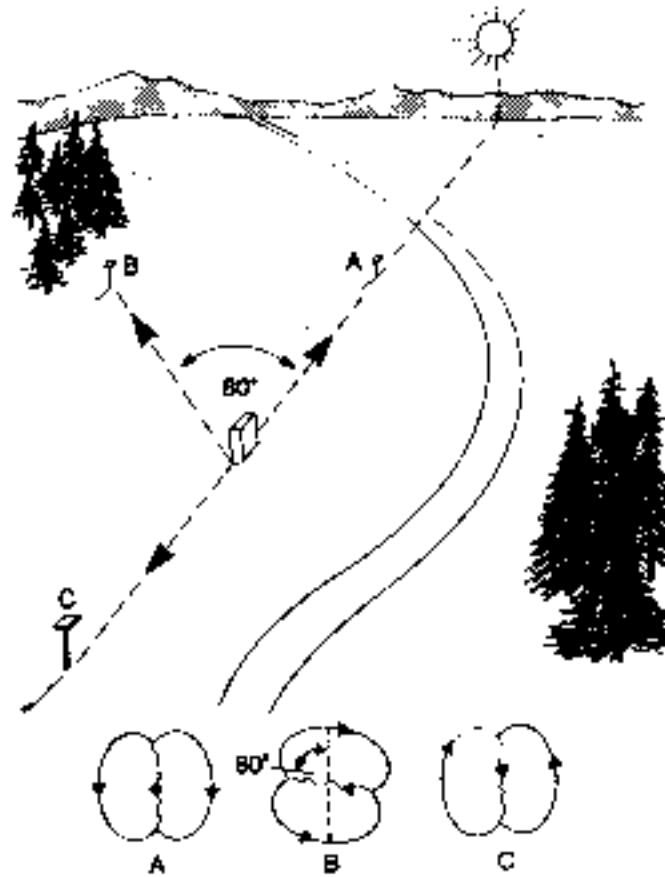
بالرغم مما سبق ذكره يوجد استثناء وحيد يخرج من تلك الصورة القاتمة ألا وهو وجود مخلوق يحتوى نظامه الإشارى على "اللا حضور" بصورة جلية، إن ما هذا المخلوق المتميز؟ إنه ليس بالشعبانزى ولا بالدولفين كما قد يخطر ببالك، إنه نحل العسل.

استطاع كارل فون فريش عالم الحيوان النمساوى فى ١٩٥٠، ١٩٦٠ إجراء مجموعة من الدراسات حول سلوك النحل الأوروبى، فالنحل الكشاف عندما يجد مصدرا جيدا للرحيق لا يلبث أن يعود إلى خليته حيث يؤدي رقصة قصيرة مذهشة يشاهدها باقي النحل، تختلف تفاصيل هذه الرقصة طبقا لبعده مصدر الرحيق عن الخلية وفصيلة النحل (أى أن النحل لديه لهجات)، فى أكثر الحالات شيوعا تقوم النحلة الراقصة بهز الذيل على شكل الرقم ثمانية المضغوط، استطاع فون فريش حل شفرة هذه الرقصة فوجد أن الوقت الذى تأخذه النحلة من أجل إكمال دائرة الرقم ثمانية يوضح المسافة التى يبعدها مصدر الرحيق عن الخلية : أى أنه كلما طال الوقت طالت مدة الطيران، كما أن مستوى الإثارة الذى تظهره النحلة يدل على كمية الرحيق وبالتالي على عدد النحل المراد لجمعها : كلما زادت الإثارة كان حجم الرحيق أكبر و تطلب عددا أكثر من النحل، أخيرا - الشيء المدهش - يتم موقع الجزء المستقيم للرقم ثمانية على اتجاه مصدر الرحيق بالنسبة لموقع الشمس : فعلى سبيل المثال إذا وقع الجزء المستقيم مسافة ٨٠ درجة جهة الشمس من اليسار، فإن النحل سوف يطير ٨٠ درجة باتجاه يسار الشمس.



شكل (١-١): النحل الراقص

إن هذا هو "اللاحضور"، تنقل النحلة الراقصة معلومات عن مصدر الرحيق الذي سبق لها أن رأتته وابتعدت عنه أميالاً مما يجعلها لا تراه في اللحظة الحاضرة، بالإضافة إلى ذلك فإن النحل الذي يشاهدها يعرف جيداً أنها تُبَلِّغُه بمهمة ينبغي أن ينفذها في المستقبل القريب، كذلك وجد "فون فريش" أن النحل يستطيع تحديد مكان مصادر الرحيق حتى مسافة سبعة أميال (حوالي ١١ كم)، إنه لشيء رائع، في اعتقادك إلى أي مدى يمكنك النجاح في اكتشاف مجموعة معينة من الأشجار التي تقع على بعد سبعة أميال بمجرد سماعك رسالة شفوية تأمرك بفعل ذلك ؟



شكل (٢-١)

الرقصات التي ترشد النحل الشغالة إلى ثلاثة أماكن للغذاء أ، ب، ج

في تجربة شهيرة مكن "فون فريش" بعض النحل الكشاف من اكتشاف مصدراً صناعياً للرحيق - إثناء يحتوى على سكر وماء - موضوعاً على عمود يبلغ ارتفاعه عشرون قدماً، وهو ارتفاع يفوق ما اعتاد عليه النحل، رجع النحل إلى الخلية كالعادة وأدى رقصته، فماذا كانت النتيجة ؟ اتجهت مجموعات النحل إلى المصدر محدثة طنيناً

ينتابه بعض الاضطراب ثم عادت إلى الخلية، لم يتمكن النحل الراقص من إدراج المعلومة الجديدة الخاصة بالارتفاع ضمن رقصته، أو كما قال "فون فريش" لا تشمل لغة النحل على كلمة "فوق".

كم هو مدهش ذلك النوع من الرقص، فنحن لا نملك معه إلا الإقرار بأن مخلوقا واحدا بجانب الإنسان لديه القدرة على استخدام خاصية "اللاحضور" في عملية التواصل الخاصة به، لكن يجب ألا ندع الدهشة تغمض أعيننا عن بعض الحقائق الهامة، فالنحل يمثل حالة فريدة في عالم الحيوان لا تتشابه معها أية حالة أخرى، كما أن هذا الرقص مقيد في قوته التواصلية حيث لا يمكنه إضافة أي تجديد، وبخلاف قدرة النحل على استخدام خاصية "اللاحضور" فإنه قاصر في قوته التعبيرية كأي نظام إشاري يمتلكه حيوان، أي أن النحل يفتقر إلى وجود لغة.

الحرية المشروطة :

تعد خاصية "الحرية المشروطة" من الخواص الوثيقة الصلة بالخصائص الشكلية السابقة وإن كانت تختلف عنها جزئيا، وتعرف هذه الخاصية بأنها قدرتنا على التفوه بأي شيء نوده مهما اختلف سياق الكلام، فمثلا افترض أن شخصا ما سألك "ما رأيك في جونلتى؟" سيكون لك مطلق الحرية في الرد بأية إجابة بما في ذلك عدم الإجابة على الإطلاق، أي ربما تكون إجابتك "إنها قصيرة للغاية" أو "إنها لا تتناسب مع بلوزتك الوردية" أو "آسف ليس عندي نوق في اختيار الملابس" وربما لا تجيب وتغير مجرى الحديث.

هذا لا يعني أن الحديث البشري يسير بطريقة عشوائية، فهناك ضروريات اجتماعية تجعل لبعض الإجابات أولوية الظهور عن غيرها، فمثلا إذا كنت صديقا حميما للسيدة صاحبة الجونلة لن تكون إجابتك على النحو التالي: "ما هذا يا جوليا؟ إن رداءك ليبي يبدو أفضل مما ترتدين، إنك تملكين أقبح نوق في العالم"، ولكن حتى إذا كنت تفكر في تلك الإجابة فإنك أغلب الظن لن تتفوه بها ليس لأن هناك شيئا في اللغة الإنجليزية يمنعك من ذلك ولكنها التقاليد الاجتماعية والرغبة في الحفاظ على العلاقات الطيبة.

إن غياب خاصية "الحرية المشروطة" يحيل اللغة البشرية إلى شيء غير مفهوم، تخيل أن كل كلمة تقولها تكون مقيدة بالسياق الذي تقال فيه ستكون النتيجة تحوكل إلى شخصية تؤدي دورا في مسرحية ليس لديها أية فرصة في اختيار ما تقول، بالطبع

هناك بعض المواقف الرسمية وبخاصة التي تتسم بالطابع الاحتفالي - مثل الاحتفالات الكنائسية والولائم - يحدث فيها ذلك، ولكن هذه المواقف لا تمثل قاعدة عامة، كما أنه بإمكانك في مثل هذه المواقف قول أى شىء غير متوقع عن قصد وإن ضر ذلك بإمكانك بين الناس.

لابد أنك تتوقع سماع ما يدل على أن خاصية الحرية المشروطة قاصرة على اللغة البشرية ونحن بدورنا لن نخالفك فى هذا الرأى، فالإشارات غير البشرية ليست مشروطة الحرية بل إنها مطلقة الحرية، تعنى بذلك أن أى حيوان ينتج إشارة معينة دائما و فقط عندما يتوافر المثير المناسب، فعثلا إذا رأى قرد نسرا يقترب وهو فوق الشجرة فإنه فى الحال يصدر صيحة مفاها "احترس هناك نسر" وهو لا يفعل ذلك فى أى وقت آخر، أى أنه - عند رؤية النسر - لا يفكر قائلا ربما إذا وقفت ساكنا ينقض النسر على حيوان آخر وأبقى أنا آمنا.

بالرغم من ذلك، هناك بعض الأفعال غير المتوقعة تصدر عن بعض الحيوانات ، فقد لوحظ فى إحدى المرات أن ثعلب القطب الشمالى يصدر صيحة دالة على الخطر فى غياب أى خطر، وذلك فقط لكى يبعد صغاره عن تناول الطعام الخاص به، نلاحظ أن مثل هذه المواقف تكون نادرة الحدوث كما أنها تأتىنا من مصادر حكاية فهى لا تمثل السلوك الطبيعى للحيوان الذى هو بطبيعته مقيد الحرية.

نخلص من ذلك أن الأنظمة الإشارية للحيوانات تختلف كلية عن اللغة البشرية نظرا لعدم احتوائها على كل من "ثنائية التمييز"، و"الاحضور"، و"النهايات المفتوحة"، الحرية المشروطة، إن عالم المخلوقات اللابشرية يختلف تمام الاختلاف عن عالمنا ، إنه من وجهة نظرنا فارغ، عديم الملامح، محدود ومغلق، إن اللغة البشرية - كما ذكرنا فى بداية الفصل - سمة فريدة على كوكب الأرض وبتوئها لم يكن بوسعنا أن نعتبر أنفسنا بشرا.

الاعتباطية :

بالإضافة إلى الخصائص الشكلية التى تميز لغة البشر عن الأنظمة الإشارية للحيوانات توجد خصائص أخرى ليست بفريدة ولكنها جديرة بالاهتمام، من بين هذه الخصائص "التوقيفية" وهى غياب أية صلة ضرورية بين الشكل اللغوى ومعناه.

لاحظ كلمة ضرورية، والتي توضح أننا لا ننفي وجود أية علاقة بين الكلمة الإنجليزية "pig" (خنزير)، وذلك الحيوان الضخم الذي يطلق عليه هذا المسمى، توجد علاقة بالفعل ولكنها علاقة اعتباطية، فليس هناك سبب معين جعل متحدثي اللغة الإنجليزية يطلقون على هذا الحيوان ذلك الاسم بعينه : تلك العلاقة مجرد اتفاق درج عليه المتحدثون منذ وقت بعيد، كما أن متحدثي اللغات الأخرى بدورهم قد توصلوا إلى اتفاق يختلف عما اتفق عليه الناطقون بالإنجليزية بشأن تسمية ذلك الحيوان، وجدير بالذكر أنه ليس هناك كلمة مناسبة للتسمية أكثر من غيرها، فالكلمة تكون مناسبة وتلقى قبولا عندما يتفق مستخدموها عليها.

إن الاتفاق على تسمية معينة لا يظل قائما طوال الوقت، فحينما كان يطلق على الحيوان ذاته كلمة "swine" والتي تحمل في طياتها معنى الإهانة إذا نُعت بها شخص ما في وقتنا الحاضر، إن التوصل لقرار بشأن أية كلمة معبرة عن معنى مجرد اتفاق أو عادة في المقام الأول، تشتعل اللغات المختلفة على اتفاقات وعادات متباينة (هذا سبب كونها لغات مختلفة)، كما أن العادات المتبعة في لغة يمكن أن تتغير ويحدث هذا بالفعل.

قد تتمثل "التوقيفية" من خلال طريقة أخرى تناقض ما سبق ذكره، فعلى سبيل المثال تحمل الكلمة الإنجليزية "mean" معان مختلفة وهي (يعنى، يفيد، يقصد، ينوى، يندب، حقير، متوسط، بخيل، وسيلة)، أو بصورة أكثر دقة نقول إن هناك كلمات إنجليزية عديدة تأخذ نفس شكل الكلمة "mean" ، كما تُنطق الكلمة الفرنسية "mine" بنفس طريقة الكلمة الإنجليزية "mean" وهي تعنى (فحم)، بالمثل تعنى الكلمة الويلزية^(٢) "min" (طرف)، بينما تعنى الكلمة الباسكية^(٣) "min" (ألم)، فى حين تعنى الكلمة العربية "min" (من)، كما نرى لا يوجد شيء ما بتلك الكلمات يجعلنا نعتبر أحدها أكثر قبولا من الأخرى.

إن تواجد خاصية "التوقيفية" فى أية لغة هو السبب الرئيسى وراء ما نقضيه من وقت طويل فى تعلم كلمات أية لغة أجنبية، لأنه من الصعب تخمين معان غير مألوفة لدينا، فوجب معرفة معنى كل كلمة على حدة والدليل على ذلك هو ما سوف نعرضه عليك من أسماء باسكية لحيوانات، ونحن متأكدون أنك لن تتمكن من معرفة أى منها : "zaldi" (فرس)، "igel" (ضفدع)، "txori" (طائر)، "ollo" (بجاجة)، "behi" (بقرة)، "sagu" (فأر).

(٢) لغة شعب مجهول الأصل يقطن منطقة البرانس الغربية فى فرنسا وإسبانيا .

كذلك من المستحيل أن نجد مترجماً عالمياً على دراية بكل لغات العالم والسبب في ذلك أيضاً خاصية "التوقيفية"، افترض أنك تعرف عدداً لا بأس به من كلمات اللغة الباسكية، وافترض كذلك أن شخصاً ما قال لك "Watch out- you might run into alupu out there" وأنت لاتعرف ما تعنيه كلمة "lupu"، سيجعلك ذلك في حيرة من أمرك: هل تعني هذه الكلمة شرك لاصطياد الدببة أم سم قاتل أم لص مسلح أم نخب جائع؟ إنها تعني "عقرب"، وهي كلمة منقرضة منذ القرن السادس عشر، ومعناها في اللغة الباسكية الحالية "ذئب"، لهذا تعني الجملة السابقة "احترس، ربما يصانفك عقرب في هذا الاتجاه"، أليس ذلك أمراً يصعب على المترجم العالمي؟

لا تعد خاصية "التوقيفية" حكراً على اللغة البشرية، فهي تتمثل في الأنظمة الإشارية للحيوانات وكذلك في كل نظام اتصالي يمكن تصويره، قد يحدث أن تصادف بعض العناصر في اللغة لا تتمثل بها خاصية التوقيفية، فتكون طبقاً لذلك رمزية، الرمزية^(٤) علاقة مباشرة بين الشكل والمعنى، إننا نجد بعض العناصر الرمزية في رقص النحل، كما نجد تلك العناصر في اللغة الإنجليزية.

تعد التسمية بالمحاكاة الصوتية أحد أبرز الدلائل على الرمزية، إنها الإشارة إلى الأصوات التي تصدر عن الأشياء بكلمات تشبه تلك الأصوات، ومن أمثلتها "splash" (يرش)، "clink" (يصلصل أي يصدر صوتاً شبيهاً باحتكاك المعادن أو النقود)، "buzz" (أزيز أو طنين)، "meow" (مواء)، "moan" (عويل)، "whoosh" (انفجار مفاجئ يحدث صوتاً انفجارياً)، "thud" (صوت الارتطام بالأرض)، "moo" (خوار)، "ping" (أزيز الرصاص)، "quack" (صياح البط)، "boom" (بوم)، تمثل كل هذه الكلمات محاولات لإنتاج أصوات فعلية باستخدام الفونيمات الإنجليزية، لكن تتمثل بهذه الكلمات صفة التوقيفية، تستطيع الاستدلال على ذلك بمقارنة أمثال تلك الكلمات في اللغات المختلفة، يسمى صوت البندقية في اللغة الإنجليزية "bang"، وفي الإسبانية "pum"، وفي الفرنسية "pan"، وفي الألمانية "peng"، وفي الباسكية "dzast".

في الحقيقة تتمثل صفة التوقيفية في تلك الكلمات التي تبدو بها المحاكاة الصوتية، مما يستدعي دراستها على حدة كالكلمات العادية، فانت مثلًا لا يمكنك تخمين معنى الكلمة اليابانية "chirin-chirin" إنها تعني (رنين)، ماذا عن كلمتي اللغة

(٤) ضرب من الكتابة التصويرية .

التركية "sip" (صوت شبيه بشيء يغطس في الماء)، "sak" (بوى) ، العبرية "yimyum" (مواء) ، الباسكية "Kukurruku" (بيك) لابد أنك توقعت المعنى ذاته، اليابانية "pyuu" (أزيز).

هناك نوع آخر من الرمزية أكثر دقة مما سبق الحديث عنه، افترض أننا أخبرناك أن الكلمة الباسكية "tximeleta" (التي تُنطق على النحو التالي chee-may-lay-tah) هي اسم لأحد الكائنات، في رأيك ما ذلك الكائن؟ كبير أم صغير؟ سريع أم بطيء؟ جميل أم قبيح؟ افترض أننا أخبرناك كذلك أن هذا الكائن واحد من الآتي: ثعلب، ثور، فراشة، قوقعة، سلحفاة، أيها تختار؟

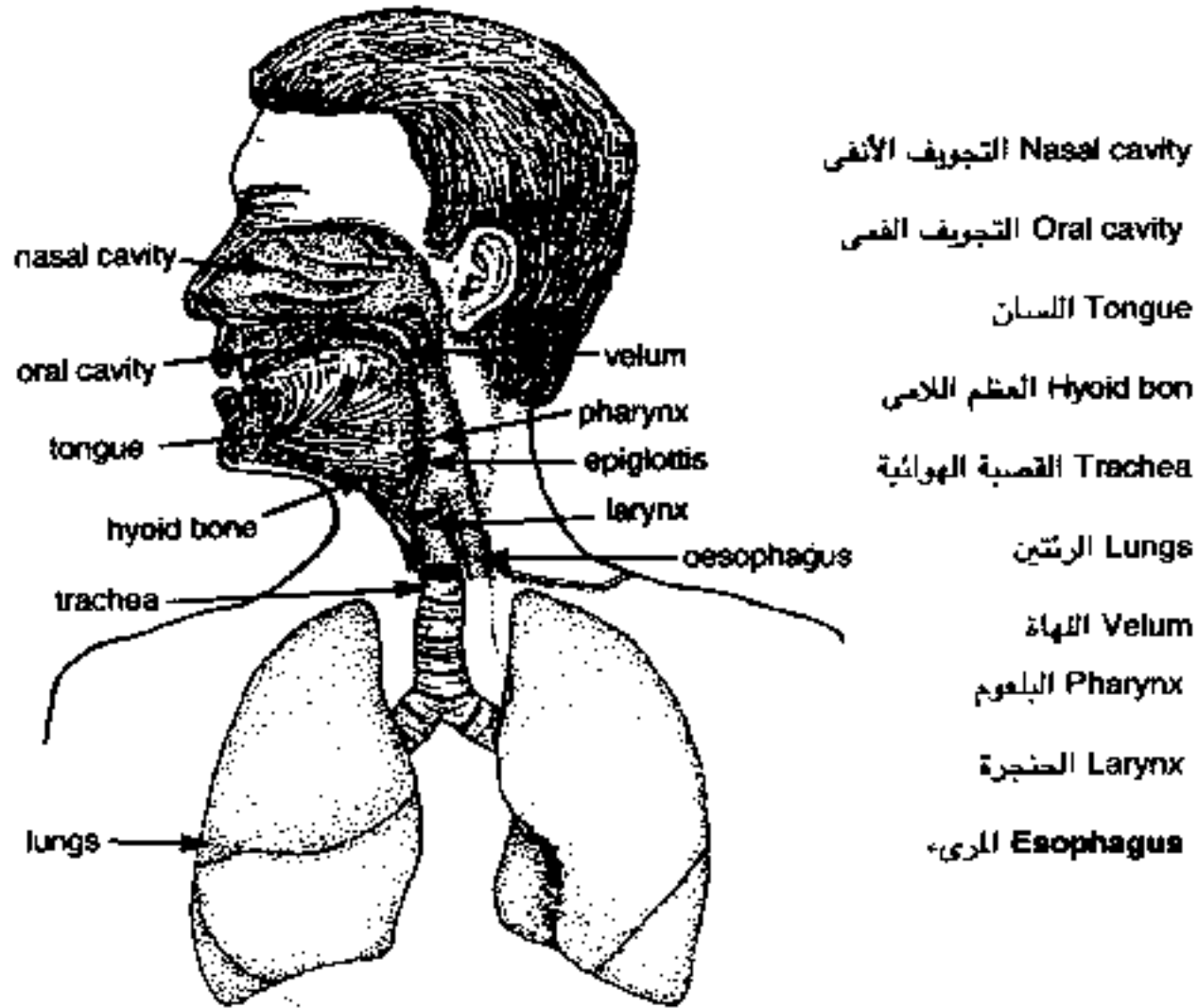
نأمل أن تكون قد توصلت لإجابة، يرى أغلب الناس أن الكلمة تدل على كائن - ليس بكبير أو ثقيل الوزن أو بطيء - صغير الحجم خفيف الوزن يتحرك بشكل سريع ورشييق، تبعاً لذلك فهم يتخبرون من الكائنات السابقة الكائن الوحيد الذي يتميز بصغر الحجم وبخفة الوزن والرشاقة، أي الفراشة.

لا تعد الحالة السابقة تسمية بالمحاكاة الصوتية، فالكلمة الباسكية "tximeleta" لا تدل على أي صوت - لاحظ أن الفراشة لا تصدر أية أصوات - بل تدل على شكل الكائن التي تطلق عليه، الكلمة تبدو خفيفة ورشيقة وكذلك الفراشة.

الجهاز الصوتي :

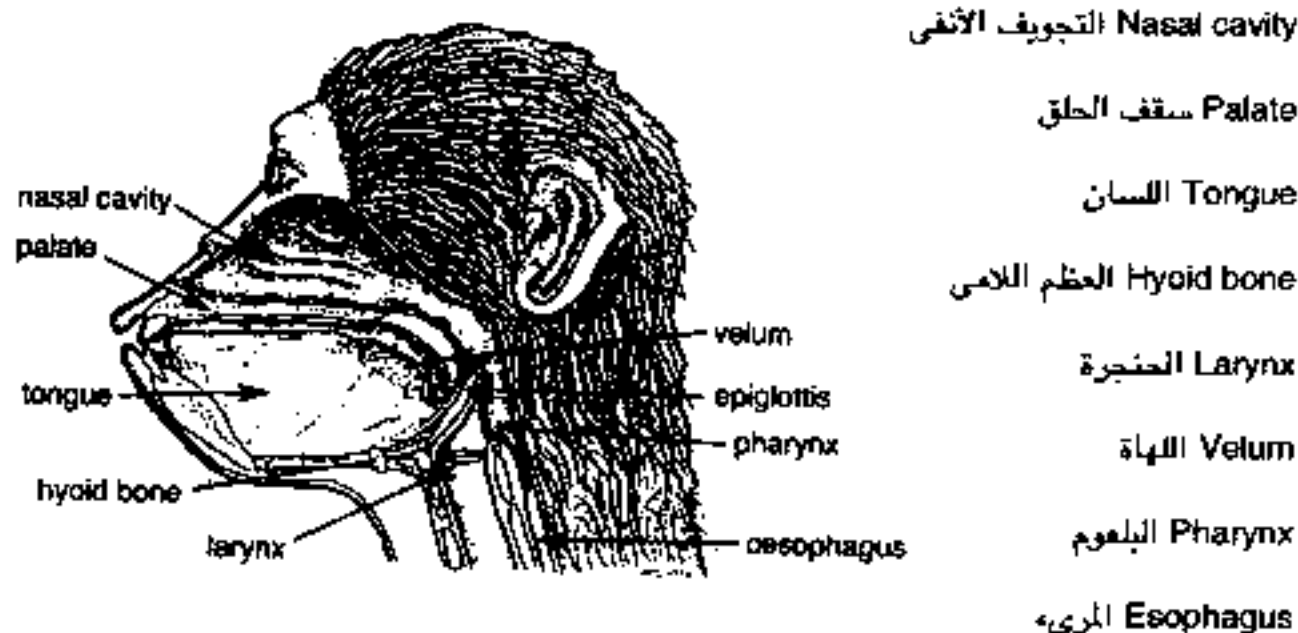
يعد الكلام - كما سبق أن ذكرنا - الوسيلة الطبيعية للتعبير عن اللغة، نقصد بالكلام إنتاج تتابع من الأصوات وهو ينتج عن طريق خروج الهواء ودخوله من وإلى الفم والأنف، بالطبع لا يمثل الكلام الطريقة الوحيدة للتعبير عن اللغة، إنك بقراعتك للكتاب الذي بين يديك تكون قد تعرفت على طريقة أخرى للتعبير عن اللغة ألا وهي الكتابة - هي طريقة حديثة في تاريخ اللغة البشرية، ترجع أقدم النصوص المكتوبة إلى ما يقل عن ٦٠٠٠ عام، بينما يبلغ عمر الكلام - كما ستري فيما بعد - أكبر من ذلك بكثير، كما أن أغلب لغات العالم والتي تبلغ ٥٠٠٠ لغة لا تكتب في العادة، تعد لغة الإشارة اختراعاً بالغ الحداثة بالمقارنة بالكلام والكتابة، تتكون هذه اللغة من إشارات اليد وهذا ما سوف نناقشه فيما يلي.

بالرغم من هذا يمثل الكلام الوسيلة الطبيعية والمعتادة للتعبير عن اللغة، فتطور النمو عند الإنسان مكنه من الكلام بطريقة بارعة، يسمى المر الذي يتدفق خلاله الهواء أثناء كلامنا بالجهاز الصوتي، يتفرد الإنسان بجهاز صوتي مختلف تماما عن مثيله عند الثدييات، فحتى أكثر الكائنات شبيها بالإنسان - القرود - تمتلك جهازا صوتيا مختلفا تماما عن جهازنا وفي ذات الوقت يتشابه جهازهم الصوتي هذا مع أجهزة الخيول والفتران، انظر إلى الشكلين (١-٣)، (١-٤) اللذان يعرضان قطاعا عرضيا في الجهاز الصوتي لكل من الإنسان والشمبانزي.



شكل (١-٣)

الجهاز الصوتي للإنسان



شكل (٤-١)

الجهاز الصوتي للشمبانزي

تظهر العديد من الاختلافات، أولها كبر حجم الجهاز الصوتي البشري واختلاف شكله فهو يمتد امتدادا كبيرا خلف اللسان، بالإضافة إلى ذلك يوجد اختلاف كبير في العلاقة ما بين القصبة الهوائية التي تؤدي إلى الرئتين والمريء الذي يؤدي إلى المعدة، يحتوي الجهاز الصوتي الخاص بالشمبانزي ومعظم الثدييات على غضروف كبير الحجم يطلق عليه اللهاة والذي يعمل كصمام بين القصبة الهوائية والمريء، فعندما تكون اللهاة مرفوعة تكون القصبة الهوائية متصلة بالأنف ويكون الفم مغلقا، أما إذا كانت اللهاة في وضع منخفض فيصبح الفم متصلا بالمريء بينما تكون القصبة الهوائية مغلقة، من شأن هذه العملية حماية الشمبانزي من خطر الاختناق أثناء الأكل.

يعد الإنسان أسوأ حظا من الشمبانزي في هذا الشأن، فالجزء الأكبر من جهازنا الصوتي والمسمى بالبلعوم له وظيفتان، فهو يعمل على تدفق الهواء ومرور الطعام، كما أن اللهاة البشرية الصغيرة الحجم لا تلعب دورا حيويا في غلق القصبة الهوائية أثناء عملية البلع، نتيجة لذلك يكون من السهل إصابتنا بالاختناق أثناء تلك العملية، فالعديد من الناس يموتون من جراء ذلك في بريطانيا كل عام، إنن لماذا يضم الجهاز الصوتي البشري ذلك الجزء الخطر وهم أكثر أنواع الثدييات تفردا؟ لماذا لم يظل الجهاز الصوتي الخاص بأسلافهم كما هو ويتوارثونه هم ؟

ما هو أكثر غرابة الحقيقة التي تقر بأن الأطفال حديثو الولادة لديهم جهاز صوتي يشبه ذلك الخاص بالشمبانزى وهم بذلك في مأمن من خطر الاختناق، ولكنهم ما إن يبلغوا الثلاثة أشهر من العمر حتى يبدأ جهازهم الصوتي في النمو حتى يأخذ ذلك الشكل الخاص بالبالغين، يبدو أن ما حدث هو طفرة بجهازنا الصوتي جعلته يأخذ شكله الحالي، لماذا ؟

تتوافر بالجهاز الصوتي البشرى ميزة عظيمة تجعلنا نخفل عن كونه خطيراً، فهو لكبر حجمه وامتداده يمكننا من إحداث عدد من أصوات الكلام - على الأقل حفنة من الصوامت والصوائت المميزة - نجد أن الجهاز الصوتي لكل من الشمبانزى والأطفال حديثي الولادة يفتقر إلى وجود مثل هذه الخاصية، فقد أثبتت الدراسات عدم قدرة الشمبانزى على إحداث أكثر من صائت وحيد وصامتين وهذا كفيل بعدم تمكنه من الكلام، تذكر أننا بحاجة إلى كم من الأصوات لكي نستخدم خاصية "الثنائية" والتي بدونها لا يمكن أن تتواجد اللغة.

استنتج العديد من الباحثين مما سبق ذكره أن السبب الرئيسي وراء تطور جهازنا الصوتي هو تمكننا من الكلام، فالقدرة على الكلام واستخدام اللغة من السمات التي تميز فصيلتنا حتى وإن كانت ضريبتها فقدان عدد من الأشخاص كل عام بسبب الاختناق، كما يتبع تطور جهازنا الصوتي تطوراً آخر في المخ البشرى المتصف بكبر حجمه أيضاً، حيث يتطلب استخدام اللغة قدرة خاصة تتمثل في سرعة العمليات العقلية وليس الأمر مقصوراً على الكلام فقط، كما تعرف تفتقد القردة إلى جزء المخ الخاص بالعمليات العقلية المتممة للكلام.

حدثت العديد من نقاط التحول على مدار تاريخ التطور الإنساني - عمودنا الفقري، أيدينا، أصابعنا، وبخاصة أصابع الإبهام، كلها تطورت إلى حد كبير، ولكن كما نعرف حدثت هذه التطورات لأسلافنا منذ ملايين السنين في وقت لم يتطور به المخ والجهاز الصوتي، هذا ويعد تطور الكلام واللغة من أكبر التطورات التي حدثت على مدى التاريخ البشرى، ذلك التطور الذي ميزنا عن أسلافنا من البشر وأشياهننا من الحيوانات وجعل من سلوكنا الإنساني سلوكاً متفرداً، لذلك اقترح كثير من المتخصصين تسمية فصيلتنا الاسم اللاتيني (البشر المتكلم) بدلا من (البشر المفكر).

لا أحد يعرف متى تطورت اللغة البشرية، ولكن اتفق الكل على أنها ظهرت منذ ١٠٠٠٠٠ عام تقريبا استنادا إلى الدليل الذي وجد لبشر يشبهوننا تماما، إلا أن قلة من الباحثين يرجعون ظهور اللغة إلى وقت قبل ذلك بمدة كبيرة، أكثر من مليون عام وهو الوقت الذي عاشه أسلافنا، لا شك أن الموضوع قابل للجدل والنقاش وخاصة أننا لا نملك دليلا عمليا مؤكدا عليه.

قام العالمان فيليب لييرمان^(٥) وإدموند كريلين بتناول هذا الموضوع في سلسلة من الإصدارات، اختص عملهم بالنياندرتاليين^(٥)، وهم أناس يتميزون بقصر القامة وامتلاء الجسم بصورة واضحة وكانوا يسكنون أوروبا الغربية منذ ما يقرب من ٢٥٠٠٠ عام قبل أن يختفوا فجأة ويبدو أن اختفاهم هذا كان بسبب ما وقع عليهم من ضغط من قبل أسلافنا، قدم لييرمان وكريلين شكلا للجهاز الصوتي للنياندرتالي عن طريق استخدام حفرة لجمجمة أحدهم، كان الشكل مخالفا تماما لجهازنا الصوتي وقريبا لذلك الخاص بالشمباتزي، لذلك انتهى كل منهما إلى أن النياندرتاليين كانوا غير قادرين على إصدار الكم المناسب من الأصوات ومن هنا فهم غير قادرين على الكلام.

بالرغم من روعة المحاولة التي قام بها لييرمان وكريلين إلا أن نتائجهما لم تسلم من الهجوم العنيف الذي أقر بخطأ هذه النتائج وقدم أدلة عدة على ذلك.

أولها : تعرّض تلك الجمجمة لتجارب عدة مما تسبب في تهشيمها، وثانيها إمكانية إعادة تركيبها والخروج منها بشكل جديد كل مرة - غير الشكل الذي توصل إليه لييرمان وكريلين - وقد ينتج من أحد هذه الأشكال جهاز صوتي يشبه ذلك الخاص بإنسان العصر الحالي، كما ذكر بعض النقاد أن الشكل الذي قدمه لييرمان وكريلين لم يكن يسمح لصاحب الجمجمة أن يفتح فمه، لذلك يبقى السؤال مطروحا، فلماذا لا نعرف الوقت الذي ظهرت فيه اللغة بالرغم من أن أغلب المتخصصين قاموا بتاريخ تقريبي يرجع إلى أقل من مليون عام.

الشمباتزي يشير :

حاول عدد من الباحثين في العقود الأخيرة النظر إلى أمر أصل اللغة من جهة لم يسبق لهم طرقها، برغم تأكيدنا مرارا على أن اللغة صفة مميزة للبشر دون غيرهم،

(٥) نسبة لوادي النياندرتال قرب بوسيلدروف بألمانيا حيث وجدت بقايا هيكل عظمي لإنسان قديم .

إلا أننا لا زلنا نتساءل : هل من الممكن لحيوان ما تعلم اللغة في حالة توافر الفرصة لذلك ؟

أثار هذا التساؤل عددا هائلا من التجارب، كان بعضها محور الاهتمام بحيث تم كتابته بالخطوط العريضة في الصحف، حاول العديد من الباحثين (ليس كلهم) تربية حيوان صغير وسط البشر مثله مثل الطفل الرضيع، فيتم إحاطته باللغة بل بحث على استخدامها، واجهت هذه التجربة صعوبات مستحكمة، لأنه لا يمكن لكل صغار الحيوانات التأقلم في البيئة البشرية، تم إجراء أغلب التجارب على صغار القردة - الشمبانزي بصفة تكاد تكون دائمة والغوريلا من وقت لآخر - نظرا لأنه من المستحيل تربية حوت صغير أو دلفين داخل المنزل، بالرغم من أنهما يعرفان بذكائهما الحاد، إنها - القردة - بأشكالها القريبة الشبه بالإنسان ، والتي تستطيع التكيف في البيئة الإنسانية، بل إنها أكثر الفصائل الحيوانية قربا لنا فهي لذلك أولى وأجدر بتعلم لغتنا.

لكن نظرا لعدم تواجد جهاز صوتي للقرود، كانت احتمالية تعلمهم اللغة معنومة، كانت هذه الحقيقة القاسية ضربة قاضية للتجارب الأولى التي أجريت على الشمبانزي "جوا" و"فيكي"، لاحظنا من قبل أن الكلام ليس الوسيلة الوحيدة الممكنة للتعبير عن اللغة، كما أننا نرى مدى المعاناة التي يكابدها المصابون بالصمم عند إنتاج الكلام وكذلك فهمه، وكانت الأنظمة التي تم اختراعها في القرن التاسع عشر معينة لهم للتغلب على تلك الصعوبة، كانت لغة الإشارة أحد تلك الأنظمة وفيها يستخدم الفرد يديه على الأظرف لإنتاج إشارات تمكنه من التواصل مع الآخرين، يعنى وضع طرف الإبهام على الشفاه في لغة الإشارة الأمريكية (ASL) - وهي المتبعة بالولايات المتحدة الأمريكية - (يشرب)، بينما يعنى رفع نفس الإصبع ومعه إصبعين آخرين بعيدا عن الشفاه العليا (قطة)، تستخدم لغة الإشارة الأمريكية من قبل قاعدة عريضة من المصابين بالصمم والذين أصبحوا بارعين للغاية في استخدامها - مثلها في ذلك مثل الأنواع الأخرى من لغة الإشارة (مثل لغة الإشارة البريطانية BSL) والتي تعرض مجموعة مختلفة من الإشارات - حتى أن هناك أطفالا لآباء مصابين بالصمم يستخدمون لغة الإشارة كلغتهم الأولى وهم بذلك "مشيرون أصليون"، ثم تعد لغة الإشارة مجرد شكل يشبه اللغة البشرية - متلما هو متعارف عليه - كما لم تظل تلك الرؤية المشفرة من اللغة الإنجليزية، فقد لاحظ اللغويون في السنوات الأخيرة أن لغة الإشارة التي يستخدمها المشيرون الأصليون أصبح لها من الصفات الحيوية ما يعادل صفات اللغة البشرية.

ومن تلك الصفات الأنظمة النحوية الثرية بأشكال كالعبارات الفرعية وتصريفات الأفعال، لاحظ أن القردة لها أيدٍ تماثل الأيدي البشرية كثيرا.

وضع كل من عالمي النفس "آلين"، و"بياترك جاردينز" شمبانزى صغير السن يسمى "أشور" وسط مجموعة من البشر البالغين والمستخدمين للغة الإشارة وذلك في عام ١٩٦٠، بذلت المجموعة جهودا مضيئة من أجل أن يفهم "أشور" الإشارات ويستخدمها، جاءت التجربة بنتائج مبشرة حيث أُضيف إليها عدد آخر من الشمبانزى، كما تكونت مجموعات بشرية جديدة بالتعاون مع الشمبانزى وأحيانا الغوريلا، بالإضافة إلى ذلك حاولت مجموعات أخرى فعل شيء مشابه عن طريق استخدام اللغات المُختَرعة التي تتكون كلماتها من عدد من القطع المغناطيسية ذات الألوان والأشكال المتنوعة الملصقة على لوحات، أو الأشكال الهندسية المعروضة على شاشة الحاسب الآلى.

حققت هذه التجارب نتائج مذهلة في الفترة ما بين نهاية عام ١٩٦٠ وبداية العام التالي له، استطاعت الحيوانات استيعاب المئات من الإشارات أو الرموز، والاستجابة الصحيحة للجمل الجدلوية المكونة من مجموعات جديدة من الإشارات والرموز، وكذلك إنتاج مقاطع خاصة بها بطريقة تلقائية، واستيعاب الكلمات ذات المعاني المجردة، وتكوين كلمات جديدة باستخدام مجموعات من الإشارات والرموز الموجودة من قبل أيضا، وكذلك تعليم لغة الإشارة لأولادها، قوبلت تلك النتائج باحتفاء شديد كما أثارت حفيظة كثير من النقاد.

وجد النقاد جوانب ضعف كثيرة بالأدلة التي تؤيد التجارب السالفة الذكر :

أولاً : جاءت كثير من تلك الأدلة معتمدة على عنصر الحكى تماما، لقد تألفت من عدد من الشواهد التي أفادت بأن الحيوان قد يقوم بأفعال غير متوقعة في بعض المواقف، ولكن الأدلة الحكائية تكون عديمة القيمة في مجال العلم، فقد تنتج الكثير من التغييرات عن فعل ما يقوم به الحيوان وقد تكون بعضها غير مرضية بالمرّة، أما الأدلة التي تستند إلى تقارير دقيقة عن سلوك منتظم يصدر عن الحيوان هي فقط الأدلة الهامة.

ثانياً : طبق العديد من الباحثين معايير غير دقيقة في تجاربهم على الحيوانات، فعندما كان يُسأل الشمبانزى بلغة الإشارة الأمريكية عن شيء ما وليكن تفاحة، كان الباحث يقر بصحة أية إجابة يصدرها الحيوان طالما اشتعلت تلك الإجابة على كلمة تفاحة، كأن تأتي تلك الإجابة على النحو التالي "إصبع موز أصفر جائع تفاحة".

إصبع موز تفاحة" ، تتشابه هذه الإجابة مع صيحة يطلقها طفل صغير لازل يتعلم لغته الأولى.

ثالثاً : دائما ما يريد الباحثون أن القرية تقوم بإصدار إشارات بالفعل، ولكن عندما طلب العون من أحد مستخدمي لغة الإشارة لملاحظة سلوك الحيوانات، كان ينتهي إلى أن الحيوان لا يصدر أية إشارة مفهومة اللهم إلا بعض الإيماءات عنيفة المعنى والتي أصدرها البشر المحيطون به من قبل.

أخيراً : اكتشف النقاد فوضوية الإجراءات التي استخدمت في اختبار الحيوانات، فالحيوان يرى من يعلمه اللغة يصدر إشارات بيديه فيقلدها هو دون وعي، ففي القرن التاسع عشر تمكن فرس من الإجابة على أسئلة حول علم الحساب فقط عن طريق استقاء العون من صاحبه الذي كان يشير له بالإجابة، لذلك عندما تضب مصدر العون أو ضاق مجال المساعدة جاء أداء الحيوان سيئا، أما إذا جاء به بشيء من الصحة فيكون ذلك من قبيل الصدفة.

نتيجة لذلك النقد عدل بعض الباحثين عن أمر تعليم اللغة للحيوانات، بينما فضل البعض دراسة القدرات الإدراكية العادية لحيواناتهم دون محاولة تعليمها أنواع جديدة من السلوك ، في حين أصر البعض على استكمال ما بدأوه، إلى الآن فالتجارب في هذا المجال مستمرة ولا زال الباحثون يبلغون أن حيواناتهم تمكنت من استيعاب مائتي أو ثلاثمائة إشارة ثم لا يلبث أن يتراجع أداؤهم في نفس النقطة التي يبدأ عندها الطفل إحراز تقدم هائل في تعلمه للغة ، كانت الاستفادة القصوى من كل هذه التجارب هي الخروج بالدليل القاطع الذي يقول أن الهوة واسعة بين السلوك اللغوي للطفل وغيره من الحيوانات الأخرى، أي ما زالت اللغة حكراً على البشر وسمة مميزة لهم .

الفصل الثاني

الأساس النحوي

يعد علم النحو من أهم الخصائص التي تميز أية لغة، إنه ببساطة الطريقة التي تجمع بها العناصر الصغيرة (كالكلمات) لتكوين عناصر أكبر (كالجمل)، تشتمل كل لغة بشرية على علم للنحو بل على العديد من القواعد النحوية، وذلك بلا استثناء لأية لغة من اللغات.

إن اعتقادك بأن بعض اللغات لا تشتمل على قواعد نحوية أو تشتمل على القليل منها لا أساس له من الصحة، فنحن نرى أنه حتى اللغات التي نتحدثها أقل الشعوب تقدماً وأقصاها بعداً عنا في المسافة تشتمل على كم هائل من القواعد النحوية، نستشهد في ذلك بكتاب "جون هايمن" الذي يصف فيه نحو لغة "الهوا" - لغة مستخدمة في قرية نائية بجنوة الجديدة من قبل أناس حجريين لم يتصلوا بالعالم الخارجي إلا منذ عقود قليلة - وهو يحتوي على المئات من الصفحات المكتظة، ومما لا شك فيه أن "هايمن" لم يعلن عن انتهاء ذلك الوصف، بالمثل يصل أكبر وصف لنحو اللغة الإنجليزية إلى عدد ألفين من الصفحات ولم ينته حتى الآن (لا يعني هذا أن اللغة الإنجليزية تشتمل على قواعد نحوية أكثر من لغة "الهوا"، بل يعني أن نحو اللغة الإنجليزية تلقى من الدراسة والاهتمام القدر والوقت الأكبر مقارنة بنحو لغة "الهوا")، بل الأكثر من ذلك تشتمل اللغات الاصطناعية^(٦) مثل لغة "الإسيرانتو"^(٧) على العديد من القواعد النحوية، في حين أن أنصار تلك اللغات لا يدركون هذه الحقيقة.

يأخذ علماء اللغويات - أخصائيو علم اللغويات أو الدراسة العلمية للغة - على عاتقهم مهمة اكتشاف القواعد النحوية للغات البشرية، أما النحاة فهم علماء اللغويات الذين تخصصوا في دراسة علم النحو، وكل ما يحاول النحاة فعله هو تعريف القواعد النحوية التي تحكم كل لغة.

(٦) لغة غير مبنية على لغات طبيعية .

(٧) لغة مصطنعة معروف أنها من أنجع اللغات الاصطناعية تتكون مفرداتها من خليط من كلمات مشتقة من اللغات الرومانية والألمانية .

إننا بحاجة إلى توضيح فكرة القواعد النحوية حيث أسىء فهمها مرارا، ربما يصدر مدرس اللغة الإنجليزية الخاص بك بعض التحذيرات مثل "لا تُنه الجملَة بحرف جرّ أو لا تستخدم المصدر المنشطر"^(A) أو "يتبغى أن تقول I's وليس "It's me" (ربما لا يحدث ذلك، فالعديد من المعلمين لا يبذلون جهدا في تدريس قواعد اللغة الإنجليزية هذه الأيام)، لكن العبارات السابقة - سواء كانت مألوفة أو لا - لا تمثل ما نسميه "قواعد اللغة"، إنها مجرد آراء شخصية ترشد إلى الاستخدام الأمثل للغة الإنجليزية وليست بقواعد على الإطلاق.

تختلف القواعد عما سبق ذكره، فعندما تبحث مسألة قيادة السيارة مثلا ترى أنه عند الضغط على نواصة البنزين تزداد سرعة السيارة، في حين أنه عند الضغط على القرامل تقل السرعة، أما عند إدارة عجلة القيادة جهة اليسار فإن السيارة تتجه يسارا، تلك بعض قواعد القيادة، أي الطريقة التي تسير بها السيارة والتي لا يمكنك تغييرها.

أما عن بعض النصائح الخاصة بإتقان القيادة فهي كالتالي: توقف عند رؤية الضوء الأحمر، استخدم سرعة من الدرجة الثانية عند الاتجاه لأحد الأركان، زد من سرعة السيارة عندما يتغير اللون إلى الأصفر، لا يوجد ضمان بصحة كل هذه النصائح، مثلها في ذلك مثل اللغة الإنجليزية، فليس هناك ضمان بأن الآراء السابقة والخاصة بالتعامل مع اللغة الإنجليزية هي الآراء الصائبة (سوف نبرهن - بالفصل الثامن - على خطأ هذه الآراء الثلاثة)، على أية حال فإن القواعد الخاصة بنحو اللغة الإنجليزية تختلف تماما عن مجرد نصائح الاستخدام، والآن دعونا نلقى نظرة على قواعد اللغة الإنجليزية.

ربما يتراءى إلى سمعك أحيانا ما يفيد بأن اللغة الإنجليزية لا تشتمل على كثير من القواعد النحوية، لا ينطوي هذا القول على أننى قدر من الصحة، فاللغة الإنجليزية - كأي لغة أخرى - تحتوى على عدد كبير من القواعد النحوية، في الوقت الذي تفتقد فيه إلى تواجد كثير من النهايات تختلف الإنجليزية عن اللغات الأخرى في أنها لا تستخدم النهايات بكثرة من أجل أغراض نحوية، ولكن النهايات تمثل مكونا واحدا من النحو، كما أنه ليس بالجزء الكبير.

(A) مصدر يفصل بينه وبين to كلمة ما (to really) .

قد تصاب باضطراب عندما نقول لك أن اللغة الإنجليزية تشتمل على العديد من القواعد النحوية ربما لأن كلمة النحو تخيفك أو ربما لأنك متيقن بعدم معرفتك لتلك القواعد النحوية على الإطلاق بالإضافة إلى اعتقادك بأنك لن تقوى على استيعابها، إذا تطرق تفكيرك إلى هذا الحد فإن مفاجأة في انتظارك وهي إنك بالفعل تعرف الكثير من تلك القواعد النحوية، بل إنك تعرف الكثير من نحو لغتك بما يفوق ما هو مكتوب في أضخم الكتب، نرجو أن تقوى معنا حتى نثبت لك صحة العبارة السابقة.

سنبدأ بتوضيح بسيط لبعض قواعد اللغة الإنجليزية.

انظر إلى المثال (١-٢) :

There's a spider in the bath. (١-٢)

(يوجد عنكبوت بدورة المياه)

لا يوجد ما هو لافت للنظر في هذا المثال : إنه جملة إنجليزية عادية تتكون من عدد من الكلمات الإنجليزية، بالرغم من قلة عدد النهايات بالجملة إلا أنها تضم قاعدة نحوية، لتوضيح الأمر نعيد ترتيب الكلمات على النحو التالي :

*Bath the in spider a there's. (٢-٢)

تستخدم النجمة للإشارة إلى وجود خطأ نحوي بالجملة، فالجملة السابقة لا تمت للإنجليزية بأية صلة إنها مجرد لفظ، لماذا ؟ لوجود خطأ بترتيب كلماتها، يمثل ترتيب الكلمات جزءاً هاماً من النحو الإنجليزي : ففي أغلب الوقت يفتقد متحدثو الإنجليزية إلى الحرية في اختيار ترتيب الكلمات حيث تلزمهم القواعد النحوية باتباع ترتيب معين، ألو نظرة على ترجمة الجملة (١-٢) إلى اللغة الباسكية :

Bainuan armiarma bat dago. (٣-٢)

bath-the-in spider a there's (بورة المياه-الفي عنكبوت يوجد) (ترجمة حرفية)

إن الجملة الباسكية جملة صحيحة تماماً طبقاً للقواعد النحوية لتلك اللغة، إنها تتشابه في ذلك مع الجملة الإنجليزية (٢-٢) باستثناء اختلاف بسيط وهو تلك الفواصل بين الكلمات الإنجليزية والتي تمثل اللواحق^(٩) في اللغة الباسكية، ماذا لو قمنا بترجمة الكلمات الإنجليزية السابقة بنفس ترتيب كلماتها إلى اللغة الباسكية ؟

(٩) عناصر تلحق بنهايات الكلمات .

*Dago bat armiarma-n-a balnu . (٤-٢)

ستتحول الجملة إلى كلام غير مفهوم طبقا للغة الباسكية، أي أن كلا من اللغتين الإنجليزية والباسكية تشتملان على قواعد تحكم ترتيب الكلمات وتختلف تلك القواعد في كليهما، وبخلاف تباين اللغات في تسميتها للأشياء تتباين أيضا في قواعد النحوية، لنواصل مقارنة اللغتين الإنجليزية والباسكية :

John hit Peter. (٥-٢) ضرب جون بيتر.

جملة إنجليزية أيضا وترجمتها إلى الباسكية هي :

Jonek kepa jo du . (٦-٢)

(Jon و Kepa هما الترجمة الباسكية لكل من "جون" و "بيتر"، أما jo du فهي ترجمة الفعل "is" يكون) أي أن الترجمة الباسكية الحرفية تعني "جون بيتر ضرب" وهي شيء مستحيل تواجهه في اللغة الإنجليزية، أما عند تبديل موضع الأسماء :

Peter hit John. (٧-٢) ضرب بيتر جون.

تتكون جملة إنجليزية صحيحة تختلف في المعنى عن الجملة (٥-٢)، ماذا لو بدلنا موضع الأسماء في الجملة الباسكية ؟

Kepa Jonek jo du . (٨-٢)

تتكون جملة باسكية صحيحة أيضا ولكنها لا تعني "ضرب بيتر جون" بل تعني نفس المعنى السابق بالجملة (٦-٢) "ضرب جون بيتر" (الترجمة الأفضل للجملة هي إنه جون الذي ضرب بيتر)، لا تعبا للغة الباسكية بترتيب الكلمات لأن - بخلاف اللغة الإنجليزية - النهايات النحوية تستخدم بها بكثرة وذلك لخدمة الأغراض النحوية، توضح النهاية ek - في الأمثلة السابقة - الموجودة في الاسم "Jon" أن "Jon" هو الذي يقوم بفعل الضرب وليس "Kepa" ولذلك يستطيع متحدث الباسكية تبديل موضع الكلمات دون المساس بالمعنى، أما اللغة الإنجليزية - بافتقارها لتلك النهايات - تستخدم ترتيب الكلمات لخدمة الأغراض النحوية، ومن هنا فاللغة الإنجليزية أكثر التزاما باتباع قواعد ترتيب الكلمات عن اللغة الباسكية.

لنترك الآن اللغة الباسكية ونمعن النظر قليلا في قواعد اللغة الإنجليزية.

قاعدة نحوية إنجليزية :

تأمل الجمل الأربعة التالية، والتي تتكون من نفس الكلمات وتتشابه ظاهريا في التركيب :

بعد أن استيقظت ليزا أخذت حماما. (٩-٢) After Lisa got up, she had a shower

أخذت ليزا حماما بعد أن استيقظت. (١٠-٢) Lisa had a shower after she got up .

بعد أن استيقظت أخذت ليزا حماما. (١١-٢) After she got up , Lisa had a shower .

أخذت حماما بعد أن استيقظت ليزا. (١٢-٢) She had a shower after Lisa got up .

ربما تشير كلمة "she" (هي) إلى شخص ما غير منكور بالجمل السابقة، وسؤالنا هنا هو في أي من هذه الجمل الأربع تشير (هي) إلى "ليزا" ؟

بالطبع لن تأخذ منك الإجابة وقتا كبيرا قبل النطق بها، والتي ستكون على النحو التالي : من المحتمل أن تشير (هي) إلى "ليزا" في الأمثلة الثلاث الأولى وليس المثال الأخير، أليس كذلك ؟ إذا كان الأمر كذلك فلماذا المثال الأخير بالذات ؟ إنه موضوع نحوي بحت، فهناك قاعدة نحوية إنجليزية تحكم استخدام كلمات مثل (هي) والمسمأة بالضمائر، فإذا أردت أن تستخدم (هي) للإشارة إلى "ليزا" في المثال (١٢-٢) ستكون قد أخلت بالقاعدة في حين إذا استخدمتها في الأمثلة الثلاث الأخرى فلا غبار عليك في ذلك.

إننا هذه المرة بصدد مناقشة قاعدة نحوية فعلية وليس مجرد رأي شخصي، أي إننا نتصدى للطريقة التي تسير عليها اللغة الإنجليزية، من المؤكد أنك لم تتعلم القاعدة السابقة بطريقة مباشرة، كما أنه من المؤكد أيضا أنك لم تلاحظها أو تفكر فيها من قبل، برغم وجود هذه القاعدة باللغة منذ قرون لم ينجح أحد في صياغتها حتى تمكن عالم اللغويات الأمريكي "رونالد لانجر" من ذلك في عام ١٩٦٩، علاوة على ذلك فأنت تطبق هذه القاعدة أتوماتيكيا بمجرد تحدثك للإنجليزية أو سماعك لها، وتبعا لذلك - على سبيل المثال - لا تفكر أبدا في استخدام "هي" للإشارة إلى "ليزا" في الجملة (١٢-٢)، أي إنك تعرف القاعدة وتطبقها بالرغم من عدم تمكنك من صياغتها، فمثلا تعد قواعد القيادة جزءا من السيارة تعد أيضا القواعد النحوية جزءا من اللغة.

السؤال هنا ما هذه القاعدة ؟ لا شك أنك متلهف لمعرفة معناها ولكن قبل أن نقدمها يجب أن نحذرك من خيبة الأمل التي قد تصيبك عند معرفتها، إنها كالتالي :

(٢-١٣) لا يجب أن يتقدم التابع على متبوعه أو يسبقه.

لابد أنك تعرف معنى كلمة (يسبق)، ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في الكلمات (التابع)، و(يتقدم)، و(المتبوع أو الاسم الذي يعود إليه الضمير)، ترى ما السبب وراء تقديمنا لهذه القاعدة بتلك الطريقة الغامضة ؟ لماذا لا نضعها بلغة إنجليزية بسيطة ؟ السبب الرئيسي هو صعوبة الصياغة بلغة واضحة، لكن بالرغم من تلك الصعوبة لا زال أمامنا محاولة لتقديم رؤية أكثر وضوحاً فيما يلي :

(٢-١٤) إن كلمة (مثل هي) والتي تأخذ معناها بالكامل من كلمة أخرى في نفس الجملة (مثل ليزا) لا يمكن لها أن تأتي قبل هذه الكلمة الثانية إذا تواجدت تلك الكلمة الثانية داخل عبارة فرعية أو تابعة^(١٠).

هل وضحت الصورة الآن ؟ في الحقيقة تقل هذه الرؤية وضوحاً عن الرؤية الأصلية، فهي أطول وأكثر في عدد الكلمات وأقل تركيزاً كما أنها أقل بقاءً لاقتقادها لبعض التفاصيل الهامة، لكن على أية حال ربما تتجلى لك الفكرة في حال معرفتك بمعنى العبارة الفرعية، والتي هي مصطلح نحوي مثل التابع والمتبوع، وإن كان أقدم منهما بكثير إلا أن ذلك لا يمنع كونه مألوفاً لك، أما إذا كان هذا المصطلح غير مألوف لك فلا شك أنك ترغب في معرفة المزيد من التفاصيل عنه، لكن الأمر ليس بسيطاً، فلكي نشرح معنى العبارة الفرعية يجب أن نشرح أولاً معنى العبارة، ولكي نشرح معنى العبارة يجب أن نشرح أولاً معنى الفعل المصدر أو الفعل غير المصدرى، ولكي نشرح معنى الفعل غير المصدرى يجب أن نشرح أولاً معنى الفعل، وهكذا.

لابد أنك قد أدركت الآن حجم المشكلة، والتي تتلخص في أن قواعد اللغة أمر معقد ومتداخل التركيب، فهي تبدأ في العمل من خلال بعض الأفكار والطبقات التي يتم تعريفها من خلال أفكار وطبقات أخرى والتي بدورها تعرف بنفس الطريقة، لذا فإن الطريقة الوحيدة التي يمكنك بواسطتها البحث وإحراز النتائج في علم النحو هي البدء بعدد مناسب من المصطلحات الرئيسية واستخدامها في تعريف مصطلحات أخرى

(١٠) العبارة التي تعتمد على الجملة الأساسية .

والتي بنورها تصبح متاحة لتعريف مصطلحات أكثر تعقيدا، وهكذا، إننا لو أردنا تبديل مصطلح "العبارة القرعية" بالمثال (٢-١٤) بتعريف كامل له يمكننا من تبسيطه لأقصى درجة ممكنة سيأخذ ذلك منا صفحة كاملة يكون من الصعب قراءتها، إذن فالمصطلحات الفنية لا يمكن العمل بنونها شريطة أن تكون مصطلحات مناسبة.

من هذا المنطلق لا تعد دراسة علم النحو أو اللغة بصفة عامة مختلفة عما عداها من الدراسات الأخرى ذات الأهمية، فأي شخص يدرس الفيزياء أو الموسيقى أو علم النفس أو علم الوراثة أو أي فرع من فروع العلم المعقدة يكون ملزما بإعداد تطبيقات متزايدة من الأفكار والتصورات المعقدة ثم يعطيها أسماء معينة أو ما تسميه بالمصطلحات الفنية، ويخلاف ذلك يصبح الأمر كله إخفاقا لا غير.

جدير بالذكر أن العديد من الناس الذين يسلمون بالحقيقة السابقة ويطبقونها على علوم مثل الفيزياء والموسيقى يرفضون تطبيقها على دراسة اللغة وحجتهم في ذلك هي أن علماء اللغويات (وبخاصة النحاة) يحاولون عامدين أن يزيدوا من غموض دراستهم بإضافة الكثير من الرموز المبهمة، هؤلاء الناس يتبنون فكرة تذهب إلى أن النحو أمر بديهي ويسلمون باستطاعتنا أن نقول كل ما نريده "بلغة إنجليزية بسيطة"، هؤلاء الناس مخطئون، فاللغة ليست سهلة وكذلك علم النحو، كما أن النحويين لا غنى لهم عن مصطلحاتهم متاهم في ذلك مثل عالم الفيزياء النووية.

كل ما في الأمر أن أهمية تلك المصطلحات الفنية تكمن في استخدامها لصياغة القواعد النحوية، إنك غالبا لا تعرف كل هذه المصطلحات ولكنك بالفعل تعرف كثيرا عن القواعد النحوية الإنجليزية، فأنت تعرف - على سبيل المثال - قاعدة "لانجاكر" وتتبعها عند حديثك أو عند استماعك لأشخاص آخرين، أليس ذلك شيئا ممتعا؟ هل لازلت تعتقد أنك لا تعرف شيء عن القواعد النحوية الإنجليزية؟

إن معرفة التحدث بأي لغة تماثل تماما معرفة قيادة الدراجة أو التزحلق على الجليد أو ربط رباط الحذاء، مع العلم بأن التحدث يفوق تلك الأمور تعقيدا، إنك - كما ذكرنا من قبل - باستطاعتك تطبيق كافة القواعد النحوية وإن كنت تجهل طريقة صياغتها، إنك تستطيع قيادة الدراجة بكفاءة بدون معرفتك لسبب سيرها، فهذه وظيفة الفيزيائي الذي يقوم بإعداد مجموعة من المصطلحات والمعادلات من أجل تعريفك بما تفعل، بنفس الطريقة يقوم اللغوي بإعداد مجموعة من المصطلحات الفنية حتى يصف لك بدقة ما تفعله عند حديثك باللغة الإنجليزية.

دعونا نؤكد على نقطة واحدة قبل الانصراف عن قاعدة "لانجاكر" وهي أن "لانجاكر" يختلف عن ذلك المعلم الذي يخبرك بالآلة تستخدم المصدر المنشطر، فهو لا يعبر عن رأيه في أي شيء إنه لا يقترح عليك أن تستخدم قاعدته نظرا لأهميتها، ولا يتبهنك إلى أن الناس سوف يحقرون من شأنك إذا لم تتبعها، إنه ببساطة يصيغ قاعدة موجودة فعلا في اللغة الإنجليزية ويستخدمها كل متحدثيها، أي إنه اكتشف حقيقة ما بشأن اللغة الإنجليزية : قاعدة نحوية إنجليزية كانت في انتظار من يكتشفها، بالطبع لم يكن "لانجاكر" الشخص الوحيد الذي لاحظ اختلاف المثال الأخير عن الثالث الأول، ولكنه كان الشخص الوحيد الذي أشار إلى ما يجري، وهذه الإشارة هي كل ما يفعله علماء اللغويات.

قاعدة أخرى :

إننا الآن بصدد الحديث عن قاعدة أخرى حتى لا يرد إلى ذهنك أن قاعدة "لانجاكر" حالة خاصة، تسمى هذه القاعدة بقاعدة "روس" نظرا لأن عالم اللغويات الأمريكي "جون روس" هو أول من قام بتعريفها عام ١٩٦٧، انظر إلى الجملة البسيطة التالية :

(٢-١٥) اشترت ليزا سيارة. Lisa bought a car. (2.15)

لا تشتمل الجملة على شيء غير عادي كما يبدو، الآن سنكون سؤالا عن كلمة "سيارة" باستخدام العبارة "which car" "أية سيارة" :

(٢-١٦) أية سيارة اشترتها ليزا ؟ (2.16) Which car did Lisa buy ?

توضح الجملة السابقة الطريقة المتبعة في تكوين الأسئلة في اللغة الإنجليزية والتي تعد أمرا غاية في التعقيد : تأتي العبارة "أية سيارة" في بداية الجملة بينما تأتي "سيارة" في نهاية الجملة، تظهر الكلمة "did" (التصريف الثاني للفعل "do" "يفعل") استخدم الفعل "buy" (يشترى) بدلا من "bought" (اشترى)، إذا كنت لا تعترف بمدى تعقيد العملية السابقة فعليك بسؤال شخص يتعلم الإنجليزية كلفة أجنبية عن مدى الصعوبة، لا تهتم قاعدة "روس" بطريقة تكوين الأسئلة بل بالأحرى تهتم بالظروف التي عندها يمكن صياغة السؤال، فلنتبع الطريقة السابقة مع الأمثلة الآتية :

(2.17) Tim said Lisa told him Larry bought a car.

(٢-١٧) قال تيم أن ليزا أخبرته بأن لاري اشترى سيارة.

(2.18) Which car did Tim say Lisa told him Larry bought yesterday ? (١٨-٢)

أية سيارة التي قال تيم "لليزا" أن لاري اشترها بالأمس ؟

(2.20) (She was describing a car to the police when it suddenly drove (١٩-٢)

past .

(2-19) عندما كانت تصف السيارة للشرطة فوجئت بها تمر أمامها .

Which car was she describing to the police when it suddenly (٢٠-٢)

drove past ?

(2-20) أية سيارة مرت أمامها في أثناء وصفها لها .

(2.21) The guests who arrived in a car are ready to go home . (٢١-٢)

إن الضيوف الذين أتوا في سيارة مستعدون للرحيل .

*Which car are the guests who arrived in ready to go home ? (٢٢-٢)

أية سيارة الضيوف الذين حضروا بها مستعدون للرحيل ؟

ثمة خطأ حدث بالجملة الأخيرة، لكن لماذا حدث هذا الخطأ ولماذا جاءت الجملة

(٢٢-٢) غير صحيحة نحويًا برغم اتباعنا لكل القواعد اللازمة لتكوين الأسئلة ؟

إننا في ركاب عملنا لصياغة القواعد الخاصة بتكوين الأسئلة في اللغة الإنجليزية

(إن نفعل هذا الأمر الآن) نكون ملزمين بتعقيد تلك القواعد عن طريق إضافة بعض

الفقرات، ولكن يستثنى من ذلك الجملة (٢٢-٢) التي يكون من الصعوبة بمكان تكوين

سؤال بها، إذن ما الحالات التي تتشابه مع الجملة (٢٢-٢) ؟ لماذا تختلف تلك الحالات

وتتميز عما عداها ؟

هذا هو السؤال الذي نجح "جون روس" في الإجابة عليه عام ١٩٦٧، سنذكر

قاعده فيما يلي ونذكرك بالأ ترتبك :

(٢٣-٢) ما العبارة الاسمية المعقدة إلا جزيرة .

مرة أخرى تظهر المصطلحات الغامضة وتظهر معها مشكلة تفسيرها، فلكي

نشرح المقصود بالعبارة الاسمية المعقدة يجب أن نشرح أولاً المقصود بالعبارة

الاسمية، ولكي يتسنى لنا ذلك يجب أن نفسر المقصود بكل من الاسم والعبارة، وأيضاً لكي نشرح معنى الجزيرة يجب أن نشرح أولاً المقصود بالتبعية، من المؤكد أن الصورة قد تجلت لك الآن كاملة، أما نحن بدورنا فما علينا إلا تقديم صياغة تقريبية لقاعدة 'روس' باستخدام لغة إنجليزية بسيطة وإن كانت غير كافية :

(٢-٢٤) لا يمكنك السؤال عن شيء ما بداخل جملة الوصل.

إذا كنت تعرف المقصود بجملة الوصل (هي مصطلح فني قديم) فإنه بإمكانك فهم أن العبارة "سيارة" تقع بداخل جملة الوصل "الذي حضر بالسيارة"، لذا تكون الجملة (٢-٢٢) غير صحيحة نحويًا طبقاً لقاعدة 'روس'، أما إذا لم يتسن لك معرفة المقصود بجملة الوصل فتقبل كلامنا كما هو لأنه ليس لدينا متسع من الوقت لشرح المزيد من القواعد النحوية.

إن تفسيرنا لقاعدة 'روس' بالجملة (٢-٢٤) لا يسير في جميع الأحوال، انظر إلى المثال التالي :

(2.25) The rumor that John has stolen a car is completely untrue.

(٢-٢٥) الإشاعة القائلة بأن "جون" سرق سيارة غير صحيحة بالمرة.

(2.26) Which car is the rumor that John has stolen completely untrue ?

(٢-٢٦) أية سيارة الإشاعة القائلة بأن "جون" سرق غير صحيحة بالمرة ؟

كما يبدو بوضوح فإن الجملة (٢-٢٦) غير صحيحة تماماً بالرغم من عدم تواجد أي جمل وصل، إن هذه الحالة الجديدة هي السبب في احتواء قاعدة 'روس' على مصطلح "الجملة الاسمية المعقدة"، كما أنها السبب في اعتبار تفسيرنا السابق (٢-٢٤) غير كافٍ.

تأكيداً على كلامنا السابق نقول إنك تعرف قاعدة 'روس' بدليل أنك لا تسأل سؤالاً مثل (٢-٢٢)، وإذا حدث وأخطأ أحد الذين يتعلمون الإنجليزية كلفة أجنبية مثل هذا الخطأ فإنك سوف تلاحظه على الفور، مرة أخرى نذكرك بأن هذه القاعدة ليست وجهة نظر شخصية إنها قاعدة نحوية لا محيص عن اتباعها.

إن قاعدة "لانجاكر" (المسماة بحالة التابع والمتبوع) وكذلك قاعدة روس (حالة التقيد بالجملة الاسمية المعقدة) ما هما إلا قاعدتان من العديد من القواعد التي تتحد وتتفاعل حتى تكون علم النحو الإنجليزي برمته، تتواجد كل تلك القواعد في اللغة ولا تجليها سوى الأبحاث المضنية والمتتية من قبل علماء النحو على مر العصور، وهذا ما فعله كل من "لانجاكر" و"روس": أسهموا بجهودهم في وصف نحو اللغة الإنجليزية والذي لم يكتمل حتى يومنا هذا، من يدري ربما يكتشف بعض قارئى كتابنا هذا قواعد نحوية تسمى باسمهم ؟

الفصائل النحوية :

ينقسم علم النحو في أية لغة إلى عدد معين من الفئات والوحدات والأشكال تسمى بالفصائل النحوية، تنقسم هذه الفئات بدورها إلى العديد من الأنماط المختلفة، لا يسعنا الوقت هنا إلا للحديث عن فصيلة واحدة من هذه الفصائل ويمكن اعتبارها كمثال، بداية نقول أن البناء المعجمى لأية لغة يشتمل على عشرات من الآلاف من الكلمات، ونؤكد هنا على كلمة أية لغة، لأن بعض الاعتقادات الغربية - القائلة بأن بعض المجتمعات البشرية تستخدم عدداً قليلاً من الكلمات المستمدة من الإشارات والأصوات - تظهر من حين لآخر نتيجة لسوء الفهم والجهل والأحكام العامة السريعة.

بالرغم من ذلك تقع كلمات أى لغة في عدد ضئيل من الفئات والتي تسمى بالفصائل المعجمية أو فئات الكلمة أو أجزاء الكلام، إن كم يبلغ عدد تلك الفصائل المعجمية ؟ تبلغ هذه الفصائل في اللغة الإنجليزية حوالي خمس عشرة فصيلة لأن الرقم الفعلى ما زال محل نقاش، من بينها تلك الفصائل التقليدية كالاسم والفعل والصفة وحرف الجر والتي تم تعريفها من قبل النحاة اليونانيين منذ آلاف السنين، كما نجد أيضاً الفصائل الحديثة التي تم تعريفها في القرن العشرين ومن أمثلتها المكملات (مثل إذا) والمحددات (مثل ال وهذا).

كيف يمكن تحديد الفصيلة التي تنتمى إليها كلمة ما ؟

حاول النحاة التقليديون الإجابة على هذا السؤال مرارا عن طريق إدراج معانٍ للكلمات، وأعدوا طبقاً لذلك تعاريف مثل الاسم هو إما اسم إنسان أو مكان أو شيء،

جدير بالذكر أنه بعض الأسماء الإنجليزية لا تمتلك هذين الشكلين - المفرد والجمع - فالأسماء مثل "wheat" (قمح)، furniture (أثاث)، "spaghetti" (اسباجتى) لها شكل مفرد فقط، بينما للأسماء مثل "oats" (شعير)، "police" (بوليس)، "pants" (سرّوال)، "scissors" (مقص) شكل واحد فقط وهو الجمع، تعد كل هذه الأسماء بالرغم من ذلك أسماء عادية بغض النظر عن التغيرات الطفيفة التي تنتابها.

ثالثاً : للأسماء خصائص اشتقاقية معينة : أى يمكن تزويدها ببعض السوابق^(١١) واللاحق لاشتقاق كلمات أخرى منها، ودائماً تكون هذه الكلمات من فئات معجمية مختلفة، على سبيل المثال لا الحصر تضاف اللاحقة -like لكثير من الأسماء لتكوين صفات مثل "dog / doglike" (كلب / شبيه بالكلب)، "box / boxlike" (صندوق / شبيه بالصندوق)، "child / childish" (طفل / طفولى)، "spaghetti / spaghetti like" (اسباجتى / شبيه بالاسباجتى) (ربما لا نسمع هذه الكلمة فى الحياة اليومية ولكنها تروق لكاتبنا كثيراً)، على الجانب الآخر يمكن إضافة السابقة un لبعض الصفات مثل "happy / unhappy" (سعيد / غير سعيد)، "interesting / uninteresting" (ممتع / غير ممتع)، بينما لا يحدث ذلك فى بعض الصفات الأخرى مثل "dog / *undog" (كلب)، "joy / *unjoy" (فرح)، "oats / *unoats" (شعير)، "destruction / *undestruction" (دمار)، (كما اعتدنا تشير النجمة إلى شكل غير صحيح نحويًا).

تجج النحويون بجدارة فى تعريف الخصائص المختلفة للفصائل النحوية الإنجليزية الخمسة عشر مع وجود خلافات على بعض التفاصيل البسيطة، ظهر - فى خضم عمل النحويين - اكتشاف ظريف يذهب إلى أن عدداً قليلاً من الكلمات الإنجليزية لا ينتمى إلى أية فصيلة بالمرّة، من هذه الكلمات "please" (من فضلك)، "not" (لا)، "to" المصدرية بصفة خاصة والتي تتحقق بالمثال "I want to be alone" (أريد أن أكون بمفردى)، تمثل تلك الكلمات سلوكاً نحويًا مختلفاً تماماً؛ لذلك لا يمكن لها أن تختص بفئة معجمية معينة، اعتقاد بعض النحويين التقليديين خطأً أن يطلقوا على أمثال هذه الكلمات "أحوال" فقط لأنهم استخدموا فصيلة "الأحوال" كسلة مهملات لكل الكلمات المجهولة الفصيلة.

(١١) طريقة تكوين الكلمات عن طريق إضافة بعض العناصر قبل أصل الكلمة .

فصيـلة العدد :

تتداخل فصيـلة الاسم - كما ذكرنا آنفا - مع فصيـلة أخرى يطلق عليها فصيـلة العدد، وهي فصيـلة هامة في اللغة الإنجليزية بخلاف الفصيـلة المعجمية، تتداخل فصيـلة العدد مع فصيـلات معجمية معينة وتؤثر في أشكالها في جمل بعينها، فنحن نعرف أن العدد يظهر تأثيره جليا على الأسماء، وقد رأينا فيما سبق أن معظم الأسماء الإنجليزية تأتي في صيغة المفرد والجمع، في حين تأتي البقية الباقية في شكل واحد، بالطبع يتحدد اختيار أحد الصيغتين وفق العدد المقصود.

(2-29) The dog is hungry . الكلب جوعان .

(2-30) The dogs are hungry . الكلاب جائعة .

يبدو واضحا في المثال (2-29) أن الحديث يقصد به كلب واحد بينما يبلغ عدد الكلاب في المثال (2-30) اثنان على الأقل وربما أكثر من اثنين، لكن الأمور لا تسير دائما حسبما نتوقع:

(2.31) The dog is clearly related to the wolf .

(2-31) يتشابه الكلب إلى حد كبير مع الذئب.

يتجلى لنا عند قراءة المثال (2-31) أن الحديث لا يقصد به كلب واحد بل كل فصيـلة الكلاب بالرغم من استخدام صيغة المفرد، نستنتج من ذلك أن استخدام صيغة المفرد تكون إجبارية عند الحديث عن فرد واحد وتكون اختيارية عند الحديث عن كل الأفراد.

علاوة على ذلك يظهر في فئة العدد بعض الحالات الخاصة، تظهر كلمات مثل "scissors" (مقص)، "pants" (سروال) مفردة ولكنها في الواقع كلمات جمعية ليس لها صيغة مفردة على الإطلاق :

(2-32) *This scissor(s) is very sharp . هذا المقص حاد .

(2-33) *This pant(s) is nearly dry . هذا السروال جاف تقريبا .

تأتي كلمة "bra" (صدرية الثديين) في صيغتي المفرد والجمع، ترى ما الفرق بين هذه الكلمة وبين كلمة "pants" (سروال) التي تأتي جمعا دائما ؟ لا سبب سوى أن

هذه سمة مميزة في اللغة الإنجليزية يقابلها سمة أخرى تتمثل في كلمة "furniture" (أثاث)، عند الحديث عن "أثاث الردهة" يكون المقصود عدة عناصر مختلفة ويرغم هذا تأتي الكلمة دائما مفردة :

(٢-٢٤) ذلك الأثاث بديع حقاً . These furniture(s) are rather nice . (2-34)

ماذا عن كلمة "grain" (عشب) ؟ هل عند النظر إلى حقل مليء بالعشب يكون التركيز على عنصر واحد أم عدة عناصر ؟ الإجابة هنا مبهمة لأنه عند الحديث عن العشب يكون من الصعب التفرقة بين عنصر أو عدة عناصر، ولكن النحو الإنجليزي يفرض علينا اختيار صيغة عددية لكل كلمة فلا يسعنا سوى الاختيار اعتباطيا : كلمة "wheat" (قمح) مفردة بلا جمع، كلمة "oats" (شعير) جمع بلا مفرد، كما رأينا يجب أن تأتي كل كلمة إما جمعا أو مفردا ولا مفر من الاختيار.

تخلص مما سبق أن فصيلة العدد تؤثر على أشكال كلمات بعينها، فمتى توجد الفصيلة يتبع ذلك ظهور الكلمة في إحدى الصيغتين - المفرد أو الجمع - ولا مفر من حدوث ذلك.

السؤال الآن هو : هل فئة العدد عالية ؟ الإجابة هنا لا، معظم اللغات الأوروبية تتشابه مع اللغة الإنجليزية في وجود صيغتي المفرد بها، (نجد - مع وجود اختلافات طفيفة - أن الكلمة الفرنسية التي تعني "سروال" تأتي في كلتا الصيغتين، وكذلك الكلمات الإسبانية المرادفة لكل من "الهلون"^(١٢) و"السبانخ"، أما الكلمة اليابانية التي تعني "كرنب" تأتي في الجمع فقط ، أما "عنب" فتأتي مفردة فقط.

تفتقد بعض اللغات فصيلة العدد تماما، أو على الأقل لا تتمثل هذه الفصيلة في أسماء بعض اللغات، فعلى سبيل المثال لا تعيز اللغات اليابانية أو الصينية بين المفرد والجمع، وبالمثل اللغة "المالية" (اللغة الرئيسية في ماليزيا)، لا تعتبر فصيلة العدد في تلك اللغات جزءا من النحو، أما إذا اقتضت الضرورة ظهورها فتستخدم للدلالة عليها كلمات مثل "واحد"، "اثنان"، "كثير".

على النقيض من اللغة الإنجليزية تمتلك بعض اللغات نظام مفصل لفصيلة العدد، فمثلا يتمثل في اللغة العربية نظام ثلاثي للعدد بالأسماء : المفرد والمثنى والجمع "مالك"

(١٢) نبات تؤكل سيقانه .

- "مالكان" - "مالكون"، تضيف اللغة الباسيفيكية اللاركية صيغة رابعة في الضمائر فقط وليس في الأسماء: "mane" (هو أو هي) - "matua" (هما الاثنان) - "matido" (هم الثلاثة) - "mati" (هم) (للأربعة فأكثر)، تتمثل في لغة شرق إفريقيا "تيجر" ثلاثة صيغ مختلفة للأسماء: المفرد والجمع و "paucal" أو الجمع القليل: "farās" (حصان)، (خيول قليلة) (خيول)، (تدل - في الكلمات السابقة على الهمزة)، أخيرا نقول أن أية لغة لها مطلق الحرية في تكوين الصيغ العديدة الخاصة بها أو تجاهلها على الإطلاق وتتخلص مساحة هذه الحرية في حالة تواجد تلك الصيغ بالفعل في نحو هذه اللغة، فيلزم اتباع تلك الصيغ اتباعا دقيقا.

النوع :

يعد النوع من أهم الفصائل النحوية وأكثرها غرابة، نظرا لأنه من أكثر الفئات التي يصعب تفسيرها، فإننا سنحاول توضيح معناه قليلا.

تنقسم الأسماء في كل اللغات التي تتمثل فيها فصيلة النوع - قليل من اللغات يتمثل فيها ذلك - إلى قسمين أو أكثر تسمى أقسام النوع، يختلف السلوك التحوي من قسم إلى آخر اختلافا ملحوظا.

تشتمل اللغة الفرنسية على فئتين من النوع : المؤنث والمذكر (قد تكون المسميات خادعة في بعض الأحيان)، يظهر الاختلاف بين هاتين الفئتين نحويا في عدة جوانب، فعلى سبيل المثال تستخدم أداة التعريف الفرنسية "le" أمام الاسم المنكر بينما تستخدم الأداة "la" أمام الاسم المؤنث، تبعا لذلك توضع أداة التعريف "le" أمام كلمة "livre" (كتاب) باعتبارها كلمة منكرة، في حين توضع أداة التعريف "la" أمام كلمة "table" (منضدة) باعتبارها كلمة مؤنثة، تتبع كل كلمة من كلمات اللغة فئة واحدة من هاتين الفئتين، انظر الكلمات الآتية : "le chien" (الكلب)، "le mot" (الكلمة)، "le bif- teck" (اللحم)، "le mystère" (الغموض)، "la maison" (المنزل)، "la voiture" (السيارة)، "la moutarde" (المسطردة)، "la découverte" (الاكتشاف).

يرجع السبب في تسمية النوع بهذين المسميين إلى أن معظم الأسماء التي تدل على المنكر تنتمي إلى فئة النوع المنكر وبالمثل تنتمي معظم الأسماء التي تدل على المؤنث إلى فئة النوع المؤنث، فتكون كل من الكلمات "homme" (رجل)، "taureau"

(ثور) ، "maitre" (سيد) مذكرة، وتكون كل من "femme" (امرأة)، "vache" (بقرة)، "maitresse" (سيدة) كلمات مؤنثة، لكن هذا التناسق لا يسير دائماً، فكلمة "sentinelle" (حارس أو خفير) مؤنثة مع العلم بأن الغالبية العظمى من الخفراء رجال، على الجانب الآخر تكون كلمة "contralto" (المرنة)^(١٣) مذكرة في حين أن كل المرثات من النساء، على أية حال لا تنتمي الغالبية العظمى من الأسماء الفرنسية إلى فئة المذكر أو المؤنث، بل تنتمي إلى فئة أو أخرى على أسس اعتباطية - اعتباطية من حيث معانيها، أي أنه ليس هناك سبب رئيسي يجعل كل من، كتب، كلمات، فموض كلمات مذكرة، أو كل من: سيارات، مسطردة، اكتشافات مؤنثة.

نخلص مما سبق أنه لا توجد علاقة خاصة بين الجنس والنوع، فالعلاقة وثيقة بين الجنس وعلم الأحياء، بينما يختص النحو بالجنس ولا يوجد سبب يجعل كلاً من النوع والجنس مرتبطين اللهم إلا بعض الطرق الواهية غير المترابطة ، والتي نجدتها باللغة الفرنسية.

كما رأينا لا توجد أية علاقة بين الجنس والنوع في كثير من اللغات، وأكثر من ذلك قد لا توجد علاقة بين المعنى والجنس بالمرّة، تتضمن اللغة الإفريقية السواحيلية - على سبيل المثال - ثمانية فئات للنوع : تنتمي معظم الأسماء الدالة على البشر من الجنسين إلى فئة نوعية واحدة يطلق عليها الفئة رقم واحد وتضم هذه الفئة أيضاً معظم أسماء الحيوانات، تشتمل الفئة الثانية على العديد من الكلمات الدالة على الأشياء ذات الحجم الكبير، في حين تشتمل الفئة الثالثة على الأشياء الصغيرة الحجم، بالرغم من ذلك نجد أن الجنس في اللغة السواحيلية لا يرتبط بالنوع على الإطلاق ويكاد يكون ارتباطه بالمعنى لا يذكر، لذا فعلاقاته بالنوع والمعنى اعتباطية وغير متوقعة.

تشتمل لغة "ناقاهو"^(١٤) - لغة أمريكا الشمالية - على عشر فئات للنوع، في هذه اللغة يمكن التنبؤ بالجنس عن طريق المعنى بينما لا يلعب النوع أي دور في ذلك، تنقسم فئة النوع إلى فئة للكائنات البشرية وأخرى للسوائل وثالثة للأشياء المستديرة كالحجارة والكرات ورابعة للأشياء الطويلة كالأقلام وخامسة للأشياء الطويلة المرنة كالحبال والأحزمة وهكذا.

(١٣) مطربة لها صوت رنان .

(١٤) لغة مستخدمة في الأريزونا .

أما اللغة غير الأوروبية التي لا يوجد بها علاقة بين الجنس والنوع فهي اللغة الأسترالية 'ديربيل'، سنلقى فيما يلي نظرة على فئة النوع الشهيرة والجديرة بالاهتمام في اللغة الأسترالية، تشتمل تلك اللغة على أربع تصنيفات للنوع من السهل توقعها بمعرفة بعض المعلومات، فيما يلي ملخص لمجموعات الكلمات التي تنتمي لكل تصنيف :

النوع (١)	النوع (٢)	النوع (٣)	النوع (٤)
الرجال. الكنغر. الأبوسوم. الخفاقيش. معظم الثعابين. معظم الأسماك. بعض الطيور. معظم الحشرات. القمر. العواصف، قوس قزح. حراب المعارك. حراب الصيد.	النساء. البندقوط ^(١٥) الكلاب. منقار البط. الثعابين الخطيرة. الأسماك الخطيرة. معظم الطيور. القراشات، الصراصير. العقارب. بعض الحشرات القترصة. كل الكلمات المرتبطة بالنار والماء والشمس والنجوم. التروس. النباتات الضارة.	كل الأشجار والنباتات الصالحة للأكل.	أجزاء الجسم. اللحم. النحل والعسل. الرياح. العصى. الأشجار والنباتات غير الصالحة للأكل وغير الضارة. الطين، الأحجار والصوفاء ، اللغة وغيرها.

تتنوع أداة التعريف "ال" في تلك اللغة - مثل اللغة الفرنسية - فهي تشتمل على أربع أشكال منها : "bayl" للتصنيف الأول، "balan" للثاني، "balan" للثالث، "bala" للرابع.

سنذكر الآن القواعد التي يتحدد الجنس وفقا لها في اللغة 'الديريالية' :

١- الفئة الأولى : للكلمات الخاصة بالرجال والمخلوقات غير البشرية.

٢- الفئة الثانية : للكلمات الخاصة بالنساء والنار والماء والمعارك.

(١٥) فتر هندي ضخمة .

٢ - الفئة الثالثة للكلمات الخاصة بالنباتات الصالحة للاكل.

٤ - الفئة الرابعة : ما يتبقى من كلمات.

هناك عدة قواعد أخرى لها من الأهمية ما يفوق تلك القواعد الأربعة الأساسية وهي :

٥ - أية كلمة تتعلق بالرياضيات وتخص الرجال أو النساء تضمها الفئة الأولى والثانية على الترتيب.

٦ - أية كلمة تدل على شيء خطير تضمها الفئة الثانية.

٧ - أية كلمة تدل على شيء ذي أهمية خاصة في المجتمع الديري بالي تضمها فئة غير معروفة.

دعونا نطبق القواعد السابقة على كلمات التصنيفات الأربعة : طبقا للقاعدة الأولى تختص فئة النوع الأولى بالكلمات الدالة على الرجال أو الكائنات غير البشرية، فإذا جئنا للأدوات التي تستخدم في عملية الصيد كاليمرنج^(١٦) والحراب والتي يقوم بها الرجال فقط نجد أنها تندرج تحت الفئة الأولى، يعتبر كل من القمر والعواصف وقوس قزح رجال في الأساطير الدريالية؛ لذلك طبقا للقاعدة الخامسة تكون هذه الكلمات ضمن الفئة الأولى أيضا، طبقا للقاعدة الثانية تختص الفئة الثانية بالكلمات الدالة على النساء والمار والماء والحرب، طبقا للقاعدة السادسة تختص الفئة الثانية أيضا بالأشياء الخطيرة حتى وإن كانت تلك الأشياء دالة على نوع آخر، فتكون كل من التعابين السامة والقراص^(١٧) والنويدات اللاذعة ضمن كلمات الفئة الثانية، تعتبر الطيور في الأساطير أرواحاً للنساء لذا تتضمن الفئة الثانية أسماء الطيور طبقا للقاعدة الخامسة باستثناء قليل منها والتي تعتبر ذكورا في الأساطير وتكون تبعا لذلك ضمن الفئة الأولى، تعد الشمس أسطورة من الإناث يتبعها في ذلك النجوم ونظرا لأنها تحمل صفة التوهج فهي تتبع الفئة الثانية ، أما عن سبب تواجد كلمات مثل البندقوق والكلاب ومنقار البط والنضناض (قنفذ النمل) بالفئة الثانية فهو غير معروف؛ ربما يكون ذلك بسبب ارتباطهم بأحد الأساطير غير المعروفة أو لأن مجيئهم في تلك الفئة مجيئا اعتباطيا

(١٦) قوس خشبي معقوف يقذف ويستخدمه سكان أستراليا الأصليين .

(١٧) نبات برى له أوراق شائكة .

أو غير مقيد بقاعدة ما كالكلمات الفرنسية "حارس" و"مرنة"، تختص الفئة الثالثة بالنباتات الصالحة للأكل، أما الفئة الرابعة فهي فئة البواقي التي تضم كل الكلمات التي لا يستقيم مجيؤها في الفئات الثلاث الأولى، فنجد أن النحل والعسل يتبعان تلك الفئة طبقاً للقاعدة السابعة وهذا بسبب أن العسل هو الطعام الحلو والمورد الوحيد للشرب بعد الماء مما يمثل أهمية خاصة للمجتمع الديرالي، أخيراً نقول إن في هذا النظام المدهش يكون من السهل التوقع بالنوع بخلاف النظام المتبع في لغات أخرى مثل الفرنسية والسواحيلية، ولكن المشكلة تكمن في القواعد السبع المتسمة بقليل من الغموض.

السؤال الأخير هو: ماذا عن اللغة الإنجليزية؟ لا تشتمل اللغة الإنجليزية على نظام الجنس، صحيح أنها تشتمل على بعض الكلمات الدالة بصفة أساسية على الذكر مثل "ثور" و"نوق"، وكذلك كلمات أخرى دالة على المؤنث مثل "بقرة" و"نوقة"، كما أنها تفرق بين الضمائر المذكرة "he" (هو) والمؤنثة "she" (هي) والضمائر التي تشير إلى الجمادات والأطفال "it" (هذا)، ولكنها تختلف عن الفرنسية والسواحيلية^(١٨) والديرالية في أنها لا تقسم كلماتها إلى فئات تتطلب كل منها سلوكاً نحوياً مختلفاً، تشتمل اللغة الإنجليزية - ككل اللغات - على الوسائل اللازمة لتوضيح الفروق بين الأجناس المختلفة، ولكنها لا تشتمل على النوع.

(١٨) اللغة الرسمية في تنزانيا وكينيا.

الفصل الثالث

اللغة والمعنى

عند سؤال معظم الناس عن الوظيفة التي وجدت من أجلها اللغة تكون إجابتهم هي : اللغة وسيلة التعبير عن المعاني وتوصيلها إلى الناس، إن القدرة على التعبير عن المعاني جانب لا يمكن إغفاله كوظيفة للغة، فإذا جاء كلامنا قاصرا في توصيل المعاني المرادة منه تكاد تكون فرصة قيام اللغة بوظائفها الأخرى منعدمة، إذن ما المعنى وكيف يتسنى لنا التعرف عليه ؟

لا يعد السؤال السابق بسيطا، فليس هناك سؤال يمس اللغة تكون إجابته أقل وضوحا وأكثر إثارة للجدل من إجابته، يطلق على دراسة المعنى "علم الدلالة"، وهو فرع من فروع علم اللغويات والذي كان - أكثر من أي فرع آخر - من الصعب على الإطلاق إحراز أي تقدم به، فكثيرا ما اختلف علماء الدلالة حول الأسئلة المطروحة، ناهيك عن الطريقة التي من المفروض أن تكون عليها الإجابات، أصبح العديد من اللغويين بالولايات المتحدة الأمريكية في الفترة ١٩٤٠ - وحتى ١٩٥٠ غير عابئين بكل ما يخص علم الدلالة حيث قاموا بتعريف علم اللغويات مستثنين منه علم الدلالة وحجتهم في ذلك أن دراسة المعنى أمر تافه لا يجب أن يقام له وزن، لحسن الحظ أن هذا الرأي لم يكتب له الانتشار مما أتاح لذلك العلم أن يصبح الآن واحدا من أكثر المناطق المطروقة في علم اللغويات، لكن تبقى مشكلة صعوبة الأسئلة، وفي هذا الفصل سنتنظر إلى قليل من الطرق التي من خلالها يتم التعبير عن المعاني في اللغة.

صعوبة تعريف الكلمات :

يعتمد معنى أية جملة على عنصرين على الأقل : معاني الكلمات بالجملة، والتركيب النحوي لتلك الجملة، انظر إلى الأمثلة الآتية :

(١-٣) عقر الكلب الرجل الذي يبيع اللبن. (3-1) The dog bit the milkman.

(2-2) The dog bit the postman . . . عقر الكلب ساعى البريد.

(3-3) The dog is biting the postman . . . يعقر الكلب ساعى البريد.

(3-4) The postman bit the dog. . . عقر ساعى البريد الكلب .

يتطابق التركيب النحوى لكل من المثال الأول والثانى، ولكنهما يتضمنان كلمات مختلفة، لذا فالمعانى التى يعبران عنها تكون مختلفة، يشتمل المثالان الثانى والثالث على نفس الكلمات تقريبا فى حين يختلف تركيبهما النحوى فتكون المعانى التى يعبران عنها مختلفة كذلك، أما المثالين (2-2)، (3-3) فيتطابقان فى كل من التركيب النحوى والكلمات ولكن ما زالت المعانى الناتجة منهما غير متطابقة لأن الكلمات انخرطت فى التركيب النحوى بطرق متباينة.

طبعا لما تقدم يكون من الضرورى توافر عنصرين على الأقل حتى يتسنى لنا التعرف على معنى جملة ما، هذان العنصران هما معرفة معانى كل الكلمات التى تتكون منها الجملة وفهم أدق التفاصيل الخاصة بالتركيب النحوى لتلك الجملة، هل هذا كل ما نريد معرفته ؟ يجيب بعض الناس على هذا السؤال بالإيجاب، ولقد كان لوجهة النظر الإيجابية هذه تأثير كبير على علم الدلالة وأطلق عليها "قاعدة التكوين لفريج" نسبة للفيلسوف الألمانى الذى كان أول من أشار إليها.

كما سيتضح لنا من خلال الفصل الحالى من الكتاب، قد لا تبدو الأشياء بسيطة مثلما توحى قاعدة "فريج"، فى ذات الوقت - بالرغم من ذلك - دعونا نفترض أن التحاة الذين تحدثنا عنهم فى الفصل الثانى قد صنعوا خيرا كثيرا بشرحهم للقواعد اللغوية وليكن دورنا الآن تفسير مشكلة معانى الكلمات.

يطلق على دراسة معانى الكلمات "علم الدلالة المعجمى" وهو يختص - بالإضافة إلى المعانى المفردة - بالطريقة التى ترتبط بها معانى الكلمات المختلفة، لنبدأ فيما يلى بسؤال بسيط: ماذا تعنى كلمة كلب ؟

ليتضح السؤال قليلا تخيل أن شخصا من المريخ هبط لتوه على كوكب الأرض وتسنى له تعلم القليل من الإنجليزية عن طريق مشاهدة البرامج التى يبثها التلفزيون على الأرض، ولكن لم يسبق له رؤية الكلب، إنه حتى لم يسمع الكلمة ويريد منك إعطاؤه تعريفا كاملا لها، سيجوب هذا الشخص الأرض جيئة وذهابا فى كل مرة

يصادف فيها شيئا جديدا، ويرجع إلى تعريفك ليعرف ما إذا كان هذا الشيء الجديد كلبا أم لا، لذلك فهو يتوقع أن يعطيه التعريف النتيجة التي يبغونها، وإذا ما خذله ذلك التعريف ذات مرة سيصاب بالضيق، الآن نمهلك دقيقتين من الوقت كي تكتب له تعريفا لكلمة كلب.

قد ترغب في مقارنة تعريفك بأخر ورد بأحد القواميس الجيدة، لذا فإننا نقدم لك تعريفا من قاموس كولينز الإنجليزي^(١٩) (قمنا بحذف بعض المعاني الإضافية التي لا تمت لموضوعنا بصلة) :

كلب : اسم .

١ - من الثدييات النابية المستأنسة - تتوافر منه سلالات عديدة ذات تنوعات هائلة في الحجم والشكل .

٢ - من أكلات اللحوم ، ينتمي إلى الفصيلة التي تضم الدئغ^(١٩) والقيوط^(٢٠).

لا بد أن تعريفك مختلف تمام الاختلاف عن ذلك التعريف وعلى أي حال فإننا سنقده فيما بعد ولكن الآن دعنا نفترض أن ذلك الشخص المريخي قد استخدم تعريف القاموس.

في البداية، سيواجه ذلك الشخص مشكلة وهي أن القاموس يعطي معنيين لكلمة كلب، بالطبع سيجعل ذلك الأمور أصعب، لذلك علينا إخباره بأن يتجاهل المعنى الثاني، فعلى الأرجح أنك لم تفكر بالدئغ أو القيوط عند كتابتك للتعريف.

إن رحلة المريخي للبحث عن المعنى طويلة، إنه يفند تعريف القاموس ويبحث أولا إذا كان الشيء الذي يراه ثديا أم لا، ليس هذا سهلا أيضا لأن كثير من علماء الأحياء رفضوا الاعتراف بأن حيوان منقار البط من الثدييات : فامتلاكه للأرجل المتشابكة ورقوده على البيض ليست من الصفات المميزة للثدييات، لكن فلنفترض أن ذلك المريخي ماهر في علم الحيوان ويسلم بأن ما يراه ما هو إلا حيوانا ثدييا.

(١٩) كلب أسترالي ضار .

(٢٠) ذئب شمال أميركي صغير .

السؤال التالي : هل هو نابى ثلبي من فصيلة الكلاب ؟ تستحيل الإجابة على السؤال لأن نابى كلمة أخرى تطلق على الكلاب، إذا عرفت أنه كلب ستعرف تبعاً لذلك أنه نابى، أما إذا كنت لا تعرف أنه كلب فلا جدوى من السؤال.

هل هو مستأنس ؟ وكيف يتسنى للمريض معرفة ذلك ؟ ربما يرتدى طوقاً - ولكن الطوق لم يذكر في التعريف كما أن الكثير من القطط يرتدون الطوق، افترض أن ذلك الشيء الذي يراه المريض يهدر بطريقة تهديدية، أو أنه يجرى مندفعاً قاصداً الفئك بعنق المريض، هل يدل هذا على أنه مستأنس ؟ هل هذا السلوك لا يؤهله لأن يكون كلباً ؟

بعد ذلك يكمل المريض التعريف بحق، هل يتوافر من هذا الشيء سلالات عدة مختلفة الأحجام والأشكال ؟ ذلك غير جلي فالشيء الذي أمامه له حجم واحد وشكل واحد، وحتى إذا ما تعرف على أشياء أخرى تختلف في شكلها عن الشيء الذي يراه أمامه كيف يعرف أنها من نفس سلالة الكلاب وهو لا يستطيع الجزم بأن أحدها كلباً ؟

كما نرى لم نتعمك من إحراز أى تقدم مما سبق ذكره، ويبقى لنا تنفيذ تعريفك فماذا كتبت ؟ افترض أن ما كتبت يكون كالتالي :

الكلب حيوان من نوات الأربع، جسمه مغطى بفرو سميك، وله أنف طويل، وأذان طويلة، ومخالب بدمية، وذيل، يتاكل اللحم ويطارد الحيوانات الصغيرة ويصدر نباحاً مميزاً مزعجاً، إذا ما تربي مع البشر منذ صغره يظل معهم.

هل سيلقى هذا التعريف قبولا لدى المريض أكثر من تعريف القاموس ؟ برغم وجود بعض المشكلات الهامة يظل هذا التعريف محاولة لا بأس بها، تتمثل هذه المشكلات في عدد من الأسئلة أولها : ماذا عن الفرو ؟ هل الحيوان الذي لا يتغذى أنفه أو قدماه أو أذناه أو مناطق أخرى بجسمه بالفرو لا يزال يتغذى جسمه بالفرو ؟ ماذا إذا فقد فروه كله بسبب أحد الأمراض، هل يعدم كونه كلباً ؟ كم يبلغ طول الأذن حتى يمكن اعتبارها طويلة ؟ أربع بوصات ؟ ست بوصات ؟ وماذا إذا كان الحيوان ذا أذان قصيرة، هل يفقد بسبب ذلك صفة كونه كلباً ؟ وماذا عن الأنف الطويل ؟ برغم عدم تواجد تلك الصفة الأخيرة في البلدغ^(٢١) و كلب بكين^(٢٢) فهما لا يزالان من الكلاب.

(٢١) كلب قوى جرىه ضخم الرأس قصير الشعر .

(٢٢) كلب صغير قصير القوائم عريض الوجه طويل الشعر ناعم .

ماذا تعنى ضوضاء النباح ؟ إننا نطلق على صوت كل من الكلب البوليسى والكلب الصغير المستأنس نباحاً، كيف يمكننا معرفة أن هذه الأصوات نباح ؟ يتم ذلك عن طريق تيقننا بأن ذلك الشيء الذى يصدر الصوت ما هو إلا كلب - بالطبع لن يجدى ذلك كثيراً مع المريخى.

لا ينطبق التعريف على سلالات معينة من الكلاب - مثل الكلاب المكسيكية العديمة الشعر - لأنها لا تملك فرواً على أجسادها ولكنها برغم ذلك لم تعدم صفة كونها كلاباً، بالمثل يعد البارنجى^(٢٢) كلباً برغم عدم قدرته على النباح، كما أن الكثير من الكلاب ليس لها ذيل وما زلنا نعتبرها من الكلاب، كما نرى أخفق التعريف فى توصيل فكرته.

ماذا عن النخغ والقيوط اللذين ذكرهما تعريف القاموس، أو النثب والثعلب والضبع وابن أوى ؟ هل تحسب من الكلاب ؟ وإذا لم تكن من الكلاب، فما سبب ذلك ؟ أى جزء من التعريف لم ينطبق عليها ؟ نجد أن كل حيوان منها يصدر عواء معيناً من الممكن اعتباره نباحاً، كما أنه من الشائع تسمية عواء الثعلب بالنباح، علاوة على ذلك يتم استئناس الذئاب وبعض من الحيوانات الأخرى، فالكلاب فى الأصل ما هى إلا ذئاب مستأنسة، وفى الوقت الحاضر يمكن تربية الكلاب والذئاب مع بعضها بعضاً.

أما عن الجزء الوحيد من التعريف الذى لا يمكن تطبيقه على القطه هو الجزء الخاص بالنباح، بالرغم من ذلك إذا صانفتك بعض القطط ذات الطبيعة الخاصة والتي قد تصدر عواء يشبه نباح الكلب هل يؤهلها ذلك لأن تصبح من الكلاب ؟ لماذا لا ؟

ما رأيك فى كلب ميت ؟ كلب محتط ؟ أو تمثال لكلب ؟ أو صورة لكلب ؟ أو لوحة مرسومة لكلب ؟ لا تمس هذه الأشياء تعريفنا بأى صورة من الصور، ولكننا ما زلنا نطلق الكلمة 'كلب' على كل ما فيها، حتى 'سنوبى' كلب الصيد الكرتونى الذى يتكون من مجرد خطوط من الحبر على الورق يعد من الكلاب.

يزيد كل ما تقدم الإحساس بالإحباط وعدم الرضى عند المريخى، إنه يسأل فى حيرة "كيف يمكنك استخدام كلمة كلب بهذه السهولة وأنت لا تعرف معناها بالضبط ؟"

(٢٢) كلب صيد أفريقى صغير نادراً ما ينبع .

إننا - على العكس - نعرف ما تعنيه الكلمة بالضبط ، فإذا قال لك شخص ما يوجد كلب غريب في الحديقة ، فإنك ستتوقع على الفور أن ما ستراه كلبا وليس قيوطا أو قطا، أي إننا نعرف معنى الكلمة برغم عدم قدرتنا على تعريفها، الشيء الذي يذكرنا بشكل أو بآخر بما تم مناقشته في الفصل الثاني : معرفتنا بالقواعد النحوية برغم عدم قدرتنا على تعريفها، نقابل هنا نفس المشكلة أمام كل كلمة نحول تعريفها .

لا يعنى ذلك أنه ليس من الممكن تعريف كل الكلمات، لأنه بإمكاننا إعطاء تعريفات لعدد قليل من الكلمات بنون مواجهة ما سبق ذكره من عقبات، على سبيل المثال كانت كلمة "متر" يتم تعريفها منذ فترة قصيرة بأنها المسافة بين نقطتين في ساق معدنية معينة موضوعة بسرداب معين بباريس، وإذا أردت معرفة إذا ما كان مترك يطابق طول المتر الأساسى ما عليك إلا أخذه ومقارنته بذلك المتر الكائن بباريس، ما انطبق على كلمة "متر" لا ينطبق على كلمات أخرى كثيرة، فإنه - على سبيل المثال - يصعب الاحتفاظ بكل ما جعله مقياسا موضوعا في مكان معين لمقارنة الكلاب الأخرى به، ينطبق الأمر ذاته على أشياء مثل الكرسي أو الابتسامه.

السؤال هنا كيف يمكننا استخدام كل الكلمات بنجاح وبلا أدنى جهد ونحن نجهل طريقة تعريفها ؟ وهو سؤال ليس سهول وطالما طرقه علماء اللغويات وعلماء النفس، تعد نظرية القالب من أكثر الاقتراحات - التي قبيلت في شأن هذا السؤال - إقناعا، وتتخلص في أننا نحمل في أذهاننا نتاجا لتجارب مررنا بها، صورة قالب لكلب معين يتم مقارنته دائما بأي كلب يصادفنا حتى نصل إلى مدى مطابقة كل منهما للآخر، إذا كان التطابق بينهما كبيرا فإننا نأى بنتيجة وهى أن ما نراه كلبا بالفعل والعكس صحيح، تبعا لذلك قد يكون المقياس أو المعيار غير قاطع مما يجعلنا نقبل كلبا بلا فرو أو آخر لا ينبغ طالما أن صفاته الأخرى تطابق القالب.

حسنا، ولكن كم يبلغ عدد الصفات التى لا يمكن انطباقها على الكلب، والتي عند توافرها لا يمكن اعتبار الشيء المقصود كلبا ؟ إلى أى مدى تنطبق القوالب على الأشكال المقصودة ؟ إننا أمام مشكلة كبرى، ولكن فى وسعنا النجاة بالاستعانة بشيء لا يمكن اعتباره حقيقة لغوية على الإطلاق : إنها الطريقة التى تسير بها الأشياء فى العالم الطبيعى، إن كل شيء نصادفه يكون إما كلبا أو غير ذلك، أى إنه قد يطابق القالب تماما أو لا يطابقه مطلقا، ليست القطط فقط هى التى تقتقد إلى الكثير من

صفات الكلاب، بل إن الذئب والقيوط تفتقد إلى تلك الصفات أيضا، تختلف الذئب عن الكلاب كثيرا ومن أكثر الصفات التي تميزها اعتيادنا على رؤية الكلاب في حياتنا اليومية، بينما تندر الذئب بل تنعدم فتكاد لا نراها في الحياة اليومية.

كحد أننى، يوجد متحى واحد يلزم فيه الجزم إما بصلاحيه تواجد كلمة ما بموقع ما أو عدم تواجدها: إنه القانون، كثيرا ما نسمع أقوالاً مثل "يجب أن تلغض ضريبة على دخلك" فما معنى الدخل؟ هل البقشيش دخل؟ هل الهدايا دخل؟ هل فوزك بمبلغ من المال من لعبة اليوكر (لعبة من ألعاب الورق) دخل؟ إذا وجدت بعض المال فى الشارع، فهل هذا يعد دخلا؟ لكى تعرف قدر الضريبة التى عليك دفعها، من الضرورى أن يعطيك أحد الأشخاص إجابات محددة عن الأسئلة السابقة، لذلك نرى أن المحامين يقضون جل وقتهم فى مناقشة أمثال تلك الأسئلة، كما يجتمع القضاة والمحلفون لإصدار أحكام فى هذا الشأن، أى أننا فى الوقت الذى نتطق فيه الكلمات بلا قيد أو شرط نجد رجال القانون يهتمون بكل تفصيل دقيق.

معاني الكلمات وتركيب المفردات اللغوية :

لا تحمل الكلمات معانٍ وهى قائمة بذاتها، فبوجه عام يرتبط معنى أية كلمة بمعانٍ لكلمات أخرى بطرق قد تكون بسيطة أو معقدة، على سبيل المثال ترتبط الكلمة "صغير" بالكلمة "قديم" أكثر من ارتباطها بالكلمة "كسول"، وعلى غرار ذلك ترتبط كلمة "ورد" بكلمة "زهر" من جهة وكلمة "ليلك" (نوع من الزهر) من جهة أخرى، وكلمة "أحمر" من جهة ثالثة، يختص جزء كبير من علم الدلالة المعجمى بتوضيح هذه العلاقات بين المعانى.

يعد الترادف واحداً من أبرز الطرق التى يتم بها ارتباط معانى الكلمات، إنه الحالة التى تتماثل فيها معانى الكلمات، ولكن هل هناك كلمات تحمل نفس المعانى بالضبط؟ نتأرجح الإجابة على هذا السؤال بين الإيجاب والنفي، لاحظ الكلمتين "pail"، "bucket" (دلو)، أى شىء يمكن تسميته "pail" يمكن أيضا تسميته "bucket" والعكس بالعكس، فهما مترادفتان لحد بعيد، ولكن لا يمكن لأحدهما أن يحل محل الآخر، تدل الكلمة التى تستخدمها على المكان الذى تنتمى إليه، بصفة عامة تشيع "bucket" فى كل من إنجلترا وويلز وجنوب الولايات المتحدة الأمريكية، فى الوقت الذى تعتبر فيه "pail"

قروية، أما في اسكتلندا وشمال الولايات المتحدة يغلب استخدام "pail" وتعتبر "bucket" قروية.

ما يهمنا هنا بغض النظر عن مثل هذه التعقيدات هو أنه حتى إذا أشارت كلمتان إلى نفس الأشياء أو الأحداث فإنهما غالباً ما تحملان تداعيات مختلفة، يعزف المايسترو "أن صوفى متر" الكمان، بينما يعزف قائد الرقصة التربيعية^(٢٤) الكمنجة، تتشابه الألتان إلى حد كبير وتختلفان في السعر والأداء، تبدو الكلمتين "big"، "large" وكأنهما مترادفتان، ولكن عند تأمل الجملة الآتية نجد أنه لا بد من استخدام "big" وليس غيرها "She got her big break in London, and now she's a big noise at the BBC and she's making big money" (لقد قضت عطلتها الطويلة في لندن، وهي الآن تصنع الكثير من الشهرة في هيئة الإذاعة البريطانية كما أنها اكتسبت أموالاً كثيرة).

هل تمثل هذه التداعيات جزءاً من معاني الكلمات؟ يتوقف ذلك على ما ترغب في فعله، فإذا كان كل ما يهمك هو تحديد الكلمة التي تشير إلى شيء أو ظاهرة ما فإنك في هذه الحالة تتجاهل التداعيات وتعلن أن كلا من الكمان والكمنجة كلمات مترادفة، أما إذا كنت مهتماً بالاستخدام الأمثل للكلمات في سياقها تكون التداعيات ذات أهمية.

يأتي الآن دور التضاد أو المطابقة كأحد العلاقات المألوفة بين المعاني، وهو تناقض معاني الكلمات، يبدو الأمر بسيطاً في البداية ولكن كما اعتدنا تأتي الرياح دائماً بما لا تشتهي السفن، يادئ ذي بدء نقول إن كلا من المتضادات (ساخن وبارد)، (ميت وحي)، و(متزوج وأعزب)، و(مفتوح ومغلق) لا ترتبط ببعضها على أسس متساوية، انظر أولاً إلى الجمل الآتية ثم قرر أيها صحيح، لكي تتجنب أية تعقيدات نحن في غنى عنها، افترض أن كل الأسماء الواردة بالجمل تشير إلى أناس بالغين :

(3.5) This water is neither hot nor cold .

(٥-٣) ليس الماء بالساخن ولا بالبارد.

(3.6) This table is neither clean nor dirty .

(٦-٣) المنضدة ليست نظيفة ولا قذرة .

(٢٤) رقصة يؤديها الراقصون وهم على صورة مربع .

(3.7) That door is neither open nor shut .

(٧-٣) الباب ليس مفتوحاً ولا مغلقاً .

(3.8) Janet is neither married nor single .

(٨-٣) ليست "جانيت" متزوجة ولا غير متزوجة .

(3.9) My friend Sandy is neither male nor female .

(٩-٣) صديقتي "ساندي" ليست ذكراً أو أنثى .

(3.10) Your statement is neither true nor false .

(١٠-٣) عبارتك لا بالصحيحة ولا بالخاطئة .

(3.11) Her results are neither good nor bad .

(١١-٣) نتائجك ليست طيبة ولا سيئة .

ما رأيك في تلك الجمل ؟ بورنا الآن أن نخبرك أنه من ضمن تلك الجمل توجد جملتان فقط لا تتضارب عليهما الآراء، وتبقى بقية الجمل محل جدال، يمكن لأي شخص تقبل عدد من الاحتمالات الواقعة بين "ساخن" و"بارد" أو بين "طيب" و"سيئ" لأنها من "المتضادات المتدرجة"، يطبق بعض الناس صفة التدرج على كل من "نظيف" و"قذر" بينما يرفض البعض الآخر ذلك ويصرون بشدة على أن أي شيء غير نظيف يجب أن يكون قذراً بلا تدرج بينهما، بالنسبة لهؤلاء الناس تسمى تلك الكلمات باسم "المتضادات الثنائية"، ويعنى هذا المسمى كلمتان غير متجانستين لا توجد بينهما أية احتمالات للتدرج، يرى بعض الناس في كل من (صحيح خطأ) و(ميت ، حي)، خير مثال للمتضادات الثنائية ولكن لا يخلو رأيهم هذا من جدال أيضاً.

تقدم الكلمات (متزوج وأعزب) حالة جديدة بالانتباه حين يصر بعض الناس على أن أي شخص بالغ لابد أن يكون إما متزوجاً أو أعزب ولا يستمع هؤلاء إلى أي نقاش بشأن هذا الأمر، على الجانب الآخر يرى البعض - بنفس الدرجة من الإصرار - أن (متزوج وأعزب) يدخلان ضمن عدد من الاحتمالات التي تشمل على "مخطوب" و"مرتبط" و"يعيش مع شخص ما" و"منفصل" و"مطلق" و"أرمل" وغير ذلك، مما يجعل الجدال هنا حاداً بالفعل.

تتفرد المتضادات المتدرجة بخاصية جديدة بالملاحظة، افترض أن المريخي نحى أمر الكلب جانبا وجاعك يسأل كم تبلغ درجة الحرارة التي تجعل الشيء ساخنًا ؟ ، لا توجد إجابة محددة لهذا السؤال اللهم إلا إجابة واحدة وهي "يتوقف هذا على الظروف" ، تكون درجة الحرارة ٩٥ درجة سيليزية (تقترب من الغليان) ساخنة بالنسبة لمياه الاستحمام، ولكن عندما يصل الفرن إلى درجة الحرارة ذاتها لا يكون ساخنًا كثيرًا، كذلك تهب درجة الحرارة ٢٠ مئوية يوما ساخنًا في لندن بينما تجعل نفس الدرجة الجو بارداً في دالاس، يعتبر رجال الفضاء الشمس نجما بارداً مع العلم بأن درجة حرارة سطحها تصل إلى ٦٠٠٠ درجة مئوية تقريبا، نستنتج من ذلك أن هذا الذي نتوقف عليه الظروف هو توقعاتنا، فنحن نصف ماء الاستحمام أو الأفران بالسخونة إذا بلغت درجة حرارتها النهاية القصوى لتوقعاتنا بالنسبة لكل منهما، لذلك فإن كلمة "ساخن" ليس لها معنى مطلق مثلها في ذلك مثل الكلمات المتدرجة "جيد" و"كبير"، إننا ننتقل بلا أدنى جهد بين تعبيرات مثل (قهوة ساخنة ، يوم ساخن)، و(قراشة كبيرة ، كلب كبير ، شاحنة كبيرة ، جزيرة كبيرة)، و(خمير جيد، أخبار جيدة، طبيب جيد، طقس جيد) حتى أن ما نفعله يمر علينا مرور الكرام - هذا هو الأمر المنهمل والجدير بالاهتمام فقد حاول العلماء والمهندسون تطوير ما يسمونه بالذكاء الاصطناعي وانتهوا أنه من الصعوبة - التي تصل إلى حد الاستحالة - برمجة حاسباتهم الآلية لاستخدام تلك التعبيرات والانتقال بينها بنفس طريقتنا في ذلك.

يأتى الآن دور العلاقة الكائنة بين الكلمتين "rose" (وردة) و"flower" (زهرة)، تعد أية وردة زهرة وليس العكس : ربما تكون الزهرة وردة وربما تكون أيضا نرجس أو سوسن، لذلك تعتبر وردة جزء من الزهرة بينما تعد الزهرة كلمة جامعة لجميع أنواع الورد.

إن علاقة الجزء بالكل شيء مألوف ولكنه لا يسير بطريقة واحدة في كل الحالات، ذكرنا أن وردة جزء من زهرة ولكن هل زهرة جزء من النبات ؟ إذا سألت عن الأجزاء التي تجمعها كلمة إناء ربما تذكر كلمات مثل صنوق، جرة، أو حقيبة، ماذا عن ظرف، صنوق البريد، أو جيب ؟ هل تعد هذه الكلمات أنية ؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك، فلماذا ؟ تتسع هذه الأغراض لأشياء عدة، فلماذا تفقد صفة الاحتواء المتمثلة في كلمة إناء ؟

إن تحديد كلمة جامعة لفئة ما من مفرداتنا اللغوية ليس بالشيء الموثوق فيه، فقد جرت العادة - مثلا - إطلاق كلمة شجرة على أي نبات كبير الحجم يدخل الخشب في

تركيبه بالرغم من أن الأشجار لا تحتل مجموعة بمفردها في تصنيف النباتات، ذلك التصنيف الموضوع من قبل علماء النبات، كما أن بعض اللغات لا تدخل ضمن مفرداتها نفس الكلمة، كبعض اللغات الأسترالية التي تضم أسماء لأنواع معينة من الأشجار فحسب، من ناحية أخرى تضم بعض اللغات مصطلح جامع وحيد يقيد معنى الكائنات الطائرة ويطلق على الطيور والخفافيش والحشرات التي تطير - وعلى النقيض لا يتمثل ذلك في اللغة الإنجليزية، (مما يدعو للدهشة اتهام متحدثي اللغات غير الأوروبية "البدائية" من قبل الأوربيين الجاهلين بعلم اللغة لأنهم لا يستخدمون كلمة مثل "شجرة" بحجة إخفاقهم في إحداث تعميم واضح، كما أنهم نتيجة لإخفاقهم في إحداث تمييز بين الكلمات لجأوا إلى استخدام كلمات جامعة مثل الكائنات الطائرة، نأمل بأن يتضح لقراء كتابنا هذا أمر ما وهو أن اتهام الناس لكونهم مختلفين عن الأوربيين - لغويا أو غير ذلك - أمر عنصري مبالغ فيه ولا معنى له).

إن تحديد إذا ما كانت كلمات بعينها جزءا من مصطلح جامع أمر يثير الجدل في اللغة الإنجليزية في أغلب الأحيان، يتطبق الكلام ذاته على معظم اللغات فيما عدا اللغات الأسترالية التي تعرض لنا بوضوح شديد الكلمات التي تتجلى بها صفة الجزئية، تشتمل كل لغة من هذه اللغات على طريقة فريدة للحديث لا مفر من استخدامها في حضور بعض الأقارب، تسمى هذه الطريقة أسلوب التجنب، تقع الحماة على رأس هؤلاء الأقارب ومن هنا يسمى الأسلوب "بلغة الحماة"، يتميز أسلوب التجنب باختلاف مفرداته عن مفردات اللغة الحياتية العادية، بالطبع تقل كلمات أسلوب التجنب كثيرا عن مثيلاتها في اللغة الحياتية وهذا سبب في اجتواء هذا الأسلوب على وفرة من المصطلحات الجامعة، حتى أن كل مصطلح من تلك المصطلحات يقوم بوظيفة واحدة تؤيدها مجموعة من الكلمات المختلفة تتضمنها اللغة الحياتية، يقدم ما سبق من كلام دليلا مباشرا بشأن علم الدلالة المعجمي : تعتبر كل الكلمات المشتمة عليها اللغة الحياتية والمثلة بمصطلحات مفردة في "أسلوب التجنب" أجزاء لمصطلحات جامعة، حتى وإن لم تفصح اللغة الحياتية عن هذه المصطلحات الجامعة، ستوضح كلامنا هذا فيما يلي بأمثلة من اللغة "الدريالية" وهي لغة أسترالية يتمثل فيها أسلوب التجنب تمثلا جليا.

لا تضم اللغة الدريالية اليومية مصطلحا جامعا يمكن إطلاقه على السحالي ضمن مفرداتها، بل تحدد أسماء خاصة لكل نوع من تلك الزواحف : "banggarra"

(السحلية ذات اللسان الأزرق)، "biyu" (السحلية ذات الأهداب)، "buynyjul" (السحلية حمراء البطن)، "gaguju" (السَّقَنَقُور أو السحلية الصغيرة الجسم)، على العكس يقدم أسلوب التجنب مصطلحا واحدا لكل هذه الأنواع وهو "ijjan"، لذا نخرج مما ذكر بنتيجة وهي أن كل هذه المصطلحات تمثل أجزاء من مصطلحات جامعة عند متحدثي اللغة الدريالية في الوقت الذي تخلو فيه اللغة اليومية من هذه المصطلحات الجامعة.

المعنى وعلم النحو :

يتضح مما تقدم أننا اعتبرنا النحو والمعنى جانبيين مختلفين تماما من اللغة، وهما بالفعل كذلك برغم ارتباطهما ببعضهما بعضاً في حالات أخرى، قد شهدنا في الفصل الثاني بعض الأمثلة التي توضح ذلك عندما تحدثنا عن الفصائل النحوية (العدد، الجنس)، تعبر تلك الفئات عن حالات بعينها يكون فيها المعنى مرتبطا بنحو لغة ما، يحضرنا هنا الحديث عن فصيلة نحوية وثيقة الصلة بالمعنى، وهي فصيلة يصعب شرحها : الزمن.

يُعرَّف الزمن بأنه الوقت من وجهة نحوية، هامٌ أن تدرك التباين بينهما، بأدنى ذي بدء نقول أن الوقت لا يدخل ضمن مكونات اللغة لأنه مكون لعلم الفيزياء وعلم النفس، لا شك أننا نعرف جيدا معنى مرور الوقت وكيفية تقسيمه إلى الماضي والمضارع والمستقبل، كما يمكننا تقسيم الوقت إلى وحدات أكثر بقة من تلك الثلاث مما يجعلنا نميز الماضي القريب عن الماضي البعيد والمستقبل القريب عن المستقبل البعيد، لأنه باستطاعتنا التفرقة بين دقائق قليلة مضت في يوم ما ووقت مبكر من ذلك اليوم، أو أمس وقبل أمس، أو الأسبوع الماضي والشهر الماضي والسنة الماضية، لا توجد حدود للتمييز الذي تستطيع القيام به : مائة وسبعة وعشرون عاماً مضت يختلف عن مائة وثمانية وعشرون، لاحظ أن هذا التمييز يتم باستخدام كلمات مناسبة أو مجموعة من الكلمات، لذلك لا يرتبط هذا التمييز بنحو اللغة الإنجليزية.

لكننا قد نرى بعض اللغات التي تعرض مثل هذه الفروق الزمنية في علم النحو الخاص بها ، ولا يسير ذلك على كل تلك الفروق لأنها كثيرة ، لذا تتضمن بعض اللغات - التي لا تدخل فصيلة الزمن ضمن محتويات نحوها - تلك الفروق الزمنية ذات العدد المحدد.

تعرض اللغة الإنجليزية - مثلها في ذلك مثل لغات عديدة - الفروق الزمنية في أفعالها، فالأفعال الإنجليزية تقدم فروقا زمنية تسيير بطريقة منظمة : الفعل "أحب" يقابله "أحب"، "يذهب" يقابله "ذهب"، "يفعل" يقابله "فعل"، لذلك تكون الطريقة التي تعبر بها الأفعال عن الزمن غير قياسية، لا يهمننا ذلك كثيرا، ما يهمننا الآن هو العلاقة بين الزمن والوقت والتي تبدو جلية منذ الوهلة الأولى: تشير جملة "إننى أحبها" إلى الزمن المضارع بينما تشير "أحببتها" إلى الماضى.

قد نتدهش عندما نعرف أن بعض اللغات لا تمتلك فصيلة الزمن، ومن تلك اللغات اللغة الصينية، حيث لا يوجد بتلك اللغة ما يماثل الأفعال "يذهب" و"ذهب"، كل ما يفعله المتحدث الصينى عندما يريد التعبير عن الفروق في الوقت هو استخدام كلمات مناسبة تدل على الوقت مثل : "اذهب الآن"، "ذهبت الأمس"، "ساذهب غدا"، "ساذهب فى عشر دقائق"، "ذهبت منذ عشرين عاما"، إنهم يفعلون ذلك ببساطة ولا يشعرون بافتقارهم لتلك الفصيلة.

على العكس، تمتلك الكثير من اللغات فصيلة الزمن، فاللغة التركية على سبيل المثال تتضمن ثلاثة أزمنة : الماضى "gittim" (ذهبت)، المضارع "gidiyorum" (أنا ذاهب)، المستقبل "gidecegim" (سوف أذهب)، هذا هو النظام الشائع فى معظم اللغات ولكنه ليس الوحيد، تتضمن لغات عدة نوعين فقط من الأزمنة المتسعة بالوضوح، تتضمن إحدى لغات جنوب إفريقيا أكثر من أحد عشر زمناً : خمس درجات مختلفة للماضى، خمس درجات مختلفة للمستقبل، بالإضافة إلى الزمن المضارع، تظهر الفروق في الزمن عند متحدثى هذه اللغة وكذلك اللغات الأخرى التي تتمثل بها فئة الزمن، فهم لا يمتلكون الاختيار فى استخدام أحد الأزمنة بون الأخرى، كل ما يجب عليهم فعله هو استخدام الزمن الملائم للوقت المتحدث عنه، ذلك تفسير لعبارة "الزمن هو وقت من وجهة تحوية".

تظهر الفروق الزمنية غالبا - كما رأينا - فى الأفعال وليس دائما، فنجد أنها تتجلى فى لغة "الهويا" المستخدمة فى كاليفورنيا بالأسماء، تشتمل كلمة "منزل" - مثلا - على ثلاثة أزمنة : المضارع فى كلمة "xonta" (البيت الذى يتواجد حاليا)، الماضى فى "xontaneen" (البيت الذى أصبح أنقاضاً)، المستقبل فى "xontate" (البيت الذى لم ينشأ بعد)، لا تسيير اللغة الإنجليزية بهذا النظام، بل تستخدم بدلا منه كلمات معينة :

ربما يعتبر شخص ما كلمة "الزوجة السابقة" الزمن الماضي من كلمة "زوجة"، وبالتالي تكون "خطيئة" الزمن المستقبل من نفس الكلمة.

حديثنا الآن عن اللغة الإنجليزية، كم عدد الأزمنة التي تتضمنها تلك اللغة ؟ ربما تصاب بالدهشة عندما تعرف أن الإنجليزية تشتمل على زمنين فقط ألا وهما الزمن الماضي والمضارع (من الأفضل أن نطلق عليه الزمن اللاماضي)، لا تشتمل الإنجليزية على زمن للمستقبل ولكن بالطبع توجد بها طرق متعددة للتعبير عن المستقبل، تستخدم هذه الطرق تعبيرات مضارعة (لاماضية) تتبع لنا التعبير عن قاعدة عريضة من الاتجاهات المختلفة للأحداث المستقبلية ولا تسمى أي منها بالزمن المستقبل، فيما يلي نموذج للتعبيرات التي تستخدمها للحديث عن المستقبل، وقد وضعنا في كل جملة التركيب المضارع بجانب الماضي (باستثناء جملتين لا نظير لهما في الماضي) :

(3.12) (a) She goes to London tomorrow .

(أ) ستذهب إلى لندن في الغد .

(b) She went to London yesterday .

(ب) ذهبت إلى لندن بالأمس .

(3.13) (a) She's going to London tomorrow .

(أ) ستذهب إلى لندن في الغد .

(b) She was going to London tomorrow .

(ب) كانت سوف تذهب إلى لندن في الغد .

(3.14) (a) She's going to go to London tomorrow .

(أ) من المقرر أن تذهب إلى لندن في الغد .

(b) She was going to go to London tomorrow .

(ب) كان من المقرر أن تذهب إلى لندن في الغد .

(3.15) (a) She has to go to London tomorrow .

(أ) يجب أن تذهب إلى لندن غدا .

(b) She had to go to London tomorrow .

(ب) كان يجب أن تذهب إلى لندن في الغد .

(3.16) (a) She must go to London tomorrow .

(أ) يجب أن تذهب إلى لندن غدا .

(3.17) (a) She will go to London tomorrow.

(أ) ستذهب إلى لندن غدا.

(b) She would go to London tomorrow .

(ب) كانت سوف تذهب إلى لندن غدا.

(3.18) (a) She shall go to London tomorrow .

(أ) ستذهب إلى لندن غدا.

(b) She should go to London tomorrow.

(ب) كانت سوف تذهب إلى لندن غدا.

(3.19) (a) She'll be going to London tomorrow.

(أ) ستكون في لندن غدا.

(b) She'd be going to London tomorrow.

(ب) كان من المفترض أن تكون في لندن غدا.

(3.20) (a) She wants to go to London tomorrow.

(أ) تريد أن تذهب إلى لندن غدا.

(b) She wanted to go to London tomorrow.

(ب) كانت تريد أن تذهب إلى لندن غدا.

(3.21) she ought to go to London tomorrow.

ينبغي أن تذهب إلى لندن غدا.

(تمتلك بعض أشكال الزمن الماضي معان خاصة لا تسمح للحال 'غدا' أن يكون متواجدا بالجملة، كما أن العلاقة في المعنى بين أشكال الزمن المضارع والماضي لا تكون مباشرة دائماً وبخاصة في الجملة (٢-١٢))، إذا لم يتضح لك أن الجمل (ب) كلها في الزمن الماضي قم بإضافة كل من 'تخبرني جانبيت أن ...'، و'أخبرتني جانبيت أن ...' قبل تلك الجمل ، ستجد أن الجزء الثاني الذي أضفناه - أخبرتني جانبيت أن - صحيح وأكثر طبيعية من الجزء الأول، هذا اختبار تقليدي لأشكال الزمن الماضي في اللغة الإنجليزية.

ذكرت بعض الكتب التقليدية أحد أشكال الأزمنة - يتمثل في الجملة (٢-١٧) - تحت مسمى 'اعتباطي' وهو 'الزمن المستقبل' وهذا يعد خطأ، لا يدخل الشكل "will" (سوف) ضمن الزمن المستقبل، وقد يخطئ الكثير من متحدثي اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية ثانية في اعتبار الأشكال الآتية تعبر عن الزمن المستقبل : "What will you do tonight ?" (ماذا ستفعل الليلة ؟)، "I shall go to a film" (سوف أذهب لمشاهدة فيلم)، "When Janet will get there ?" (متى ستذهب جانبيت هناك ؟)، "We shall start" (سوف نبدأ)، أما عن تصحيح ذلك الخطأ نقول : "What are you doing tonight ?" (ماذا ستفعل الليلة ؟)، "I'm going to a film" (سأذهب لمشاهدة فيلم)، "When Janet gets here ?" (متى ستأتي جانبيت ؟) وهكذا بقية الجمل بدون استخدام "will" أو "shall" إذن لا تدل كل من "will" أو "shall" على الزمن المستقبل، فهما مجرد أشكال للزمن المضارع يتشابهان مع "must" (يجب)، "ought" (ينبغي)، "have to" (يجب) ويعبران عن رؤية خاصة للأحداث المستقبلية.

كذلك لا تتقيد أشكال الزمن الماضي بالإشارة إلى الأحداث الماضية لأن لها استخدامات أخرى، تأمل الجمل التالية "It's time you went to bed" (حان وقت نومك)، "If I spoke better French, I could get a job in Paris" (إذا تحدثت الفرنسية بطريقة أفضل سأتمكن من الحصول على وظيفة في باريس)، نلاحظ أن كلامنا من الأشكال "went" (ذهب) و "spoke" (تحدث) ماضية، ولكن المذهب والتحدث لا يشيران إلى الماضي بأي حال من الأحوال : يشير الأول إلى المستقبل الحالي بينما يشير الثاني إلى المضارع الافتراضي أو المستقبل، يوضح لنا هذا السلوك أهمية التمييز بين الوقت (كفكرة غير لغوية) والزمن (كفصيحة نحوية) فهما مختلفان تماما.

ولكيلا تعتقد أننا نقحم القواعد اللغوية في فصل يدور موضوعه حول المعنى، دعونا نعود إلى النقطة الرئيسية محور حديثنا : بينما تقوم القواعد النحوية بدور مهم للتعبير عن المعنى، فإن كلا منهما جزءان متفصلان تماما، إننا عندما نقول أن اللغة الصينية لا تضم فصيلة نحوية دالة على الزمن لا يستتبع ذلك القول بأن متحدثي تلك اللغة لا يمكنهم إدراك الفروق الوقتية، سواء اشتملت اللغة على أحد عشر زمنا أو ثلاث أزمنة أو زمنين أو حتى خلت من الأزمنة نهائيا، فإن متحدثي تلك اللغة لا يجدون أدنى صعوبة في الحديث عن الزمن الماضي أو المضارع أو المستقبل، يمكن لجميع اللغات التعبير عن أشياء مثل "الثلاثاء قبل الماضي"، "الساعة التاسعة والنصف صباح باكر"، أو "في عام ١٤٥٣"، وتختلف تلك اللغات عن بعضها بعضا في حجم التفاصيل النحوية التي تضيفها للفعل (أو غيره من العناصر) حتى يمكن التعبير عن الأشياء التي تخص الوقت، أي أن أي شيء تعبر عنه لغة ما يمكن لأية لغة أخرى التعبير عنه، يطلق على تلك الملاحظة مسمى قاعدة التعبير بالكلمات، كانت تلك القاعدة محل استحسان عدد كبير من اللغويين، ولكنها تأثرت بالاعتبارات الثقافية للمجتمعات، بالرغم من ذلك لا تعد الترجمة أمر بسيط، فقد حاول القليل من اللغويين إغفال قاعدة التعبير بالكلمات من أجل رؤية مغايرة لها تماما وهي العلاقة بين اللغة والمعنى، وهذا ما سوف نناقشه فيما يلي.

المعنى والعالم :

إذا حاولت ترجمة نص ما من لغة إلى أخرى ستجد الأمر ليس سهلا، والسبب الرئيسي لذلك هو أن الكلمات لا تتماثل مع بعضها بعضا في اللغات المختلفة، فمثلا يوجد فرق كبير - في الإنجليزية - بين الكلمتين "ape" (قرد كبير الحجم كالغوريلا)، و"monkey" (قرد صغير الحجم)، بينما توجد كلمة واحدة في اللغة الإنجليزية للتعبير عن هذه الحيوانات وهي "singe"، من ناحية أخرى تقابل الكلمة الإنجليزية "ball" (كرة) ست من الكلمات الفرنسية المختلفة المعنى وهي "ballon"، "pelote"، "balle"، "boulette"، "boulet"، "boule".

يعد ما ذكرناه سابقا حالات بسيطة، فهناك حالات أخرى تعرض مجموعات من المعاني يتم تقسيمها في اللغات المختلفة إلى كلمات متباينة تماما، تعبر الكلمات

الإنجليزية "road" (طريق)، "street" (شارع)، "way" (ممر أو طريق) عن نفس المعانى التى تعبر عنها الكلمات الفرنسية الخمس الآتية : "chemin"، "rue"، "route"، "chaussée"، "voie"، ولكن لا تماثل الكلمات الإنجليزية أياً من الكلمات الفرنسية، ينطبق الأمر ذاته على الكلمات الإنجليزية "hard" (صعب)، "harsh" (قاس)، "rough" (خشن) والكلمات الفرنسية "dur"، "râche"، "rude"، "âpre"، "rigoureux"، وبالمثل الكلمات الإنجليزية "large" (واسع)، "big" (كبير)، "great" (عظيم)، "grand" (قخم) والكلمات الفرنسية "grand"، "gros"، وهكذا.

إن كلا من الإنجليزية والفرنسية لغات أوروبية تتحدثها بلدان تتشابه تقاليد مجتمعاتها وتتشارك فى الخلفية الثقافية، بالرغم من ذلك ما زالت الترجمة بين هاتين اللغتين أمر عسير، إذن إلى أى مدى تبلغ صعوبة الترجمة التى تتحدثها مجتمعات تتباين عاداتها وخلفياتها ؟

هناك وجهة نظر فى هذا الشأن ولكنها لا ترقى إلى درجة الأغلبية بالرغم من كونها على درجة كبيرة من الأهمية، تذهب وجهة النظر هذه إلى أن تلك الترجمة بين لغتين مختلفتين أمر مستحيل، وذلك لسبب وحيد غاية فى الأهمية، قدم وجهة النظر هذه عالم اللغة الألمانى الشهير إيوارد سايبير وطورها تلميذه بنيامين لى ورف، لذلك تم تسميتها نظرية "سايبير - ورف" وقد فضل البعض تسميتها "نظرية الاتصال اللغوى"، يمكن التعبير عن تلك النظرية بطرق عدة ودرجات متباينة ولكن الصياغة الشائعة لها تقول : "يؤثر تركيب لغتنا بدرجة كبيرة على الطريقة التى نستوعب العالم بها"، قد يبدو هذا الافتراض المدهش مقبولاً منذ الوهلة الأولى، يستخدم متحدثو اللغة الإنجليزية كلمات مختلفة للدلالة على القرود بنوعها الصغيرة والكبيرة، فى الوقت الذى يفتقد متحدثو الفرنسية ذلك، هل هذا يستتبع القول بأن متحدثى الإنجليزية يفهمون الفارق بين القرود الصغيرة والكبيرة بدرجة أكبر من متحدثى الفرنسية ؟ هذا ليس صحيحاً، فمن واقع تجربتنا نرى أن العديد من متحدثى الإنجليزية ليس لديهم أية فكرة عما يميز هاتين المجموعتين من الحيوانات، ولذلك فهم يستخدمون كلمتى "ape" و"monkey" بالتبادل بون النظر إلى ما تعنيه كل منهما بدقة، لكن ما نتحدث عنه ليس ما يقصده "ورف" فى نظريته.

اشتغل "ورف" مفتشا في تأمين الحرائق قبل اشتغاله بعلم اللغويات، اكتشف "ورف" خلال تحرياته حرص العاملين في تعاملهم مع أنابيب الغاز الملأى، ذلك الحرص الذي كان يتراجع عند التعامل مع الأنابيب الفارغة، هذه الفعلة غير سليمة، لأنك إذا أشعلت ثقابا في أنبوبة بترول مملوءة سيشتعل الغاز على الفور أما إذا أشعلت أنبوبة فارغة فإن الغاز المتبخر المتبقى سينفجر بعنف، استنتج "ورف" وجود شيء ما بشأن الكلمة "فارغ" والتي حثت العمال على هذه الفعلة الطائشة.

انتهج "ورف" - من جراء ملاحظاته هذه - دراسة علم اللغة، وبخاصة لغات أمريكا الشمالية مثل "الهوبي" و"النوتكا" و"الشاونى"، كان ما اكتشفه عجيب بحق، فلغة الهوبي مثلا تعبر عن زمن المستقبل بوضوح بينما لا يظهر بها فرق واضح بين الزمن المضارع والماضى، علاوة على ذلك تشتمل تلك اللغة على نظام للأفعال غنى للغاية، فنرى أفعالا تصرف للتعبير عن أفكار غير مألوفة مثل الاستمرار والتكرار، كما أن الأفكار التي يجب التعبير عنها في اللغة الإنجليزية باستخدام أفعال متباينة تماما يعبر عنها في تلك اللغة باستخدام الفعل ذاته كل مرة مع اختلاف في شكله، إليك بعض الأمثلة :

"royàyata" تدور	"róya" تتبع النور
"tirírita" يرتعش	"tíri" يبدأ
"wiwáwata" يعرج	"wiwa" يتعثّر
"kwilálatá" يسير للأمام	"kwila" يتقدم خطوة
"ripípta" تومض	"rípi" يصدر عنها ضوء
"imímita" ترعد	"ími" تصنع ضوضاء
"ngarórota" يحاول مضغ شيء صلب	"ngaro" يلوك بأسنانه شئاً صلباً

تستطيع الآن أن تحي ما يحدث، ولابد أنك لاحظت مدى اقتصادية ويسر ذلك النظام، ينوي "ورف" القول بأنه في الوقت الذي يعتبر متحدثو الإنجليزية كلا من "السير" و"التقدم بخطوات" نشاطين مختلفين، يعتبرهما متحدثو لغة "الهوبا" جانبيين لنشاط واحد مثله في ذلك مثل نشاط "السير" الذي يعبر عنه في الإنجليزية بالأفعال "he walks" يسير و "he walked" سار.

تحتوى لغة النافاهو - لغة أخرى مستخدمة بأمريكا الشمالية - على وفرة من المفردات الدالة على الخطوط والأشكال المتنوعة وكذلك الألوان، إليك مثال بسيط :

"dzigai" خط أبيض اللون ممتد لمسافة معينة.

"adziisgai" مجموعة من الخطوط المتوازية البيضاء ممتدة لمسافة معينة.

"hadziisgai" خط أبيض يمتد في وضع عمودي باتجاه صاعد من أسفل إلى أعلى شيء ما.

"ahééhesgai" أكثر من خطين نوى لون أبيض يكونا نواثر متحدة المركز.

"áich'inidzigai" خطان نوى لون أبيض يلتقيان في نقطة واحدة.

"álnánégah" خط أبيض غير مستو.

يسمع هذا الكم من المفردات لمتحدثي لغة النافاهو بالحديث بون جهد عن كل أنواع الأشكال الهندسية التي تتطلب شرحا مطولا باللغة الإنجليزية. يرجع السبب في ذلك إلى أن متحدثي لغة النافاهو يدركون معاني المصطلحات الهندسية التي تعرضها لغتهم، جدير بالذكر أن أسماء الأماكن في لغة النافاهو يغلب عليها الطابع الهندسي، فمثلا يسمى شكل مثير لتكوين حجري معين يقع في الأريزونا "Tsé Áhé'il'áhá" وتعنى حرفيا (صخرتان في وضع عمودي متواز متبادل)، يطلق على هاتين الصخرتين في اللغة الإنجليزية أقدام الفيل، نخرج مما سبق بأن متحدثي اللغة الإنجليزية يشاهدون أشياء شبيهة بأشياء أخرى، بينما يرى متحدثو لغة النافاهو العلاقات الهندسية التي تربط الأشياء.

اكتشف "ورف" اختلافا ملحوظا بين لغات أمريكا الشمالية وأوروبا، ليدل على ذلك ساق لنا المثال الآتي : "He invites people to a feast" (إنه يدعو الناس إلى مأدبة)، يمكن تقسيم هذا المثال بفكرته المعقدة إلى عناصر صغيرة دالة على معني وهي "invite" (يدعو)، "people" (الناس)، "feast" (مأدبة)، يعبر عن هذه الجملة الإنجليزية بكلمة واحدة من لغة "النوتكا" لغة كولومبيا البريطانية وهي "Ti'imshya'isita'itlma"، وتتكون من الأصل "Ti'imsh" (يسلق) وخمس لواحق هي : "ya" (وتعنى - "ed" (اللاحقة الدالة على الزمن الماضي في اللغة الإنجليزية)، "is" (eat يتاكل)، "ita" (ers-اللاحقة الدالة على الفاعل في اللغة الإنجليزية)، "iti" (go-for يذهب إلى)، "ma" (he-does يفعل)، بترجمة تلك الجملة إلى الإنجليزية تكون كالتالي "He does some thing involving going for eaters of boiled food" (إنه يفعل شيئا ما كأن يذهب

ليأكل طعاماً مسلوفاً)، يوضح ورف أن لغة "النوتكا" تقسم الفكرة التي عبرت عنها الجملة الإنجليزية بطريقة مغايرة فلا يظهر فيها الكلمات (يدعو أو الناس أو مادية)، إن تلك اللغة تعبر عن معنى خاص بها يقوم على الكلمات "cook" (يطهو)، "eat" (ياكل) "do something" (يفعل شيئاً ما).

يعد تقسيم اللغات المختلفة للعالم كل بطريقة خاصة أمراً مؤكداً، لهذا افترضت نظرية سايبير - ورف أن المتحدثين لتلك اللغات ينظرون إلى العالم برؤى مختلفة نتيجة للتركيبات المختلفة للغات التي يستخدمونها، ولكن هذا الافتراض يتبعه جدال طويل، يبدو جلياً أن ورف قد ذهب بعيداً عندما أظهر تلك الفروق الشاسعة بين لغات أمريكا الشمالية وأوروبا، فإلى الآن ما زال اللغويون يدرسون مدى صلاحية نظرية الارتباط اللغوي حتى يومنا هذا.

تمثل المصطلحات الدالة على الألوان أبرز الطرق التي يمكن بواسطتها اختبار نظرية سايبير - ورف بل الوصول إلى نتائج غير مسبوقة من خلالها، تشتمل كل لغة على مصطلحات للألوان الرئيسية، يبلغ عدد تلك المصطلحات في اللغة الإنجليزية أحد عشر مصطلحاً وهي: الأسود، والأبيض، والأحمر، والأخضر، والأزرق، والأصفر، والبرتقالي، والأرجواني، والرمادي، والبنّي، والوردي، أما بقية الألوان الأخرى كالقرمزي والأخضر الفاتح والأحمر المائل إلى البرتقالي والأصفر الفاتح فهي غير رئيسية بشكل أو بآخر، بالمثل تحتوي اللغات الأخرى على عدد مختلف من مصطلحات الألوان الرئيسية: فمثلاً تشتمل لغة أمريكا الشمالية "تيز بيرس" (Tsez) على سبع مصطلحات، أما اللغة النيجيرية "إيبو" (Ibo) فتشتمل على أربع مصطلحات، في حين تضم لغة جنوة الجديدة "جالى" (Jali) مصطلحين فقط للألوان، تتوزع جميع الألوان التي تحويها لغة ما على مصطلحات الألوان الرئيسية لتلك اللغة، فعلى سبيل المثال تشتمل لغة الفلبين "هانونو" (Hanunoo) على أربعة مصطلحات رئيسية للألوان تتوزع كالتالي: (ma) biru يضم هذا المصطلح اللون الأسود ودرجات البنّي القاتم والأزرق والأرجواني، (ma) Lagti يضم الأبيض ودرجات الوردي الفاتح والأزرق والأصفر، (ma) rara يضم الأحمر والبرتقالي والقرمزي القاتم، (ma) Latuy يضم الأصفر والدرجات الفاتحة للأخضر والبنّي.

يدل تقسيم مصطلحات الألوان بتلك الطريقة في اللغات المختلفة على ما ذكرناه من قبل بشأن نظر تلك اللغات إلى العالم بطرق متباينة، كما يدعم هذا التقسيم بدوره نظرية سايبير - ورف، سؤالنا الآن هو : إذا أصر أحد متحدثي اللغة الإنجليزية على أن لون قلم ما أصفر في حين أن لونه أخضر، بينما أصر متحدث اللغة "الهانونو" أن لون ذلك القلم يجمع بين الأصفر والأخضر (ma) latuy ، هل يستتبع ذلك القول بأن كلاً من هذين المتحدثين ينظر إلى العالم بوجهة مختلفة ؟

منذ عقود مضت قرر كل من "برنت برلين" و"بول كاي" - وهما من الأنثروبولوجيين (علماء الإنسان) - الإجابة على السؤال السابق، بدأ كل منهما دراسة استخدام مصطلحات الألوان عند أناس يتحدثون لغات مختلفة تحوى كل منها عدداً مختلفاً من مصطلحات الألوان الرئيسية، نظروا في البداية إلى الحدود التي تفصل بين تلك المصطلحات ووجدوا أنه كلما قل عدد هذه المصطلحات في لغة ما ضمت تلك المصطلحات عدداً أكبر من الألوان، كما اكتشفوا عدم وضوح تلك الحدود، فمتحدثو اللغة الإنجليزية لا يستطيعون تحديد النقطة التي يتحول عندها اللون الأحمر إلى البرتقالي أو الوردى أو الأرجواني، كما يعجز متحدثو اللغات الأخرى عن فعل الأمر ذاته فيما يخص مصطلحاتهم.

أمر "برلين" و"كاي" الأفراد موضوع البحث باختيار درجة اللون الرئيسية لكل مصطلحات الألوان باستخدام رسم بياني يحوى هذه المصطلحات، لم تأت النتائج هذه المرة غير واضحة، فقد تمكن متحدثو اللغة الإنجليزية من تحديد درجة اللون الأحمر الرئيسية وهي تلك التي يطلق عليها "أحمر الشفاه"، بالمثل تم لتحديث اللغات الأخرى تحديد درجات الألوان الرئيسية الخاصة بمصطلحات لغتهم، عند هذه النقطة من الدراسة أطلق "برلين" و"كاي" على درجة اللون الرئيسي اسم "foci".

نأتى الآن إلى أعجب اكتشافات "برلين" و"كاي"، لقد وجدنا أن درجة اللون الرئيسية التي أطلقا عليها مسمى "foci" تكون واحدة في جميع اللغات بالرغم من اختلاف عدد مصطلحات الألوان الرئيسية وامتداداتها في كل لغة، أي أن درجة اللون الرئيسية تكون قابسما مشتركا بين جميع اللغات، تطابق مصطلحات الألوان الرئيسية في لغة "الهانونو" - على سبيل المثال - مثيلاتها في اللغة الإنجليزية، أي أن كلاً من الألوان (ma) biru ، (ma) Lagti- ، (ma) rara- ، (ma) Latuy - (ma) وهي مصطلحات الألوان

الرئيسية للغة الهانونغو - تطابق كلاً من الألوان الإنجليزية الأسود والأبيض والأحمر والأخضر، الفارق الأوحى بين هاتين اللغتين هو أن اللغة الإنجليزية قد أضافت قليلاً من مصطلحات الألوان الرئيسية فأصبح عدد مصطلحاتها الرئيسية يفوق مصطلحات لغة الهانونغو.

تتجلى هذه الظاهرة في كل اللغات التي قام "برلين" و"كاي" بدراستها، تختار جميع اللغات عدداً من مصطلحات الألوان الرئيسية من بين أحد عشر مصطلحاً، كأن تختار لغة ما مصطلحين وتختار لغة ثانية ثلاث مصطلحات وتختار ثالثة أربع مصطلحات، بالإضافة إلى ذلك يمكن توقع الترتيب الذي يسير وفقه ذلك الاختيار؛ في البداية يتم اختيار اللون الأسود ثم الأبيض فالأحمر فالأخضر أو الأصفر فالأزرق فالبنى ثم يتوالى اختيار بقية الألوان - الوردي والرمادي والأرجواني - بون ترتيب محدد، وفقاً لذلك تشتمل لغة "بلينز تاميل (Plains Tamil) الهندية على ست مصطلحات رئيسية للألوان وهي الأسود والأبيض والأحمر والأخضر والأصفر والأزرق.

تبدو تلك الاكتشافات مذهشة بحق، إن مصطلحات الألوان التي كانت في الماضي خير دليل على نظرية الارتباط اللغوي أصبحت الآن محكومة بقواعد عالمية صارمة تظهر الاختلاف بين اللغات.

أثارت دراسات "برلين" و"كاي" الجدل حيث ظهرت قليل من وجهات النظر المخالفة لما توصل إليه كل منهما، ولكن بالرغم من ذلك ظلت استنتاجاتهما محل اعتبار، لم ينفه الأمر عند ذلك الحد، فقد أثبت عالم النفس "كوسى" و"شويدر" أن قدرة الأفراد على تذكر الألوان ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمصطلحات الألوان التي تحويها لغة ما، كلما زاد عدد مصطلحات الألوان الرئيسية التي تحويها اللغة زادت قدرة الأفراد الذين يتحدثون تلك اللغة على تذكر الألوان بدقة، يوضح هذا الاكتشاف أن ما توصل إليه "برلين" و"كاي" بشأن القواعد العالمية التي تحكم اللغات جميعاً ليست نهاية المطاف، وأنه يجب الانتباه إلى اعتبارات أخرى كالتسبية اللغوية، لازل في نظرية سابير - ورف متسع للنقاش.

يبقى لنا نقطة أخيرة في هذا الموضوع قبل أن نظوى صفحاته، إنها مثال ناقشه ورف بشأن شعب الإسكيمو وكلمة "snow" (ثلج) المدرجة بلغتهم، لابد أنه قد تنامي إلى علمك أية معلومات بشأن هذه الكلمة لأن شعب الإسكيمو يمتلكون عدداً من الكلمات

التي مفادها كلمة "ثلج" ، إذن كم يبلغ عدد تلك الكلمات ؟ لسوء الحظ، ليس هناك اتفاق على العدد، فجماعة من الناس يقولون أنه يبلغ خمسين كلمة وجماعة ثانية يقولون مائة وجماعة ثالثة يقولون مائتين وقلة قليلة تزعم أن العدد يصل إلى أربعمائة، ترى أيهم صحيح ؟

بداية نقول أن شعب الإسكيمو لا يتحدث لغة واحدة، بل لغتين رئيسيتين - وهما "الإنويت" (Inuit) و "اليويك" (Yupik) تحتوي كل منهما على عدد من اللهجات المتشعبة، إذن يجب النظر إلى لهجة بعينها من أجل معرفة عدد الكلمات، وبالنسبة للهجات الأخرى لن يختلف ذلك العدد كثيرا، دعونا نبحث في لغة غرب جرين لاند وهي "الإنويت" حيث أنها تلقت من دراسة اللغويين الجانب الأكبر منذ عدة أجيال، كما يوجد في متناولنا قاموس مفصل عن تلك اللغة، إذن لنا الآن أن نطرح السؤال الآتي : كم يبلغ عدد الكلمات الدالة على كلمة "ثلج" في ذلك القاموس ؟ إنها كلمتان فقط : "qanik" أي الثلج بالهواء أو الكسفة الثلجية^(٢٥) ، و الثلج المتساقط على الأرض.

تقتضى الأمانة العلمية أن نذكر ما قاله عالم الأنثروبولوجي واللغوي الأمريكي فرانز بوز^(٢٦) في هذا الشأن، فثناء دراسته لإحدى اللهجات غير المعروفة للغة "الإنويت" ادعى أن عدد الكلمات الدالة على كلمة "ثلج" يبلغ أربع كلمات وهي : "aput" (ثلج على الأرض)، "gana" (ثلج متساقط)، "piqsirpoq" (ثلج متراكم)، "qimuqsuq" (ثلج تكبسه الريح أو تسوقه).

سواء كان عدد الكلمات اثنين أو أربع، فإنه لا يزال بعيدا عما نكر من قبل - أربعمائة أو خمسين، في الواقع لا يختلف هذا العدد عما هو موجود باللغة الإنجليزية التي تشتمل على كل من : "snow" (ثلج، وهي الكلمة الشائعة)، "slush" (ثلج نصف ذائب على الأرض)، "blizzard" (عاصفة ثلجية)، "sleet" (وتعنى في بريطانيا الثلج الذي ينوب أثناء تساقطه، أما في أمريكا فتعنى المطر المتجمد)، بالإضافة إلى ما سبق يمكن لأي مترحلق على الجليد إضافة كلمات أخرى يميز بها بين الأنواع المختلفة للثلج زمن أمثالها : "powder" (المسحوق)، "crust" (القشرة)، "hard pack" (كتلة صلبة) وغير ذلك، من المحتمل أن يفوق عدد الكلمات الدالة على الأنواع المختلفة للثلج والتي يستخدمها أي مترحلق على الجليد يتحدث الإنجليزية ما يستخدمه أحد سكان الإسكا أو جرين لاند.

(٢٥) كتلة رقيقة من الثلج المتساقط .

اللغة والسياق :

واحد من أهم وأروع الأشياء التي يمكن ملاحظتها عن اللغة هو الطريقة التي يستخدم فيها الكلام للتعبير عن المعاني غير الظاهرة، تأمل ما يلي :

(أ) أين كان "جون" ليلة أمس ؟

(ب) كانت هناك سيارة بيتل صفراء اللون أمام منزل "سوزي" هذا الصباح.

ظاهريا تبدو تلك إجابة حمقاء على مثل ذلك السؤال البسيط، فالسائل طرح سؤالاً بشأن "جون" ولكن المجيب لم يذكر كلمة واحدة بخصوصه بل ذكر السيارة البيتل و"سوزي" اللذين لم يرد ذكرهما في السؤال بأي حال من الأحوال، بالرغم من ذلك فإننا واثقون من أنك ستوافق على أن الإجابة عادية ومنطقية للغاية، فيما أن السائل على علم باقتناء جون لسيارة بيتل صفراء (وحتى إن كان لم يعرف ذلك من قبل) فالإجابة ستكون واضحة له، أي أن المجيب ينوي القول "أنا لا أعرف أين كان جون الليلة الماضية ولكن عندي من الأسباب ما يجعلني أعتقد بأنه قضى تلك الليلة مع سوزي".

كيف تسير الأمور على ذلك النحو ؟ كيف يمكن للسائل أن يتحقق من أن تلك الإجابة التي تبدو عديمة الصلة بالموضوع هي الإجابة المفيدة التي ستشفي فضوله ؟

بالطبع ليس من الممكن الزعم بأن ما قاله المجيب على السؤال يعني بدقة "قضى جون الليلة الماضية مع سوزي" أنتظر ما يحدث عند إلقاء السؤال بصيغة مغايرة :

(أ) رأيت "جون" يعطى هدية جميلة "سوزي" في يوم ميلادها.

(ب) نعم كانت هناك سيارة بيتل صفراء أمام منزلها هذا الصباح.

في هذه المرة سيفسر السائل الإجابة على النحو التالي : أعتقد أنه من الممكن أن يكون جون قد أهدى سوزي سيارة صفراء في يوم ميلادها، أي أن الإجابة تشبه مثيلتها السابقة ولكن في هذه المرة يختلف التفسير، هذا ما نقصده بقولنا أنه من الممكن التعبير عن معانٍ غير ظاهرة تدهشك عند التفكير بها.

إن النقطة الرئيسية هنا هي أهمية السياق الذي يقال فيه الكلام، إننا لا نقول الكلام في فراغ بل نقوله في سياق هو في جزء منه لغوي (الأشياء التي قيلت مسبقاً)،

وفي جزء آخر غير لغوي (ظروف المتحدثين مثل معرفتهم للعالم من حولهم وخبراتهم وتوقعاتهم)، وإننا نحقق الاستفادة من كل ما ذكر عندما نفسر ما يقوله الناس.

عند توصلنا لهذه الحقيقة يبدو لنا أن موضوع معاني الكلام شيء غاية في التعقيد - تذكر أن هذه الصعوبة الكاملة هي التي أوحى لبعض اللغويين بترك الأمر برمته - إن الأمر معقد بالفعل، إنك إذا أمسكت بشيء ما ثم تركته فإنك تعرف أن ذلك الشيء سيسقط فوراً على الأرض وإذا كان هذا الشيء فتجاناً مصنوعاً من الصيني فإنك تعرف أنه من المحتمل له أن يتبعثر، يجب على العاملين في مجال الذكاء الاصطناعي إضافة تلك الأشياء لبرامج الحاسبات الآلية بجدية لأن هذه البرامج لا تعي شيئاً عن بعض الأفكار مثل الجاذبية والقابلية للكسر.

ومع هذا وبالرغم من الطبيعة المحيطة للمهمة إلا أن اللغويين نجحوا في إحراز بعض التقدم في شرح كيفية توصيل المعاني، تتمثل الخطوة الأولى في إدراك تواجد طريقتين مختلفتين كحد أدنى لاستخلاص المعاني من مقاطع الكلام، تتمثل الطريقة الأولى في مجرد ملاحظة محتوى المقاطع ذاتها (الكلمات التي تحتويها وترتيبها النحوي)، هذا النوع من المعاني خاص بالكلام وهو المتواجد دائماً مهما اختلف السياق، أما الطريقة الثانية لاستخلاص المعاني تتم عن طريق مقارنة الكلام بالسياق باتباع الطريقة التي أوضحناها منذ قليل، يشتق المعنى هنا ليس من الكلام وحده بل من مجموع كل من الكلام والسياق المذكور فيه، تسمى هذه الدراسة التي تبحث عن كيفية الحصول على تلك المعاني بدراسة مفاهيم الكلام أي دراسة المعنى المشتق من السياق، لابد أننا قد عرفنا الآن أن هذا الفرع من العلوم مختلف عن علم المعاني كما أنه يحتاج إلى دراسات مختلفة.

يمثل الاتجاه الذي افترضه الفيلسوف اللغوي بول جريس واحداً من أهم الاتجاهات الخاصة بعلم مفاهيم الكلام، كُون جريس عدداً من القواعد التي تحكم الطريقة التي تفهم بها المقاطع داخل سياقها، تسمى هذه القواعد بقواعد جريس، يطلق على اثنين من هذه القواعد قاعدة الارتباط والتي تقول "اجعل كلامك مرتبطاً ببعضه بعضاً"، قاعدة الكم والتي تقول "قل ما يحلو لك كلما تطلب الموقف ذلك"، انظر فيما يلي كيفية تطبيق تلك الحقائق على مثالنا الخاص بالسيارة البيتل.

لقد سأل السائل عن مكان جون بالليلة الماضية وجماعته الإجابة تفيد بأنه توجد سيارة بيتل صفراء أمام منزل سوزى هذا الصباح، إذا افترضنا أن المجيب قد اتبع القواعد سنجد أن السائل يطرح بعض الاستفسارات بطريقة أو بأخرى قائلا : " لا بد للإجابة أن تكون ذات صلة لذلك يجب أن يقصد منها أن تكون إجابة لسؤالي، بشأن الكم، لا يعرف المجيب أين كان جون وإلا كان أخبرني بذلك، لكنه ذكر سيارة بيتل صفراء وأنا أعرف أن جون يقود ذلك النوع من السيارات لذا يشيء من التقريب على أن أفهم أن هذه السيارة تخص جون وهو الذي أحضرها معه، وبما أنني أخبرت أن تلك السيارة كانت أمام منزل سوزى هذا الصباح فذلك يستتبع الجزم بتواجد جون هناك، وبما أنني لم أتمكن من إيجاد ليلة أمس فإن التوقع الأمثل هو تواجده مع سوزى حيث قضى الليلة في منزلها".

إننا بالطبع لا نتبع في عملنا مثل هذه الطريقة المفرطة في الإيضاح والمكونة من سلسلة من التساؤلات والافتراضات ولكنها رؤية مفصلة لما يجب أن يدور بداخل رؤسنا عندما نتحدث مع الآخرين، إننا حانقون في مثل هذا النوع من التساؤلات والافتراضات، فنحن نقوم به بسرعة وبلا أدنى جهد حتى إننا في أحيان كثيرة لا نغير اهتماما لما تفعله، كأن فعلنا لذلك ينبع من اتباعنا لقواعد للتحدث تشبه قواعد "جريس".

من المبالغة الادعاء بأن كل متحدث يكون متعاوناً في جميع الأوقات وبصفة دائمة، وبالمثل لا يكون كل متحدث غير متعاون دائماً، ولكن من أروع النتائج التي يمكن استخلاصها من عمل "جريس" هي الإدراك بأن المتحدثين يتعمنون الإخلال بالقواعد من الناحية الظاهرية حتى يحققوا ما يريدونه من تعاون على المستوى العميق، يطلق على هذا السلوك مسمى "الاستهانة بالقواعد"، وفيما يلي مثال واقعي حدث لكاتبنا.

منذ سنوات مضت، وعندما كان لتوه خريجاً حديثاً - صادف أن كان متواجداً بمكتب أستاذه عندما دق جرس التليفون، كان من الطبيعي أن يتسنى له الاستماع إلى طرف واحد من الحديث، كذلك تسنى له أن يستوعب الأمر برمته، كل ما في الأمر أن تلميذاً يدعى "هيربي" انتهى لتوه من رسالة الدكتوراه الخاصة به وتقدم لشغل وظيفة، لذا كان الطرف الآخر على التليفون يطلب من الأستاذ معلومات بشأن "هيربي"، فيما يلي ما سمعه الكاتب من حديث :

إنه شخص ظريف للغاية - الجميع يحبونه

(صمت)

إنه ذو شخصية متكاملة - إنني متأكد أنه سيتأقلم مع الجميع عندك

(صمت)

نعم، أؤكد لك أنه شخص ظريف، ومحبوب جدا.

عند هذه النقطة انتهى الحديث، والآن هل تعتقد أن هيربي قد حصل على الوظيفة؟ إننا متأكدون من عدم تمام ذلك، لكن لماذا و الأستاذ لم يذكر إلا كل طيب عن هيربي؟

بالفعل ذكر الأستاذ كل ما هو طيب، ولكن ذلك الطيب لم يكن الشيء المطلوب، لأن كل ما يهم الطالب هو قدرة هيربي على البحث، فقد كان يأمل بسماع شيء من ذلك القبيل إن هيربي باحث ممتاز، سيروقت عمله كثيرا، ولكنه بدلا من ذلك لم يحصل على شيء سوى مدح في مميزات هيربي، بالرغم من إلحاح الطالب في السؤال عن قدرة هيربي على العمل، لم يجب الأستاذ الإجابة الشافية، لقد أخل الأستاذ - من الناحية السطحية - بقواعد الاتصال والكم وذلك إلى حد كبير، ولكنه على المستوى العميق لا يزال متعاوننا لأن رد فعل الطالب سيكون كالتالي : إذا كان لديه ما يقوله بشأن عمل هيربي لقاله على الفور، وهذا إن دل على شيء يدل على أن ما لديه لن يفيد هيربي، لذلك أستطيع استنتاج أنه ليس باحثا جيدا وهذا ما أود معرفته.

إننا نفعل كل هذه الأشياء وبصفة دائمة، فمعرفتنا بكيفية التواصل بنجاح عن طريق اتباع تلك الطرق غير المباشرة واحدة من الأشياء التي تجعلنا ماهرين في استخدام اللغة الإنجليزية، توقر قواعد جريس وصفا جيدا للطريقة التي يتبعها متحدثو اللغة الإنجليزية، ترى هل يحدث ذلك مع لغات أخرى؟

توضح الأدلة اشتمال اللغات الأخرى على قواعد مغايرة، ففي اللغات الأسترالية - على سبيل المثال - يعتبر التوضيح ضرورة اجتماعية، كما يعد الغموض في الحديث خطأ كبيرا، تبعا لذلك لا يستخدم متحدث اللغة الأسترالية في حديثه اليومي مصطلحات جامعة مثل شجرة أو سحلية إذا كانت لديه القرصة في استخدام

مصطلحات أكثر تحديدا للدلالة على هاتين الكلمتين، كما أنه لم يحاول مطلقا استخدام كلمة غامضة مثل "يذهب" إن كان ينوى قول عبارات مثل "يصعد أعلى التل على قدميه"، لذا فإن اللغات الأسترالية غنية بمثل هذه الكلمات المحددة، نستنتج الآن أن سلوك الأستاد الذي تحدثنا عنه منذ قليل يكون غير مقبول أو غير منطقي بالنسبة للأستراليين، (كان عزوف الأستراليين عن استخدام المصطلحات الجامعة سببا رئيسيا ضلل الباحثين الأوربيين الأوائل وجعلهم يستنتجون - خطأ - أن اللغات الأسترالية لا تحتوي على أية مصطلحات جامعة وأن الأستراليين لا يعبرون عن التعميم، هذه إشارة تذكرنا بمدى تأصل قواعد التحدث عندنا).

على الجانب الآخر، يرفض متحدثو اللغة الرئيسية في مدغشقر استخدام التصريح فيأتي كلامهم تبعا لذلك غامضا لدرجة كبيرة، أسند اللغوي "إليثور أو شس كينان" - الذي درس تلك اللغة دراسة مستفيضة - ذلك السلوك إلى سببين، أولهما استخدام تلك اللغة في مجموعة قرى مغلقة صغيرة المساحة تكون فيها المعلومات الجديدة نادرة، لذا يكتسب الفرد الذي يحصل على معلومات لم يعرفها أحد من قبله مكانة سامية، فيكون الأفراد تبعا لذلك لامهين وراء تلك المكانة، أما ثاني الأسباب التي ذكرها "كينان" هو اعتبار أي قول يتفوه به شخص ما ويسبب إحراجا لشخص آخر خزي كبير، وكذلك يعد من العيب التنبؤ بشيء ما والإفصاح عنه وهو غير صحيح، لهذا يتجنب الأفراد مثل هذه المواقف لدرجة كبيرة فيكون ما يقولونه أقل القليل، نتيجة لما تقدم يجد الغرباء في ذلك المجتمع صعوبة في الحصول على إجابات مباشرة لأستلتهم البسيطة، يبدو جليا أن قاعدة "جريس" الخاصة بالكم لا تتبع بلغة مدغشقر، فهي لغة محكومة بقواعد مختلفة عن تلك التي تحكم كلامنا.

الفصل الرابع

تنوع اللغة

إننا - كبقية البشر - نستخدم مسمى اللغة الإنجليزية للإشارة إلى هذه اللغة بصفة خاصة، كما أنه ليست لدينا أية مشكلة في تمييز تلك اللغة عن اللغة الفرنسية أو الصينية، لكن هذا المسمى يضعنا في مأزق كبير لم نكن نتنبه إليه، لنعرف فيما يلي السبب في ذلك.

التنوع الجغرافي :

هل تثق في قدرتك على تمييز اللغة الإنجليزية عند رؤيتها ؟ تأمل أولا الأمثلة التالية ولنروجهة نظرك فيها :

- (4.1) We had us a real nice house.
- (4.2) She's a dinky-di pommie Sheila.
- (4.3) I might could do it.
- (4.4) The lass divn't gan to the pictures, pet.
- (4.5) They're a lousy team any more.
- (4.6) I am not knowing where to find a stepney.

ماذا ترى في كل جملة من هذه الجمل ؟ هل هي عادية ؟ مألوفة ؟ مفهومة ؟ هل هي جملة إنجليزية ؟

تعتمد إجابات الأسئلة السابقة على خبراتك الشخصية من جهة، وكذا المكان الذي تنتمي إليه من جهة أخرى، وهو الأمر الأكثر أهمية، تلك الجمل صحيحة تماما ومفهومة في بعض أجزاء العالم الناطق بالإنجليزية ولكنها غير مألوفة بالمرّة في أجزاء أخرى، ستكون بعض الجمل السابقة الذكر غريبة عليك كما أنك لن تستوعب واحدة أو اثنتين من بينها بما أنه - على الأرجح - لم يتسن لك قضاء وقت كاف في كل جزء من الكرة الأرضية ينطق بالإنجليزية.

بالرغم مما سبق ذكره لا يزال بعض المتحدثين لأشكال كالجمل السابقة يعتبرون أنفسهم متحدثين للإنجليزية كما يعتبرهم متحدثو الإنجليزية الآخرون كذلك، يتفوه أى شخص من منطقة جغرافية ما بأحد هذه الأشكال نون مراجعتها، كما قد تنتابه الدهشة عندما يعرف أن متحدثى نفس اللغة - لغته - يجدون شيئاً من الصعوبة أو الغرابة فيما ينطق به.

يدور حديثنا الآن حول أحد أشكال التنوع في اللغة وهو التنوع الجغرافى، يتم تحدث اللغة الإنجليزية بطرق مختلفة وفي أماكن مختلفة، مثلها في ذلك مثل أغلب اللغات، وهذا ما نسميه باللهاجات المكانية، بإمكانك بلا شك إدراك تواجد اللهجات المكانية وتمييزها عند الاستماع إليها حتى وإن تفاجأت أو اندهشت أو ارتبكت عند سماعها (كذلك ربما تنحاز إلى إحدى هذه اللهجات، وهذا موضوع سنقوم بمناقشته في الفصل الثامن).

ماذا عن الجمل التي عرضناها في أول الفصل؟ نبدأ بالجملة (١-٤) التي نسمعها في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية وأماكن أخرى من حين لآخر والتي تعنى "إن منزلنا حقا جميل"، تعنى الجملة (٢-٤) "إنها امرأة إنجليزية حتى التخاع"، وهى جملة أسترالية، أما الجملة (٣-٤) والتي تعنى "ربما أستطيع فعل ذلك الشيء" توجد عادة في أنحاء عدة من اسكتلندا وأجزاء من منطقة جبل "أبالاشين" بالولايات المتحدة الأمريكية، تعنى الجملة (٤-٤) "لا تذهب الفتاة إلى السينما" ونسمعها في منطقة شمال شرق إنجلترا، أما الجملة (٥-٤) - والتي تبدو غامضة لكثير من البريطانيين - نسمعها في أجزاء عديدة من الشمال الشرقى للولايات المتحدة وتعنى - تقريبا - "إنهم اعتادوا أن يكونوا فريقا جيدا ولكنهم الآن غير ذلك، أى أنها تعنى عكس الجملة إنه فريق غير سيء الآن"، أخيرا تعنى الجملة (٦-٤) "لا أعرف أين أجد إطاراً بديلاً" ونسمعها في الهند.

توضح تلك الأمثلة باختصار بعض التنوعات الواسعة التي نلاحظها في مفردات ونحو اللغة الإنجليزية، ربما نجد أيضا تلك التنوعات في نطق الكلمات، فلابد أنك لاحظت متحدثين للإنجليزية ينطقونها بطريقة تختلف عن طريقك، وهذا يعنى أن هؤلاء المتحدثين يستخدمون لكنة مختلفة عن لكتك، اللكنة ببساطة هى طريقة معينة لنطق اللغة، من الضروري أن تعرف أن كل متحدث لديه لكنة وليس فقط عامل البناء الذى ينتمى إلى منطقة "جلاسكو" أو سانتو التاكسى النيويوركى أو مطرب البوب الجاميكي

لأن كل منا يستخدم لكتة خاصة به : نحن وأنت ومملكة إنجلترا، إنك من المؤكد تعتبر بعض اللكنات أكثر شيوعا أو أرفع مكانة من غيرها وهذا لا يغير من الحقيقة القائلة بأن كل متحدث لديه لكتة خاصة.

إن الاختلافات اللغوية بين اللكنات جلية بدرجة تجعلك قادرا على تمييز المستخدم منها في إنجلترا، أو اسكتلندا، أو أستراليا، أو شمال أمريكا، أو الكاريبي بسهولة، وربما تستطيع التعرف في التو واللحظة على متحدث قادم من 'ليفربول' أو 'جلاسكو' أو 'نيويورك'، لكن تذكر ما قلناه في الفصل الأول بشأن اختلاف كم الفونيمات التي يستخدمها متحدثو اللغة الإنجليزية، أي أننا لا نملك نفس العدد من الصوامت والصوائت، حتى وإن تحقق هذا فإننا لا نوظفها بنفس الطريقة، نتيجة لذلك تُنطق مجموعات من الكلمات بطريقة ما من قبل بعض الناس بينما ينطقها البعض الآخر بطريقة أخرى.

إليك أمثلة قليلة من تلك الكلمات، حاول أن تنطق كل زوج منها لترى إذا ما كانت طريقة النطق متشابهة أم مختلفة، أتبعنا كل مجموعة من تلك الكلمات بتعليقات مختصرة عن مستخدمى طريقة النطق المذكورة، لاحظ مدى عمومية تلك التعليقات، فربما لا تنطبق طريقة النطق المذكورة على المنطقة التي تتواجد بها.

١ - (father أب، farther أبعد) : تنطق الكلمتين بنفس الطريقة من قبل أغلب قاطنى إنجلترا (باستثناء الجنوب الغربى وأجزاء من الشمال)، وويلز، وكل الأشخاص تقريبا بإستراليا و نيوزلندا وجنوب إفريقيا، ومعظم قاطنى جنوب الولايات المتحدة الأمريكية وساحلها الشرقى، يختلف نطق هاتين الكلمتين عند بقية المتحدثين.

٢ - (whine عويل، wine خمر) : يفرق معظم الأسكتلنديين والأيرلنديين وعديد من الأمريكيين والكنديين وبعض النيوزلنديين بين نطق هاتين الكلمتين، أما الغالبية الباقية فينطقونهما بنفس الطريقة، وهى الطريقة السائدة بالولايات المتحدة الأمريكية.

٣ - (caught مسسك، cot سرير أطفال) : ينطق الكنديون وعديد من الأسكتلنديين وبعض الأمريكيين هاتين الكلمتين بطريقة متشابهة، أما البقية فيميزون بينهما (يعد كلامنا هذا طريقة مجدية للتمييز بين الكنديين والأمريكيين، ولكن لاحظ أيضا اختفاء هذا التمييز بالولايات).

٤ - (hoarse خشن، horse فرس) : يميز بينهما أغلب الناس في أسكتلندا وأيرلندا وبعض الأمريكيين، أما البقية الباقية فينطقونهما بنفس الطريقة.

(stare يحملق، stir يثير) : لا يحدث تفرقة بينهما من قبل معظم قاطنى منطقة ليفربول ومانشستر(إنجلترا)، تحدث التفرقة فى الأماكن الأخرى.

(pour يسكب، poor فقير) : يختلف نطقهما لدى معظم الأسكتلنديين وعديد من الأمريكيين بالشمال، بينما يتوحد النطق لدى الباقين.

(through خلال، throw رمى) : يختلف نطقهما لدى أغلب المتحدثين بويلز وقليل من ساكنى إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية، يغلب على الباقين نطقهما بطريقة مختلفة.

(do يفعل، dew ندى) : يتحدث نطقهما فى شمال أمريكا وشرق إنجلترا، يختلف النطق ببقية الأماكن وإن دلت بعض الإشارات على بداية اختفاء ذلك الاختلاف فى بعض أجزاء من إنجلترا.

يمكن للكلمات الآتية أن تضاف للقائمة السابقة : (pore مسام الجلد، paw مخلب)، (pool حوض السباحة، pull يدفع)، (merry سعيد، marry يتزوج، Mary ماري)، (book كتاب، buck ذكر الظبي)، (tow يسحب، toe إصبع)، (air هواء، hair شعر)، (free حر، three ثلاث)، (hire يعين، higher أعلى) وغيرها الكثير والكثير، ربما تدهش عندما تجد متحدثى الإنجليزية يحدثون تمييزاً فى نطق الكلمات لا تصنعه أنت أو يخفقون فى ما تستطيع فعله، كما أنك ستجد واحداً أو أكثر من أمثلتنا صعبة التصديق، لكن مما لا شك فيه أن كل زوج من تلك الكلمات يتم نطقه بطريقة ما من قبل بعض الناس بينما ينطقه الآخرون بطريقة مختلفة، لنقلها بصراحة، يفوق التنوع فى نطق اللغة الإنجليزية ما نتوقعه من خلال خبراتنا الشخصية.

طبقاً لما تقدم، يمثل ذلك التنوع الهائل عقبة كبرى فى طريق أية محاولة لإصلاح النظام الهجائى الشاذ للغة الإنجليزية، إنه من الطبيعى أن نكتب كلماتنا بنفس الطريقة التى ننطقها بها، ولكن أى نطق يمكننا اعتباره القاعدة التى تسير عليها الكتابة والهجاء ؟ هل يجب نطق مجموعات الكلمات السابقة بطريقة موحدة أم بطرق مختلفة وفقاً لتلك القاعدة الجديدة ؟ قد يقترح من نادى بالإصلاح أن يكون نطقه هو تلك القاعدة، ولكن هذا ليس حلاً عملياً.

يقتضى الموقف هنا أن نقر بعدم كون اللغة الإنجليزية خارجة عن المألوف فيما يخص التنوعات المكانية لأن اللغات التي تُستخدم في أماكن شاسعة من الكرة الأرضية تتمثل فيها نفس التنوعات وينفس الدرجة : من تلك اللغات الإسبانية والفرنسية والإيطالية والعربية والصينية وغيرها، كما أن اللغة الباسكية المستخدمة في مساحة لا تتعدى المائة ميل في الثلاثين ميلا تشتمل على كم هائل من التنوعات ربما يفوق ما نجده في اللغة الإنجليزية، تتميز اللغة الإنجليزية بحرصها على التوحد المكاني وبخاصة في قارتي أمريكا الشمالية وأستراليا .

أنواع أخرى من التنوعات :

بالرغم من أن اللهجات الإقليمية واللكنات من أبرز أشكال التنوعات في أية لغة إلا أنهما جزء واحد من تلك التنوعات المتعددة، يمكننا ملاحظة أنواع من التنوعات في أحد المجتمعات أو في كلام فرد واحد من تلك المجتمعات، فيما يلي أمثلة أخرى من اللغة الإنجليزية المستخدمة في لندن وبخاصة في الجنوب الشرقي لإنجلترا، ماذا تلاحظ في سياق كل من تلك الأمثلة ؟

(4.7) Would you mind very much if I were to open a window ?

(٧-٤) هل تمنع في أن أفتح النافذة ؟

(4.8) Ta , mate.

(٨-٤) شكرا يا سيدي.

(4.9) Oh , Julia , what an absolutely divine tonic !

(٩-٤) يالها من سترة رائعة الجمال يا جوليا !

(4.10) All monies owing in respect of 2 (d) above shall be payable not later than the date of completion specified therein.

(١٠-٤) يجب أن تُدفع كل الأموال التي ذكرها البند ٢ (ب) قبل انقضاء الموعد

المحدد مسبقا .

(4.11) I refer the right Honourable gentleman to my previous answer.

(١١-٤) إننى أخص بإجابتي السابقة السيد المجلد الجالس جهة اليمين.

(4.12) Yanks 2 , Planks 0.

(١٢-٤) "يانكس" ٢، "بلانكس".

نبدأ بالجملة (٧-٤) والتي ينطقها - بلا شك - شخص من الطبقة الوسطى فى إطار رسمى، أى أن الحديث الدائر ليس حديثاً بين الأصدقاء، أما الجملة (٨-٤) فهى كلام أحد أفراد الطبقة العاملة حيث أن كلمتى "ta" (شكراً) و "mate" (سيد) دلالات على حديث تلك الطبقة بلندن، بإمكانك سماع المثال (٩-٤) من سيده، لأننا نادراً ما نسمع كلاماً من كلمتى "divine" (رائع) و "tunic" (سترة) من الرجال، علاوة على أن إظهار شخص ما إعجاباًه بملابس شخص آخر أمر خاص بالسيدات أكثر من الرجال، تختلف الجملة (١٠-٤) عما تقدم، فأسلوبها الجاف غير الشخصى وكلماتها غير المألوفة - "monies" (مال)، "therein" (مسبقاً) - يتم عن أنها مأخوذة من وثيقة قانونية، كما أن الطبيعة الرسمية للمثال (١١-٤) يجعل من مجلس العموم المكان الأمثل لكى يقال به، أما المثال (١٢-٤) فلا يمكن له إلا أن يكون عنواناً فى إحدى الصحف الصغيرة الشائعة، إن أسلوبه المختصر والسريع يخبر بطريقة تلقائية نتيجة مباراة لكرة القدم بين إنجلترا وأمريكا ويعلق بصورة واضحة وفى عجلة على أداء الفريق الإنجليزى.

توضع الأمثلة السابقة بعض التنوعات المتعددة المتمثلة فى المجتمع الواحد، أولاً: تتحدث أنواع متباينة من البشر بطرق شتى؛ فمثلاً يتحدثو الطبقة الوسطى لا يتحدثون كطبقة العمال، كما أن النساء يتحدثون بطريقة تختلف عن الرجال وكذا الاختلاف بين كبار السن وصغار السن، ثانياً : يتحدث الشخص الواحد بطريقة تختلف باختلاف السياق، فالشخص المذكور بالمثال (٤ - ٧) سيتحدث بطريقة مختلفة إذا كان الموقف أقل رسمية، كما أن الوزير المتحدث بالجملة (٤-١١) لا يمكنه قولها خارج نطاق مجلس العموم إلا إذا كان يسخر من شخص ما، أخيراً، تكون وسيلة التعبير على جانب من الأهمية، فبينما تمثل الوثائق القانونية الحد الأقصى من الرسمية - نجد أغلب أنواع الوثائق المكتوبة مختلفة تماماً عما هو متطوق.

إذا كانت لديك خبرة بالحياة فى لندن ستكون الأمثلة التى ذكرناها مألوفة لك بطريقة أو بأخرى، أما إذا افتقدت تلك الخبرة فإنك ستتعرف عليها عن طريق أمثلة

أخرى مشابهة لها وموجودة بالتنوع الخاص بالمكان الذي تتواجد به، يكتسب الفرد الذي يتعلم اللغة في طفولته قدرا من التحكم في استخدام التنوعات، فالشخص المنتمى للطبقة الوسطى يتعلم أن يقول "thank you very much" (أشكرك بشدة)، ولا يقول "ta , mate" (شكرا يا سيدي)، كما أن الرجل لا يتعلم التعبير عن إعجابه بالملابس بتلك الطريقة الحماسية التي نكرناها، أي أن كل فرد لديه قدر من التعليم يكتسب قدرا من التحكم في التنوعات الرسمية المكتوبة للغة الإنجليزية، علاوة على ذلك يعي كل فرد أهمية التنوعات التي لا يستخدمها هو بصفة شخصية : فانت حينما تقابل شخصا يتحدث الإنجليزية بلهجة مخالفة لهجتك، يكون باستطاعتك استنتاج حقائق بشأن ذلك الشخص الذي تتعامل معه، أخيرا، يتعلم كل شخص التحكم في الكم المناسب من التنوعات، فانت تستطيع بلا أننى جهد التنقل بين النوع المناسب من الإنجليزية عندما تتحدث مع صديق قريب في حانة أو بار أو عند الحديث في مقابلة للتقدم لأحد الوظائف، لهذا يعد من الغريب أن يحاول أى شخص يتحدث الإنجليزية استخدام نفس أسلوب الكلام فى تلك الظروف المتباينة.

دراسة التنوعات :

إن لدراسة التنوعات تاريخا طويلا فى علم اللغة، فقد جذبت اللهجات المكانية الانتباه منذ وقت مبكر وتتبع اللغويون الأوروبيون - منذ أكثر من قرن مضى - ذلك الفرع الذى نسميه نحن علم اللهجات، أى دراسة اللهجات المكانية، قام علماء اللهجات بتجميع كم هائل من البيانات عن التنوعات الإنجليزية والفرنسية والألمانية ولغات أخرى، ثم قدموا ما توصلوا إليه فى صورة خرائط، يمثل الشكل (٤-١) خريطة مبسطة للهجات إنجليزية، والخريطة تعرض الكلمة الشائعة للمصطلح شخص مؤنث صغير السن والمستخدم فى بدايات هذا القرن، تسمى الخطوط التى تفصل اللهجات المكانية عن بعضها البعض بالأيسوكوس أما إذا نظرنا إلى خريطة مشابهة ولكنها مصممة فى وقتنا الحالى نجد النتائج مختلفة تماما حيث حلت الكلمة الجنوبية الشرقية (التي تضمها الإنجليزية النموذجية) "girl" (بنت) محل الكلمات الأخرى فيما عدا كلمة "lass" (صبية) التى بقى استخدامها فى الشمال.



شكل (٤-١)

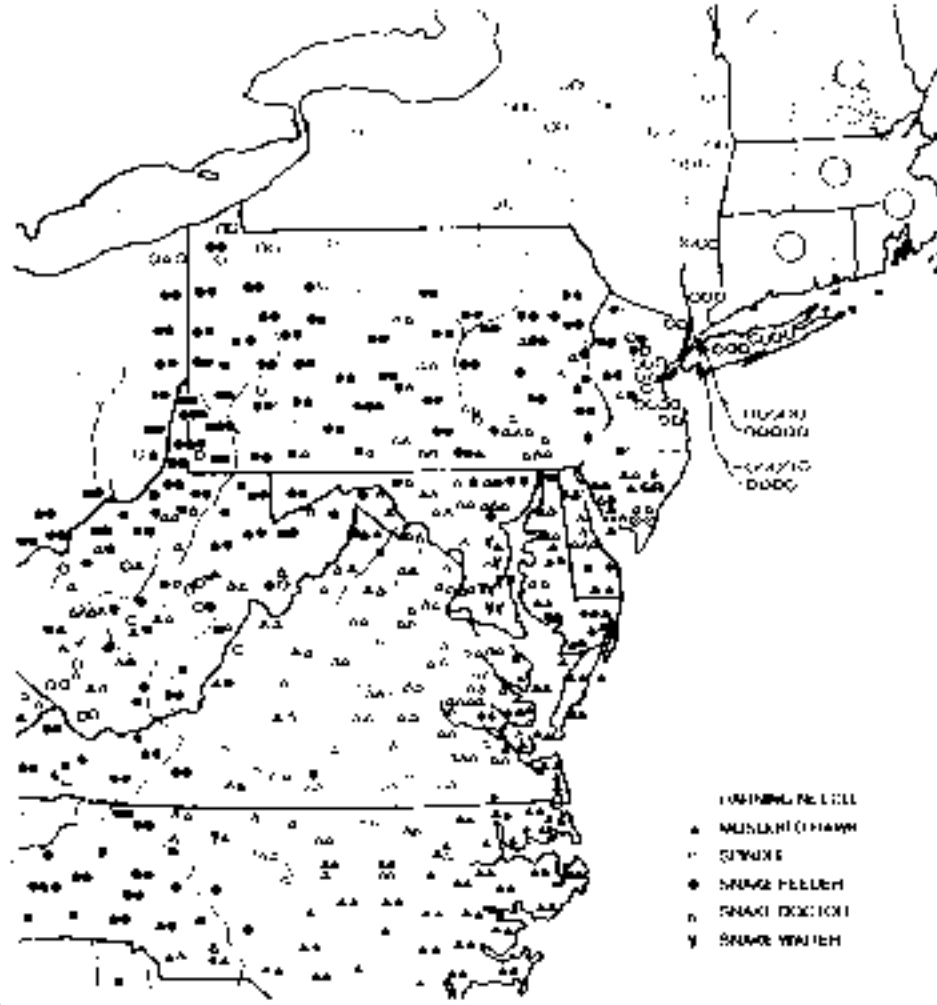
الكلمات الدالة على "فتاة" بإنجلترا

Maiden فتاة بكر	Lass صببية
Girl بنت	Wench فتاة أو خادمة
Carlisle كارليسيل	Newcastle نيوكاسيل
durham دارهام	Sunderland سندرلاند
Lancaster لانكستر	Middlesborough ميدلبورو

Blackburn بلاكبيرن	Bradford برايفورد
chester شيشستر	Manchester مانشستر
york يورك	Stoke ستوك
hull هَلْ	Leeds ليدس
Sheffield شيفيلد	Scunthorpe سكثثورب
Lincoln لينكولن	Grimsby جريمسبي
grantham جرانثام	Nottingham نوتينجهام
wolverhampton ولفرهامبتون	Darby ديربي
Birmingham برمنجهام	Walsall ولسال
Hereford هيرفورد	Northampton نورثامبتون
Leicester ليسستر	Gloucester جلوسستر
Norwich النرويچ	Peterborough بيتربورو
Bedford بدفورد	Cambridge كامبريدج
oxford أكسفورد	Ipswich إيسوش
Bristol بريستول	London لندن
Bournemouth بورتموث	Salisbury ساليسبري
Plymouth بلايموث	Exeter إكسيتر
Southampton ثوزامبتون	Truro ترورو
dover دوفر	Brighton بريتون
	Portsmouth بورتسموث

تعرض الخريطة تفاصيل أكثر بشأن الكلمات الشائعة لكلمة dragonf (يعسوب) (٢٦) المستخدمة في شرق الولايات المتحدة الأمريكية، إنها تبين عشوائية الخطوط الفاصلة بين اللهجات وذلك بخلاف الخريطة (٤-٢).

(٢٦) نياپ فارسي .



شكل (٢-٤)

الكلمات الدالة على "اليعسوب" في شرق الولايات المتحدة الأمريكية

Snake Feeder ●

Snake Doctor ▾

Snake Waiter ▼

Darining Needle ○

Mosquito Hawk ▲

Spindle ⊗

جدير بالذكر أنه نتيجة للجهود التي قام بها جغرافيو اللهجات تسنى لنا معرفة اللهجات المكائنية للغة الإنجليزية وغيرها من اللغات، أما الأنواع الأخرى للتنوعات فلم تسترع الانتباه في الأوقات المبكرة، في أغلب أوقات قرننا الحالي تم تجاهل التنوعات بدرجة كبيرة في إطار المجتمعات الواحدة، ففي أفضل الأحوال اعتبرت تلك التنوعات غير منسقة بدرجة تجعلها قابلة للدراسة أما في الأحوال السيئة أصبحت مستبعدة باعتبارها سطحية، وغير مهمة، بل ومزعجة، بالرغم من ذلك حول العلماء الاجتماعيين للغة - دارسو العلاقة بين اللغة والمجتمع - في عام ١٩٦٠ انتباههم لتلك التنوعات وبدأوا في غضون سنين قليلة التوصل إلى نتائج مذهلة.

اختصت بعض اكتشافاتهم المذهلة بالطريقة التي يختلف وفقها المتحدثون من مقطع إلى آخر، لتأخذ مثلا الشكل "ing" - في كلمة "going" (ذهاب)، نجد أن أغلب متحدثي الإنجليزية لديهم طريقتان لتطق هذا الشكل : طريقة تطابق كتابته وأخرى تطابق الكتابة "goin" أي بدون الحرف "g"، فتجد أن متحدثا ما يستخدم إحدى طريقتي النطق في حين والطريقة الأخرى في حين آخر بلا ضابط لذلك الاستخدام، لذا اعتبر هذا النوع من التنوع الحر منذ وقت بعيد غير مجد للدراسة، بالرغم من ذلك قام اللغوي الاجتماعي البريطاني بيتر ترودجيل بدراسة هذين الشكلين "going" ، "goin" بمدينة النرويج الإنجليزية في عام ١٩٧٠ وأتبع في ذلك اتجاها جديدا كان اللغوي الأمريكي ويليم لابون قد اخترعه قبل محاولته تلك بسنين قليلة والذي يسمى بالاتجاه الكمي، كل ما فعله ترودجيل هو :

١- قام بجمع عدد من متحدثي اللغة النرويجية ذوي الخلفيات المتنوعة.

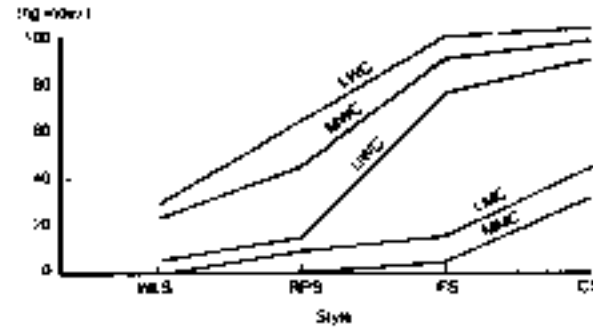
٢- قام بوضع كل متحدث في أحد أنماط أربعة :

(أ) "casual speech" الكلام العادي (CS) : وهو الحديث المعتاد غير الرسمي.

(ب) "formal speech" الكلام الرسمي (FS) : وهو الكلام المنمق المستخدم في المقابلات الرسمية.

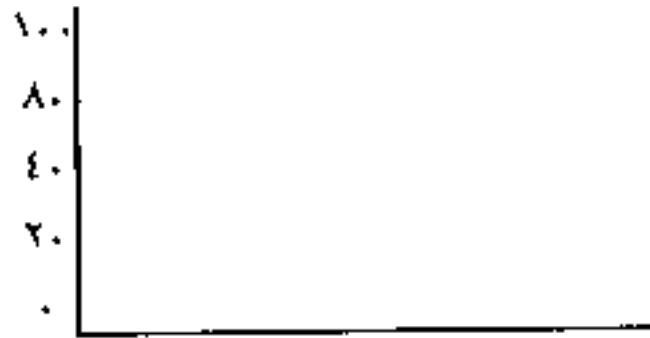
(ت) "reading - passage speech" حديث القراءة (RPS) : الكلام الذي يستخدمه صاحبه عند القراءة من نص مكتوب بصوت مرتفع.

	WLS	RPS	FS	CS
MMC	0	0	3	26
LMC	0	10	15	42
UWC	5	15	74	87
MWC	23	44	88	95
LWC	29	66	98	100



شكل (٢-٤)

معدلات استخدام الشكل - in بمدينة الترويج الإنجليزية مقياس (ng)



الكلام العادي / الكلام الرسمي / حديث القراءة / الكلام المتسلسل

الطبقة المتوسطة (MMC)	الطبقة المتوسطة المنخفضة (LMC)	الطبقة العاملة العليا (UWC)	الطبقة العاملة المتوسطة (MWC)	الطبقة العاملة المنخفضة (LWC)
0	0	0	0	0
0	0	0	0	0
5	5	5	5	5
23	23	23	23	23
29	29	29	29	29

ماذا ؟ وظيفة من وظائف اللغة ؟ أليست وظيفة اللغة هي التواصل ؟ مرة أخرى نجيب بالإثبات على هذا السؤال، إن كل فرد في حاجة إلى الحفاظ على الهوية الخاصة به، أحد الجوانب الهامة لتلك الهوية هي المشاركة في الجماعات واللغة هي التي توفر السبيل القوي للحفاظ والثبات على المشاركة في الجماعة، لا شك أن السبب سالف الذكر ينتمي إلى جماعة تتكون من أسرة وأصدقاء يشاركونه الخبرات والاهتمامات والظروف والقيم، وحتى يظل فرداً في تلك المجموعة فلزاماً عليه أن يتحدث حديثهم، لهذا لا يهم أن يكون هذا الحديث ذا مكانة مرتفعة أو منخفضة بل يكون المهم هو الحديث بالطريقة التي يتحدث بها الآخرون لأن فعل ذلك يحمل رسالة صريحة تقول 'إنني أعتبر نفسي فرداً في جماعتكم'.

لذلك عندما يحاول السبب تغيير كلامه عمداً يكون قد أفصح عن شيء بوضوح وهو 'لم أعد واحداً من جماعتكم'، وهو إذا أصر على موقفه ذلك سيعي الآخرون الرسالة وسيجد نفسه خارجاً عن الجماعة، لأجل ذلك تعد اللغة أداة بالغة القوة للإعلان عن هوية شخص ما والحفاظ عليها وليس هناك سبب يمكن من خلاله القول بأن تلك الوظيفة تقل أهمية عند معظم الناس من وظيفة توصيل المعلومات، إننا نجد اللغويين يطلقون مصطلح "المكانة الخفية" على الأشكال اللغوية التي تقل مكانتها بالنسبة للمجتمع ككل بينما تتعاضد أهميتها في الحفاظ على مكانة المتحدث ما داخل جماعة اجتماعية معينة.

يحدث أحياناً أن يبدأ المتحدث في تغيير طريقة كلامه فكاتبنا يقول : 'عدد ليس بالقليل من زملائنا الجامعيين نشأوا وهم يتحدثون لهجة مكانية أو اجتماعية أقل مكانة ثم قضوا سنوات في اكتساب ذلك النوع من الإنجليزية الخاص بالطبقة الوسطى والذي يعد مناسباً للحياة الأكاديمية، وكنت واحداً منهم، بالطبع قام كل واحد منا بنشر نفس الرسالة التي قال بها السبب : إننا لا نعتبر أنفسنا جزءاً من الدائرة الاجتماعية التي نشأنا فيها، بل إننا نرغب في إعلان شيء وهو أننا نعتبر أنفسنا جزءاً من مجموعة مختلفة تماماً وهي جماعة العمل الأكاديمي'.

اللغة والنوع والجنس :

يعد التقسيم بين الرجال والنساء في مجتمع ما واحداً من أوضاع التقسيمات الاجتماعية، ومما يدعو للدهشة أن هذا التقسيم يتضح بشدة في كلام ذلك المجتمع، بل أكثر من ذلك قد يكون هذا الاختلاف كبيراً في بعض اللغات حتى أن بعض الرجال والنساء يستخدم كل منهم على حدة كلمات مختلفة ونطقاً مختلفاً أو أشكالاً نحوية مختلفة، يحدث ذلك - على سبيل المثال - في اللغة اليابانية حيث نجد اختلافاً بين الرجال والنساء في استخدامهم للكلمات :

النساء	الرجال	المعنى
onaka	hara	معدة
taberu	kuu	يأكل
atashi	boku	أنا
ohiya	mizu	ماء
oishii	umai	لذيذ

بالمثل نجد في لغة "الكوازاتى" - لغة مستخدمة في لوزيانا - كلمات عديدة تختلف نهايتها عند التنقل بين استخدامها فيما بين النساء والرجال، فمثلا تعنى الجملة (ارفع هذا) "lakawhol" في كلام النساء، بينما تعنى "lakawhos" في كلام الرجال.

لا يوجد في اللغة الإنجليزية شيء من هذا القبيل، وإن دلت الأبحاث على أن الرجال والنساء يتحدثون بطرق مختلفة بالفعل في تلك اللغة، فالنساء يقضون معظم أوقاتهم في الحديث عن الملابس والأطفال بينما يتحدث الرجال كثيرا عن السيارات والرياضات، فيما يلي بعض هذه الاختلافات التي تظهر في كلام النساء والرجال، لاحظ أن بعض هذه الاختلافات لا تزال محل نقاش :

١ - تستخدم النساء بصفة دائمة عدداً من المصطلحات الدالة على الإعجاب والتي نادراً ما يستخدمها الرجال، مثل بديع - ظريف - فائق - مبهج، وغيرها.

٢ - يقال إن النساء يفلحن في إظهار تفرقة واضحة في مجالات معينة أكثر من الرجال ومنها المصطلحات الدالة على الألوان، فنحن نراهن يستخدمون بكثرة مصطلحات مثل اللون الأخضر المائل إلى الصفرة، اللون القرمزي، اللون البيع.

(ث) "word - list speech" الكلام بالتسلسل (WLS) : عندما يقرأ الشخص قائمة من الكلمات بطريقة تسلسلية.

٣- قام بتسجيل كل المواضع التي ينطق فيها الأشخاص الشكين. 'goin', going.

٤ - قام بتعيين كل شخص - مستخدماً فئة ذاتية - في واحد من خمس طبقات :

"the lower working class" (LWC) الطبقة العاملة المنخفضة.

"the middle working class" (MWC) الطبقة العاملة المتوسطة.

"the upper working class" (UWC) الطبقة العاملة العليا.

"the lower middle class" (LMC) الطبقة المتوسطة المنخفضة.

"the middle class" (MMC) الطبقة المتوسطة.

٥- قام بحساب متوسط عدد المرات التي يُنطق بها الشكل "goin" عند كل فرد من الأفراد الخمس في كل من المواقف الأربعة، وحول هذا الرقم إلى نسبة مئوية.

أطلق "ترودجيل" على تلك النسبة اسم مقياس (ng)، كلما ارتفع هذا المقياس دل ذلك على ازدياد استخدام الشكل "goin" وقلة استخدام الشكل "going"، يعرض الشكل (٣-٤) ما توصل إليه "ترودجيل" من نتائج في شكل جدول رقمي ورسم بياني.

لاحظ النتائج غير المتوقعة التي جاء بها "ترودجيل" : تستخدم كل مجموعة من المتحدثين ، بل كل فرد كلا النوعين من النطق في أغلب المواقف أو كلها ، ولكن من ناحية أخرى يلجأ كل فرد إلى استخدام الشكل in- بنسبة أكبر كلما أصبح الموقف غير رسمي ، ويدل على ذلك ارتفاع الرسم البياني لكل مجموعة ، كما يستخدم الفرد المنتمي إلى جماعة منخفضة المكانة الشكل in- بنسبة أكبر مما يستخدمها الشخص المنتمي إلى جماعة مرتفعة المكانة ، ويدل على ذلك عدم إمكانية تقاطع خطوط الرسم البياني .

تتجلى تلك النتائج عندما تتم دراسة التنوع من وجهة كمية أو إحصائية ، فمن الصعوبة بمكان التوقع بنوع الشكل الذي سيستخدمه المتحدث في موقف ما ، ولكن من الناحية الإحصائية يكون سلوك المتحدث ثابتاً بدرجة ملحوظة ، علاوة على ذلك يمكننا - في حالة دراسة الرسم البياني - الجزم بأن نطق الشكل ing- يدل على ارتفاع المكانة الاجتماعية أكثر من الشكل in- ، فكل متحدث يتجه نحو الشكل ing- كلما أصبح الموقف أكثر رسمية، وتستخدم الجماعات ذات المكانة الاجتماعية المرتفعة ذلك الشكل أكثر من الجماعات المنخفضة المكانة .

يطلق على ما تقدم "الطبقة الاجتماعية"، توصل العلماء الاجتماعيون اللغة إلى نفس النتائج في مجتمعات شتى بمختلف أنحاء العالم وبخاصة تلك التي تشتمل على أعداد هائلة من المتوعات اللغوية ، يبدو جلياً من تلك النتائج أن الأشكال اللغوية المتصارعة من أجل البقاء لها غالباً أهمية اجتماعية يعرفها المتحدثون جيداً ، يؤدي هذا الاستنتاج النهائي إلى لغز جديد .

اللغة والهوية :

إذا كان المتحدثون يعرفون بحق الأهمية الاجتماعية للأشكال المتنافسة مما يجعلهم يستخدمون في أغلب الأحيان الأشكال اللانقة ويتجهون إليها بقوة في مواقف معينة ، فلماذا لا يترك هؤلاء المتحدثون أو حتى معظمهم الأشكال الأقل لياقة ويتحولون إلى الأشكال الأكثر لياقة فقط ؟ لماذا يتمسك شخص ما باستخدام الأشكال التي يعي جيداً أنها أقل لياقة ؟ يضاف إلى السؤال المزيد من الغاطية عندما ندرك أن المتحدثين من الطبقة العاملة يصفون كلامهم بأنه "إنجليزية ليست جيدة" ويصرحون مراراً بإعجابهم بكلام الطبقة المتوسطة .

إن الطريقة البسيطة لإجابة هذا السؤال هي النظر إلى المثال الافتراضي الآتي : تخيل أن سباكا أو ميكانيكيا يقطن بلندن ويتحدث الإنجليزية الخاصة بالطبقة العاملة في منطقته، افترض أنه نتيجة لاستيائه من كلامه وتأثره بكلام الطبقة الوسطى مما يسمعه بالتليفزيون أو من زبائنه الذين يفتقون عليه بالأجر الكبير، قرر محاولة ترك كلامه الذي اعتاده من أجل التقرب إلى كلام الطبقة الوسطى، ماذا ستكون النتيجة ؟ هل سيتقبل أصدقاؤه وعائلته الأمر بصدر رحب ؟ هل سيعجبون بكلامه اللائق، بل يحاولون تقليده ؟ بالطبع لا، بل بالعكس سيهزعون من جهوده لثوان قليلة ثم لا يلبثوا أن يسأموا ويتنصوا عنه جانبا بل ربما يظهرن تجاهه العداء بسبب ذلك، لذا سيجد ذلك السباك أو الميكانيكي الطموح نفسه بدون أصدقاء ولكن لماذا ؟ أليس من حق كل فرد التمتع بمكانة لانقة ؟

لا ليس كذلك، فنحن عند حديثنا بلباقة عن "الأشكال ذات المكانة" تغاضينا عن شيء غاية في الأهمية - شيء ذي علاقة بوحدة من الوظائف الحيوية للغة.

٣ - يقال إن الرجال يسبون أكثر من النساء، ربما كان يحدث ذلك بالجيل السابق وإن قلت قليل من التعبيرات القظة مستخدمة من قبل الرجال بصفة أساسية.

٤ - يقال إن النساء يستخدمن الأسئلة المذيلة بكثرة عن الرجال فهم كثيرا ما يقولن أشياء مثل : إنها ظريفة أليس كذلك ؟ وكثتهن يبحثن عن التأكيد (تباين الآراء في هذا الافتراض بصفة خاصة) .

٥ - يقاطع الرجال في الحديث أكثر من النساء، يأتي هذا الافتراض مفاجأة للرجال والذين يؤمنون بعكسه تماما ولكن الأبحاث المكثفة أثبتت صدق ما نقول بما لا يدع مجالاً للشك.

٦ - كثيرا ما يدير النساء الحديث بطريقة صبيانية.

٧ - بصفة عامة، يعد كلام النساء تعاوئي بينما كلام الرجال تنافسي، لأن النساء عند الحديث دائما ما يتعاطفن مع بعضهن بعضا كما أنهن يسائدن ويشين على إسهامات الآخرين، يحاول الرجال - على العكس - التغلب على بعضهم البعض وإظهار التقدم والتفوق على الآخرين من خلال ما يقولونه.

٨ - يكثر النساء المنتميات إلى جماعة اجتماعية واحدة من استخدام الأشكال ذات المكانة الظاهرة، كما يملن إلى الإشادة بأنهن يستخدمن الأشكال ذات المكانة المرتفعة كثيرا حتى وإن كان هذا غير صحيح، على العكس يستخدم الرجال أشكالا لائقة بأعداد أقل ويتحدثون كثيرا عن استخدامهم لأشكال أقل مكانة مما يستخدمون.

يشير أنصار النساء غالبا إلى تلك الاختلافات كدليل على دور النساء الثانوي في المجتمع، من المتوقع أن تكون أفعالهن لائقة بوصفهن سيدات، وأن يذعن لقرارات الرجال، وأن يسعين للحصول على موافقة الرجال قبل الشروع في فعل أي شيء، وأن يقصرن أحاديثهن على موضوعات تافهة في رأي الرجال، مما لا شك فيه أن أنصار النساء محقون في آرائهم تلك ولكن بعضهم رفضوها وهاجموا بشدة ما يرونه انحياز اللغة الإنجليزية إلى الرجال، ما معنى ذلك ؟

ربما تنامي إلى عنك من قبل أن الجامعات - بخلاف وقت الدراسة - تقوم بتوفير بعض الخدمات مثل عقد المنتقيات وذلك من أجل تحقيق ربح إضافي، لاحظ منظمو تلك المنتقيات - بالجامعة التي كان يعمل بها مؤلف الكتاب - منذ سنوات مضت

تزامن ملتقى البحارة والمرضات، انتهازا لتلك الفرصة قام المنظمون بإقامة حفل راقص، ولكن اتضح لهم بعد ذلك أن المرضات رجال.

لم يخطر لأولئك المنظمون أن المرضات ليسوا نساء بل رجالا، فمهنة التمريض من أكثر المهن التي يظهر بها اختلاف النوع بصورة جلية، جرت العادة أن يكون البحارة والأطباء وسائقى السيارات الأجرة والقضاة من الرجال، فى حين حُصصت مهن مثل التمريض وعرض الأزياء ومرافقة الأطفال والسكرتارية والدعارة للنساء، سادت تلك التوقعات منذ فترة ليست بقليلة ولكن بمرور الوقت أصبح من النادر اقتصار بعض المهن على أحد الجنسين فقط، فأصبحنا نسمع عن رجال يمتهنون مهنة التمريض، لكن المشكلة الحقيقية من وجهة نظر النقاد هى تواجد مصطلحات دالة على التفرقة الجنسية مثل "chairman" (رئيس)، "postman" (رجل البريد)، "fireman" (رجل المطافئ) من ناحية، و"cleaning lady" (الخادمة)، "tea lady" (المُضيفة) من ناحية أخرى، لذا أدى التذمر على استخدام مثل هذه المصطلحات إلى استبدالها بأخرى بل تفضيل الجديد على القديم مثل "cleaner" (من يقوم بالتنظيف)، "firefighter" (مكافح الحرائق) وهى كلمة جديدة مبتكرة، كما أصبح لكل قسم بالجامعة "chair" (رئيس) وليس "chairman" (رئيس) أو "chairwoman" (رئيسة).

على الرغم من ذلك يصعب استبدال بعض المصطلحات بأخرى، فمثلا لا يوجد بديل يستخدم على نطاق واسع للكلمة "postman" (رجل البريد)، هل "postperson" أم "postie" أم "post delivery person" ؟ (كلها تعنى من يقوم بتسليم البريد)، الأصعب من ذلك مصطلحات مثل "manhole" (فتحة الدخول)، "man-eating" (القرش أو أكل البشر)، "to man" (إلى فلان)، بل الأدهى من ذلك وتلك استخدام الكلمة الجامعة غير المعرفة "man" لتعنى إنسان وذلك فى جمل مثل "Man first reached the Americas 13,000 years ago" (اكتشف الإنسان الأمريكتين منذ ١٣,٠٠٠ عام)، رضخت النساء لتلك الاستخدامات لقرون عدة ولكن يبدو أننا الآن نخطو حثيثا نحو تنقية اللغة من مثل هذه الاستخدامات الجنسية.

إلى أى مدى يمكننا الذهاب فى هذا الأمر ؟ لابد أنك لاحظت الاستخدام المتكرر لكلمات لا تقى بالقرض مثل "his" و "her" (للدلالة على الملكية) فى جمل مثل "Why should anyone persist in using forms which he or she recognize as being of low prestige ?" (لماذا يصر أى شخص على استخدام أشكال يراها هو أو هى ذات

مكانة منخفضة؟) إن الاختيار ما بين أحد هذين الضميرين أمر ليس بواضح، إذن فعازًا بوسعنا أن نفعل؟ ذهب بعض الناس مذهبًا بعيدًا عندما قاموا بتقديم ضمير جديد غير دال على الجنس مثل "herm" (خليط من her و him)، لكن عدد قليل جدا أظهر الحماس تجاه تلك التجديدات الصارخة، كما لم يظهر بديل لها في الوقت الحالى.

الحياة باستخدام لغتين :

إن استخدام مجتمعات أو أشخاص بعينهم للغتين أو أكثر فى سياق الحياة اليومية واحد من أقصى ما يمكن قوله عن التنوعات، يشتهر متحدثو اللغة الإنجليزية بإخفاقهم فى تعلم اللغات الأخرى فى الوقت الذى تستخدم نسبة كبيرة من سكان الأرض أكثر من لغة بصفة منتظمة كل يوم، اعتاد الناس فى جنوة الجديدة وغاية الأمازون المطيرة - حيث تستخدم لغات عدة فى مناطق محدودة المساحة - تعلم لغتين أو ثلاثة من لغات المناطق المجاورة له بالإضافة إلى لغتهم الخاصة وحدث ذلك أيضا فى أستراليا قبل أن يطيح الاستعمار الأوروبى بثقافتهم، كما يستخدم الملايين من الناس فى أوروبا أكثر من لغة برغم تواجد النول المركزية الكبيرة المساحة صاحبة الأساس القوى والتي يفترض أن تكون لها لغاتها المستقلة.

لا يتوقع أى شخص غريب عن نطاق أى بلد ما سبق ذكره، فإننا نتوقع مثلا أن يتحدث الناس بالفرنسية فى فرنسا، وبالطبع يحدث ذلك بالنسبة لمعظم الأشخاص البالغين، ولكن يتحدث الملايين من الفرنسيين الألمانية والبريتانية^(٢٧) والباسكية والأوكياتانية^(٢٨) والكاتالانية^(٢٩) والكورسيكية كلغة أولى بدلا من الفرنسية، لقد ظلت ويلز جزءا من بريطانيا ما يقرب من ألف عام بينما يتحدث نصف مليون فرد فى شمالها وغربها اللغة الويلزية كلغة أولى ويبدعون فى تعلم الإنجليزية بعد الالتحاق بالمدرسة، أى إنهم يتحدثون الويلزية بالمنزل مع عائلاتهم وأصدقائهم بينما يتحدثون الإنجليزية مع الغرباء.

كان كل سكان ويلز منذ عدة قرون يتحدثون اللغة الويلزية، ولكن لغتهم بدأت فى فقدان مكانتها نظرا لما للغة الإنجليزية من تأثير قوى، فهى اللغة الرئيسية للمملكة

(٢٧) لغة مستخدمة فى شمالى غرب فرنسا .

(٢٨) لغة مستخدمة فى جنوب فرنسا .

(٢٩) لغة مستخدمة فى شرق شمال شرق شبه جزيرة سيبيريا .

المتحدة، يتمثل هذا التأثير في عدة عوامل أولها إدراك الويلزيون منذ زمن بعيد أن معرفة اللغة الإنجليزية سيعطيهم العديد من الفرص خارج ويلز، وثانيها اضطهاد السلطات البريطانية للغة الويلزية من حين لآخر، فقد رأينا منذ سنوات ليست بالبعيدة أن تلاميذ المدارس يعاقبون من جرم حديثهم باللغة الويلزية داخل المدرسة، لاشك أن الكثير من متحدثي اللغة الويلزية قد تضجروا من جراء ما يعتبرونه محو تدريجي للغتهم وثقافتهم من جراء انتشار اللغة الإنجليزية كما أن بعضهم بدأ في التصرف بقوة تبدأ من رفضهم للكلام باللغة الإنجليزية مطلقاً وتنتهي بالهجوم على المنازل التي يمتلكها متحدثو اللغة الإنجليزية وحرقتها، تمس تلك القضية الجانب الاقتصادي، فالأثرياء من ساكني لندن يتخذون من الأكواخ بشمال ويلز بيوتا يقضون فيها أجازاتهم مما سبب في ارتفاع أسعار المساكن لدرجة جعلت ساكني المنطقة الأصليين غير قادرين على مجاراتها، إن هذه القضية قضية هوية من الدرجة الأولى، فكما رأينا من قبل أن حديث أي شخص هو الدليل الواضح على هويته الشخصية في كل مكان بما في ذلك ويلز، لذلك شعر سكان ويلز بحجم الخطر الذي يواجهونه والذي يتمثل في فقدان هويتهم كرجال ونساء من ويلز وتحويلهم إلى مجرد مجهولين أو لنقل غرباء يتحدثون الإنجليزية على هامش العالم الإنجليزي.

يطلق على اللغة الويلزية لغة القلة، وقد نجد هذا المصطلح غربياً قليلاً حيث أن متحدثي تلك اللغة يمثلون أغلبية في كثير من أنحاء ويلز بينما يعدون قلة بالنسبة لبريطانيا ككل، انتهجت بريطانيا مؤخراً - شأنها في ذلك شأن بلدان أوروبية أخرى - سياسة أكثر تنويراً تجاه تلك اللغات المسماة بلغات القلة الموجودة بها، فلم تعد اللغة الويلزية مضطهدة على الملأ، كما تم تشجيع التعلم والنشر والنث الإعلامي باللغة الويلزية، بالإضافة إلى ذلك أصبحت الوثائق الرسمية ثنائية اللغة، وحتى المرافعات القانونية أصبح من الممكن إلقاؤها باللغة الويلزية، لكن برغم كل ما تقدم يبقى لنا أن نعرف هل كل هذه الإجراءات كافية بأن تنقذ اللغة الويلزية من الضغط الواقع عليها باستمرار من جارتها ذات المكانة الأعظم في العالم أجمع - اللغة الإنجليزية؟

من الغريب أن ترى أفراد أعظم نول العالم المتحدة بالإنجليزية - الولايات المتحدة الأمريكية - قد أصبحوا في الآونة الأخيرة قلقين على مستقبل لغتهم حيث نجد مئات من اللغات الأهلية بالولايات المتحدة الأمريكية قد اختفت أو أصبحت أقل أهمية

من جراء انتشار اللغة الإنجليزية، تدفق المهاجرون على الولايات المتحدة الأمريكية - على مدار تاريخها - من كل أنحاء العالم، ففي أوقات مختلفة استقرت أعداد كبيرة من متحدثي الألمانية والإيطالية والمجرية والروسية والصينية والفيتنامية وغيرهم بأمريكا، كُتبت لهذه اللغات المهاجرة الحياة لبعض الوقت ولأجيال عدة وفي مجتمعات بعينها، ولكن في أغلب الأحيان كان أطفال المهاجرين سرعان ما ينتقلون إلى اللغة الإنجليزية وهي عملية يطلق عليها الأمريكيون "الإناء المذيب"، لكن في العقدين الأخيرين ازداد عدد المهاجرين المتحدثين للغة الإسبانية ازديادا ملحوظا، الذين جاؤا إلى الولايات المتحدة الأمريكية من المكسيك وبيروتوريكو وكوبا وسائر أنحاء أمريكا اللاتينية، مما جعل اللغة الإسبانية تُستخدم في أجزاء كبيرة من نيويورك وفلوريدا وجنوب غرب الولايات المتحدة الأمريكية حيث أصبحت اللغة الأولى في مناحي عدة مثل التعليم والصحة والسياسة العامة.

كان رد فعل العديد من الأمريكيين المتحدثين للإنجليزية تجاه ذلك الانتشار الحاد للغة الإسبانية عنيفا، حيث أصدرت حكومات العديد من الولايات قوانين تعلن اللغة الإنجليزية لغة رسمية، كما ازداد الضغط الواقع على واشنطن حتى تنتهج نفس السياسة على مستوى البلاد (مما يدعو للدهشة أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تمتلك لغة رسمية خاصة بها).

سؤالا الآن هو : هل هناك داع لتلك القوانين ؟ في اعتقادنا أنه لا داع إليها على الإطلاق وذلك لأسباب عدة:

أولاً : مكانة اللغة الإنجليزية على مستوى العالم أجمع وليس بالولايات المتحدة الأمريكية فقط، والتي لا تسمح بأي نوع من الهجوم عليها، إنها لغة الأعمال والتكنولوجيا، والاتصالات، والعلوم، والثقافة العامة.

ثانياً : إذا قُدر للإسبانية أن تحتل مكانة اللغة الإنجليزية بالولايات المتحدة الأمريكية، فإن إصدار القوانين في ذلك الشأن لن يكون مجديا، إنها ستشبه إصدار قوانين ضد التضخم الاقتصادي أو الموت بسبب الأمراض المعدية.

أخيرا: ماذا لو خضعت الإنجليزية للإسبانية ؟ إن الإسبانية لغة ثرية ومعبرة، كما لا ينبغي للغة الإنجليزية - مثلها في ذلك مثل اللاتينية والفرنسية - أن تطمح في احتلال المكانة الأولى على الدوام.

الفصل الخامس

تغيير اللغة

تأمل الفقرة التالية :

And héo cende hire frum-cennedan sunu, and hine mid cild-clāpum bewand, and hine on binne ālegde for pām pe hie næfdon rīm on cumena hūs .
And hierdas wæron on pīm ilcan næce waciende , and niht - wæccan heal-
dande ofer heora heorda. Pi stōd Dryhtnes engel wip hāe and Godes beorht-
nes him ymbscān : and hie him micelum ege adrēdon.

هل يمكنك الخروج منها بمعنى ؟ إنك على الأرجح لن تستطيع استيعاب الكثير من معناها إلا في حالة معرفتك باللغة المكتوبة بها هذه القطعة، بل حصولك على تدريب متخصص بها، ربما يخدعك تكرار كلمة "and" (و)، ولكن بخلاف ذلك تبدو الفقرة مبهمة تماما.

هل بإمكانك تخمين اللغة التي تنتمي لها الفقرة ؟ هل هي الهولندية ؟ السويدية ؟ الأيسلندية ؟ أم لغة أخرى تفوق أولئك غرابة ؟

كُتبت هذه الفقرة باللغة الإنجليزية، بالطبع ليست الإنجليزية التي نستخدمها في وقتنا الحالي ولكنها إنجليزية على أية حال.

كتب هذه الفقرة متحدث للإنجليزية بجنوب غرب إنجلترا منذ ما يقرب من ألف عام، فقد كُتبت بذلك النوع من الإنجليزية التي تحدثها الناس في ذلك الوقت والتي يطلق عليها الإنجليزية القديمة أو الأنجلوسكسونية^(٢٠)، تبدو لنا هذه اللغة غريبة حقا، فقد يتسنى لك فهم بعض كلماتها الغريبة ولكن تبقى تلك اللغة في المقام الأول غريبة وغير مألوفة لنا مثلها في ذلك مثل اللغة الهولندية الحديثة.

(٢٠) لغة سكان إنجلترا الجرمان قبل الفتح النورمانى عام ١٠٦٦ .

لكن هذه اللغة ليست اللغة الهولندية، إنها الإنجليزية التي علمها من يتحدثونها لأطفالهم والذين علموها أيضا لأطفالهم، الذين علموها بدورهم لأطفالهم... وهكذا حتى وصولها لنا فيما بعد على مدار أربعين جيلا، وكان وصولها لنا مفايرا تماما، فأصبح من الصعب علينا فهمها نون دراسة متخصصة، ؟ إذن، ماذا حدث ؟

إجابة هذه السؤال باختصار تكمن في أن اللغة الإنجليزية قد تغيرت، فاختلفت العديد من الكلمات الإنجليزية الصعبة وحلت محلها كلمات جديدة، في حين أن بعض الكلمات الأخرى بقيت مع حدوث تغيير كبير إما في أشكالها أو معانيها بحيث أصبح من العسير التعرف عليها، كما أن البنية النحوية للغة قد تغيرت بدرجة كبيرة وتغير النطق فجأة أيضا وتغير معه الهجاء بصورة واضحة.

لا تعد الإنجليزية استثناء في ذلك، فكل لغة يتحدثها البشر تتغير بصورة ثابتة، لذا فإن الدرس الهام الذي يمكننا استخلاصه من كتابنا هذا هو : اللغات في تغير مستمر.

سوف نيرز في هذا الفصل بعض الوسائل التي تتغير بواسطتها اللغة، ونمعن النظر في الأسباب المحدثة للتغير، ونبحث النتائج المترتبة على ذلك التغير، بادئ ذي بدء دعونا ننظر بامعان إلى تلك الفقرة الإنجليزية القديمة.

اللغة الإنجليزية منذ ألف عام :

بدا بنول جملة بالفقرة نجد كلمة "and" المألوفة لدينا بالرغم من تغير نطقها إلا أن الهجاء لا يظهر ذلك التغير، يصعب الأمر عندما نأتي لكلمة "hēo" والتي تعنى (هى)، وهى تتكون من الكلمة "he" (هو) مضافا إليها النهاية الإنجليزية القديمة "o" الدالة على المؤنث، بقيت هذه الكلمة حتى وقت قريب في الشمال الغربى لإنجلترا على الشكل "hēoo"، ثم استبدلت بكلمة جديدة وهى "she" (هى) والتي ربما يرجع أصلها إلى الكلمة الإنجليزية القديمة "sēo" والتي تعنى "that one" (هذا الشيء) ويكون الشيء المشار إليه مؤنثا، تعنى الكلمة "cende" (تلد) وهى التصريف الماضى للفعل "cennan"، وقد اختلف هذا الفعل تماما من اللغة ولكن على الأقل يمكنك التعرف على النهاية -de التي تشبه مثيلاتها في الأفعال الماضية "loved" (أحب) و "walked" (سار)، تبدو الكلمة "hire" أكثر وضوحا وتعنى "her" (ملكها)، بينما تبدو الكلمة "frum-cennedan"

أكثر صعوبة، فالجزء الثاني منها يعنى (مولود) وهو شكل آخر مشتق من الفعل "cennan، أما الكلمة "trum" التي تعنى (أولا) لم يعد لها وجود الآن، من ناحية أخرى، تبدو الكلمة "sunu" بسيطة وتعنى "son" (ابن) وهي ملحقة بنهاية نحوية اندثرت منذ زمن بعيد.

تعنى - "hine" على غير المتوقع - "him" (له)، بينما تعنى "mid" "with" (بين) وقد اختلفت من اللغة هي الأخرى باستثناء وجودها بالكلمة المركبية "midwife" (القابلة) والتي تعنى حرفياً (مع السيدة)، بإمكانك استنتاج أن "cild-clāpum" تعنى (ملابس الطفل) بالرغم من تغير الهجاء والنطق، كان يطلق على الحرف "p" "شوكة" وقد استخدم في الإنجليزية القديمة ليبدل على الصوت "th" الذي نستخدمه الآن، أما الفعل "bewand" فيعنى "wound" (جرح) مضافاً إليه السابقة "be" التي اختلفت في الوقت الحالى، كما اختلفى معها الفعل "bewind"، تعد الكلمة "on" (على) مألوفاً لدينا وإن كان من الأجدر في هذا السياق استخدام "in" بدلا منها، أما الكلمة "binne" فتمثل الكلمة الحديثة "bin" (وعاء) ملحقا بها نهاية أخرى، يعنى الفعل "ald" "álegde" (أرقد) مضافاً إليه سابقة لم يعد لها وجود، كما قربه هجاؤه من النطق الحديث.

تعنى العبارة "pām pe" - التي تعنى حرفياً "for that that" (لذلك) - "because" (لأن) أى أن تلك العبارة تماثل كلمة واحدة لم يكن لها وجود باللغة الإنجليزية القديمة، أما الضمير "hie" فيعنى "they" (هم)، نلاحظ العلاقة بين تلك الكلمة وبين الضمير "he" (هو)، وقد اختلفت هذه الكلمة أيضاً إلا من الشكل "hem" ويعنى "them" (لهم) الذي لا يزال يستخدم بالشكل "em" في التعبيرات المكتوبة مثل "Give 'em my regards" (بلغهم تحياتي)، لم تتواجد الأشكال الجديدة مثل "they" (هم) و "them" (لهم) بالإنجليزية القديمة بل تم استعارتها من اللغة الترويجية القديمة - وهي لغة الفايكنج^(٣١) - بعد هزيمتهم لإنجلترا واستيطانهم بها وذلك في وقت ليس ببعيد عن كتابة فقرتنا موضوع النقاش، أما التركيب الغريب "naefdon" فيعنى "they" "didn't have" (لا يمتلكون) : إنه اختصار للكلمة الناقية "ne" التي تعنى "not" (لا)، والفعل "naefdon" هو التصريف الثانى للفعل "have" (يملك) الذي ما زال قيد

(٣١) الفراصنة الإسكتلنديون .

الاستخدام حتى الآن، نلاحظ أن الشكل "rüm" الذي يعنى "room" (حجرة) لم يطرأ عليه تغير كبير اللهم إلا في التهجئة، تعد الكلمة "cumena" اشتقاقاً من الكلمة "cuma" التي تعنى "guest" (ضيف) وتظهر بها نهاية أخرى.

يتجلى التشابه بين كلمتي "hüs" و "house" (منزل) بالرغم من تغير النطق بشكل كبير (يستثنى من ذلك أجزاء من أسكتلندا حيث لا يزال استخدام نطق شبيه بالنطق القديم قائماً)، بالطبع تساوى العبارة "cumena hüs" "guest house" (ضيف المنزل).

لا بد أنك الآن قد استوعبت الفقرة وأدركت أنها تذكر قصة الميلاد كما وردت في إنجيل القديس لوقا، وكما جاء في ترجمة الملك جيمس^(٣٢) فإنها تكون على النحو التالي :

وأنجبت طفلها الأول ودثرت في قماط وأرقدته في المَزود^(٣٢) فلم يكن لهم مكان بالحانة، كان في نفس البلدة راعياً يعيش في الحقل وهو الذي دأب على حراستهم ليلاً، يا للعجب فقد فاجأهم ملاك الرب وسطع عليهم بهاء الرب ! وكانوا يقاسون خوفاً شديداً.

تعد الفوارق النحوية من أكثر الميزات التي تميز اللغة الإنجليزية القديمة عن مثيلتها الحديثة، قد يتراعى لك اختلاف ترتيب الكلمات في الإنجليزية القديمة وكذلك اختفاء بعض الكلمات مثل أداة التنكير "a" وأداة التعريف "the" في الوقت الذي تكون الحاجة إليهم ملحة في الإنجليزية الحديثة (بدأت تلك الكلمات في الظهور منذ ألف عام فقط)، لكن التميز الواضح يتمثل في العدد الكبير للنهايات النحوية التي تحيويها الإنجليزية القديمة.

إذا سبق لك دراسة اللغة الألمانية الحديثة ستعرف أن هذه اللغة تحتوي كما لا حصر له من النهايات، ومن هنا تتشابه الإنجليزية القديمة معها فهي تشتمل على ثلاثة أجناس نحوية، والعديد من فئات الكلمات، والأفعال، وكذا الكثير من النهايات مثلها مثل اللغة الألمانية، إليك نموذج للتركيب القديم "se lange dæg" "the long day" (اليوم الطويل). لاحظ التغير في الصائت "a" بكلمة "day" (يوم) : يمثل "æ" صائتاً قصيراً

(٣٢) ملف الدابة .

كالذي بكلمة "bat" (خفاش) بينما يمثل "a" صائتا طويلا كالذي بكلمة "bar" (قضيب) :

جمع	مفرد	
Pā langan dagas	Se lange dæg	حالة الرفع
Påra langena daga	Pæs langa dæg	حالة الجر
Pæm langum dagum	Pæm langan dæge	حالة الديثف (المفعول المباشر)
På langan dagas	Pone langan dæg	حالة المفعول غير المباشر

للتركيب "lang dæg" "a long day" (يوم طويل) نهايات مختلفة :

Lange dagas	Lang dæg	حالة الرفع
Langra daga	Langes dæg	حالة الجر
Langum dagum	Langum dæge	حالة الديثف (المفعول المباشر)
Lange dagas	Langne dæg	حالة المفعول غير المباشر

أى أن الصفات تشتمل على مجموعتين مختلفتين من النهايات وفقاً لنوع الكلمة التي تسبقها (إن وجدت)، بالطبع هناك العديد من الأصناف الأخرى للأسماء والتي تأتي معها مجموعة نهايات أخرى بخلاف الكلمة "dæg" (يوم)، هل يرضيك ما تم فعله من حذف لكل هذه التعقيدات ؟ حتى إن لم تكن راضيا فمن المؤكد أن يسعد كل من جليسات الأطفال الإيطاليات ورجال الأعمال الصينيين الذين ينكبون على دراسة اللغة الإنجليزية لأنه كل ما سيكون عليهم فعله هو تعلم معنى مثل "the long day" (اليوم الطويل) فحسب ليكونوا قد حققوا ما يريدونه بعيدا عن تعلم أشياء معقدة مثل "langes, langum, langan"

السؤال الآن هو : كيف تم لنا التخلص من تلك النهايات ؟ وماذا حدث ؟ لم يحدث شيء بعينه لأن اللغة الإنجليزية أخذت في التغير منذ اليوم الذي وصل فيه الإنجل والساكسون بريطانيا أى عام خمسمائة بعد الميلاد، لذا كان من الطبيعي حدوث هذا التغير الهائل بها، يمكن إيجاز هذا التغير في أنه منذ أن أصبحت النهايات النحوية

أكثر تعقيدا مما سبق كانت الفرصة الحقيقية في حدوث أى تغير ليسهل به الأمر كله، لهذا كان التخلص من، بعض النهايات السبب وراء التخلص من نهايات أخرى وتبع ذلك فقدان العديد والعديد من النهايات حتى أصبحنا لا نمتلك سوى تلك الحقنة من النهايات والمتواجدة بكلمات مثل : "dogs, dog" (كلاب، كلب)، "loving, loved, loves" (يحب ويأتى مع الضمائر أنا، أنت، نحن/ يحب ويأتى مع الضمائر هو، هي، غير العاقل/ أحب/ أحب) والبعض الآخر القليل، كانت النتيجة أن أصبحت الإنجليزية هي اللغة المحتوية على أقل عدد من النهايات النحوية لتفوق في ذلك أية لغة أوروبية أخرى، إلا أن عدد هذه النهايات أكبر قليلا من اللغة الصينية التي لا تشتمل على أية نهايات، لكن هذا لا يستلزم الجزم بأن اللغة الإنجليزية من أكثر اللغات التي تشبه اللغة الصينية.

سؤالنا الآن هو هل بإمكاننا التخلص من كل النهايات النحوية بصفة نهائية ؟ ربما يتحقق ذلك ولكن التنبؤ يمثل هذا الأمر مستحيل، لأن اللغة تتغير ولكن هذا التغير لا يمكن توقعه، الممكن توقعه بدلا من ذلك هو استحداث بعض النهايات الجديدة.

يمكن تحقق ما سبق ذكره، فكلنا يعرف أن أجداد الصينيين كان لديهم الكثير من النهايات النحوية وجاء أحفادهم بنورهم وتخلصوا من كل تلك النهايات حتى أنهم الآن لا يمتلكون أية نهايات نحوية تميز بين (الكلب والكلاب) على سبيل المثال، أو (يحب وأحب). من ناحية أخرى تخلصت اللغة الهندية^(٣٣) - اللغة الرئيسية للهند - من كم كبير من نهاياتها النحوية منذ قرون عديدة مضت وقامت باستحداث مجموعة نهايات أخرى جديدة.

يجدر الإشارة قيل أن نترك الإنجليزية القديمة إلى أن الكم الأكبر من النهايات النحوية قد فقد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وقبيل القرن الرابع عشر أصبحت النهايات أقل عددا وأبسط وأكثر قياسية، لا بد من وجود سبب معين لذلك.

غزا النورمانديون^(٣٤) - متحدثو اللغة الفرنسية - إنجلترا في عام ١٠٦٦ فأصبحت الفرنسية اللغة الرسمية للبلاد لقرنين متتاليين، كانت الفرنسية تُستخدم في أغلب الأغراض الهامة من قبل الطبقة الحاكمة بينما استمر معظم الناس في الحديث

(٣٣) لغة شمالي الهند الأدبية والرسمية .

(٣٤) أحد فاتمي نورمنيا الإسكندنافيين - الفرنسيين في القرن العاشر .

باللغة الإنجليزية حيث رأوها اللغة الأنسب لهم، وفي هذا الوقت لم يتواجد المعلمون الصارمون الذين يعاقبون تلاميذهم لاستخدامهم النهايات النحوية الخاطئة كما لم يكن هناك كلمات أو تركيبات لها السبق في المكانة عن غيرها لأن الإنجليزية فقدت مكانتها كلية، كانت المحاولة لتعلم الفرنسية التي تتحدثها الطبقة العليا مجرد مضيعة للوقت، ومن هنا كانت الفرصة في حدوث أي تغييرات يسببها متحدثو الإنجليزية سانحة.

على النقيض من ذلك تغير نحو اللغة الإنجليزية في السنوات المائة الأخيرة من القرنين السابق ذكرهما أكثر من ذي قبل نظرا لاحتلال الإنجليزية محل الفرنسية حتى أصبحت اللغة الرسمية لإنجلترا، تبعا لذلك أصبح شغل الناس الشاغل هو التحدث الصحيح لتلك اللغة حتى تليق مكانتهم بمكانة المجتمع الجديد، وفي الوقت الذي أصبحت اللغة أعظم مكانة أصبحت الحاجة إلى التغير أكثر من ذي قبل.

حقيقة، استمرت الإنجليزية في التغير بثبات على مدى تاريخها ولا زالت تتغير حتى الآن. كانت النتيجة الحتمية لذلك التغير هي جهلنا بالإنجليزية التي استخدمت منذ قرون قليلة، كما أن الإنجليزية التي نستخدمها في وقتنا الحالي ستصبح مبهمة بالنسبة لأحفادنا، لقد حدثت التغيرات ولا زالت تحدث في كل شكل من أشكال اللغة : النحو، النطق، المفردات، معاني الكلمات، دعونا ننظر فيما يلي إلى بعض الجوانب التي تغيرت عندها اللغة بادنين بأكثر أنواع التغير وضوحا.

إنها كلمة ظريفة، هل تمنع في اقتراضها ؟

اختلفت ما يقرب من ستين بالمائة من مفردات اللغة الإنجليزية القديمة وحلت محلها كلمات أخرى، كما أن العدد الكلي للكلمات الإنجليزية تنامي بشدة منذ انقضاء العهد الإنجليزي القديم : بلغ عدد المفردات الآن مئات الآلاف تقريبا وهو عدد يفوق مثيله في أية لغة أخرى، فمن أين أتى هذا العدد الكبير من الكلمات ؟

تتوافر العديد من الطرق التي يمكن الحصول من خلالها على كلمات جديدة وأبسط تلك الطرق العملية المسماة بالاقتراض وهي نسخ لكلمات اللغات الأخرى، كان الإنجليز على مدى تاريخهم مقترضين نشطين لكلمات الشعوب الأخرى.

اقترض متحدثو الإنجليزية الأوائل قبل وصولهم لإنجلترا عدداً من الكلمات اللاتينية - التي كانت من أرقى اللغات بأوروبا حينئذ - وكان من ضمنها كلمات اقترضها الرومانيون منذ عهد مبكر من اليونانيين، ذابت تلك الكلمات في اللغة حتى أنه لم يتسن لغير العلماء معرفة أن تلك الكلمات ليست إنجليزية أصيلة ومنها : خمرة، صابون، كنيسة، ملاك، شيطان، هلب السفينة، زيد، طباشير، جبن، غلاية، ميل، جنين، فلفل، شارع، حائط، جوال، مطبخ، وحتى رخيص، كلمات كلها اقترضت من اللغة اللاتينية منذ أكثر من ألف وخمسمائة عام.

عندما جاء متحدثو الإنجليزية إلى بريطانيا لأول مرة كانت في ذلك الوقت خاضعة لاستعمار السلتيين^(٣٥) - وهم الأسلاف المباشرين للويلزيين والكورنش، اقترضت اللغة الإنجليزية بعض الكلمات القليلة من اللغة السلتيّة مثل وادي، القرير^(٣٦)، الرمادي القاتم، وعاء القمامة، صليب، الدرويد^(٣٧)، من ناحية أخرى دخلت اللغة الإنجليزية عدد هائل من أسماء الأماكن السلتيّة مثل كنت، دفون، كامبريا، لندن، إيدس، يورك، نوفر، كارلسل، كرو، بالإضافة إلى الحروف الأولى من كانتربري، وكذلك أبردين، جلوستر، ليسستر، وينشستر، لينكولن، ساليسبري، كما أن العديد من الأنهار البريطانية لازالت تحمل أسماء أطلقها السلتيون منذ آلاف السنين ومنها : تامز، ترنت، سيفرن، واي، أفون، كالدر، دي، درونت، إسك، أوز، تيس، أسك، وغيرها الكثير.

رحل الرومانيون المتحدثون لللاتينية عن بريطانيا قبل مجيء الإنجليز إليها بوقت قليل ولكن اعتناق الإنجليز للمسيحية في القرن السابع الميلادي مكن اللغة اللاتينية من دخول البلاد فاقترضت الإنجليزية كلمات لاتينية بأعداد كبيرة ومنها : مدرسة، قانون(قاعدة)، قس، أسقف، هيكل الكنيسة، سيد، موظف كتابي، عضو بالجسم، سترة عسكرية، دائرة، ورق(جريدة)، مذنب، بلور، معبد، شجرة كمثري، خس (مرة أخرى نلاحظ أن بعض هذه الكلمات يرجع في الأصل إلى اللغة اليونانية).

(٣٥) المتحدثون اللغة السلتيّة وهي مجموعة من اللغات الهندية الأوروبية تشمل الأيرلندية والأسكتلندية والويلزية وهي لا تزال حية حتى اليوم في أيرلندا والشمال الغربي من أسكتلندا وويلز .

(٣٦) حيوان ثديي يعفر جحره في الأرض .

(٣٧) كاهن عند قدماء الإنجليز .

احتل الفايكنج بريطانيا من جهة إسكندنافيا واستوطنوا بها بأعداد كبيرة في القرن التاسع والعاشر، استوعب الإنجليز لغتهم - التي نطلق عليها النرويجية القديمة - لحد كبير، كما أنهم لم يترددوا في اقتراض ما يفوق المئات من كلماتها مثل : جونلة، نافذة، ينظف، سماء، يعطى، يأخذ، يصبح، يضرب، يركل، يبعثر، نفاية، قُدرة، يعبس(عبوس)، يحقق، رقيق، يريد، بشرة، سكن، قانون، سعيد، قبيح، خطأ، وكذلك الضمائر هم ولهم، تبدو هذه الكلمات وكأنها كلمات إنجليزية ولكن لاحظ أن وجود العنقود الصوتى بكلمة ما (sk) أو (sc) يدل على أنها كلمة إسكندنافية بما أن الكلمات الإنجليزية لا تضم مثل هذه العناقيد الصوتية، (يرى الكاتب أن أسلافه جاؤا إلى الولايات المتحدة الأمريكية من إسكلندا بينما يدل لقبه "Trask" على حتمية رجوع أصله إلى الفايكنج، تعنى الكلمة trāsk مستنقع أو بحيرة صغيرة فى اللغة النرويجية)، كذلك قدم الفايكنج عدداً كبيراً من أسماء الأماكن لإنجلترا مثل : جريمسبي، دربي، وايتبي، كروسبي، روجبي، سكينثورب، لويستوفت، بريكبك.

نستنتج مما سبق أنه قبل ظهور الفقرة القديمة التي ذكرناها فى بداية الفصل، قامت الإنجليزية بالفعل باقتراض آلاف من الكلمات من اللغة اللاتينية والسلتية والنرويجية القديمة والتي يظهر القليل منها فى تلك الفقرة، لكن هذا الاقتراض يعد شيئاً لا يذكر بالمقارنة بما حدث للغة الإنجليزية بعد ذلك، سبق أن تحدثنا عن احتلال النورمانديين المتحدثين للفرنسية لإنجلترا عام ١٠٦٦ وكيف أصبحت الفرنسية اللغة الرسمية للبلاد لمدة قرنين من الزمان، ويمر الوقت تولى أحفاد النورمانديين بعد عدة أجيال عن لغتهم من أجل اللغة الإنجليزية، وفيما بعد اقتضت الإنجليزية آلاف الكلمات التي تعد من أعظم الكلمات الفرنسية مكانة فأدى ذلك إلى تحول مرادفات اللغة تماما.

نتيجة لكل هذه الظروف نجد أن الكلمات التي تم اقتراضها من النورمانديين تتصل كلها بأمور الحرب والإدارة والتنظيم الاجتماعى والقانون ومنها : حكومة، قلعة، خدمة، محامى، رئيس الوزراء، جريمة، محكمة، دولة، ضيعة، قاضى، هيئة المحلفين، نقيب، ملازم أول، رقيب، جندي، حاكم، نبيل، ملكى، أمير، نوق، بارون، وتم اقتراض كلمات أخرى مرتبطة بكل مناحى الحياة : لحم البقر، لحم الغنم، لحم العجل، يشوى(مشوى)، يقلى، يسلق، الطهى بنار هادئة، فاكهة، لون، شفقة، فضيلة، شرف، شجاعة، لغة، جملة، سؤال، أدب، حرف(خطاب)، معهد، أحقق، مرعب، مرآة، ذكر، أنشى، كرامة، ثانى، لطيف، بطل، تهمة، فحص، عقيف، وغير ذلك، فى الحقيقة من

المستحيل عمليا تركيب أى جملة إنجليزية تون استخدام أحد تلك الاقتراضات الفرنسية التي ترجع فى الزمن إلى العصور الوسطى، فحتى كلمة (وجه) ترجع إلى الفرنسية النورماندية وقد حلت محل الكلمة الإنجليزية "anleth" التي اختفت بين عشية وضحاها.

استعادت اللغة الإنجليزية - قبل حلول عام ١٤٠٠ - نفوذها على اللغة الفرنسية بإنجلترا وبدأت الاقتراضات الضخمة من تلك اللغة فى التراجع شيئا فشيئا ليس إلى العدم ولكن إلى قدر متواضع بالمقارنة بما سبق، لم يمنع هذا متحدثى الإنجليزية من إخفاء إعجابهم بكلمات فرنسية مثل : حساء، شرطة، نزهة، هاو، الجادة^(٣٨)، ذواقة، الكوريشيه(شغل الإبرة)، أنقاض، جسم الطائرة، جراج، مكشوف أو غير محتشم، هدية تذكارية، لباقة اجتماعية، مطعم، قائمة الطعام فى مطعم، رد نال على حضور البديهة، سيجارة، قارق دقيق، فن الباليه، البيريه، قهوة، كلمات كلها تم اقتراضها فى غضون القرنين أو الثلاثة قرون الماضية.

عوض انخفاض معدل الاقتراض من اللغة الفرنسية بالاقتراض المستمر من لغات شتى أخرى فى العالم، نجد أن متحدثى الإنجليزية بشمال أمريكا اقتترضوا عدداً من كلمات اللغات الهندية المحلية مثل: التَّيْبَة^(٣٩)، الوغَم^(٤٠)، التَّمْهُوك^(٤١)، الظربان الأمريكى^(٤٢)، الراكون^(٤٣)، المُقسين^(٤٤)، الطَّوْطَم^(٤٥)، البَمبِكان^(٤٦)، وأخذوا كذلك عدداً ليس بالقليل من أسماء الأماكن مثل ماساشوسيتس، كُونكْتكت، ميسيسبى، إينويس، ميتشجن، إيرى، شيكاغو، أما الأسبانيون والبرتغاليون الذين استوطنوا فى الجنوب فقد اقتترضوا كلمات لاحتصر لها وجدت طريقها إلى اللغة الإنجليزية منها : تبغ،

(٣٨) شارع عريض تكتنفه الأشجار .

(٣٩) خيمة مخروطية الشكل من الجلد ، من خيام الهنود الحمر .

(٤٠) كوخ بيضاوى أو مستدير الشكل عند هنود أمريكا الحمر .

(٤١) فأس يصنعها الهنود الحمر كسلاح وأداة .

(٤٢) حيوان ثديى صغير نثر الرانحة .

(٤٣) حيوان شمال أمريكى ثديى من اللواحم .

(٤٤) أفعى سامة .

(٤٥) شيء كحيوان أو نبات يتخذ رمزا للقبيلة .

(٤٦) طعام مركز من ألحمة هنود أمريكا الحمر يتكون من لحم مفروم ملدود ممزوج بالدهن المنوب .

إعصار، قارب، أرجوحة شبكية، طماطم، بطاطس، شيكولاتة، كاكاو، نرة، حفل شواء في الهواء الطلق، السفانا، قفل حريف، اللامة^(٤٧)، الدغور^(٤٨)، القيوط، الكوكا سواء كان المقصود بها الكوكايين أو المشروبات الغازية، اقترض مستوطنو أستراليا ونيوزيلندا بدورهم كلمات مثل الكنغر، الواب^(٤٩)، البمرنج، المومبت^(٥٠)، الكيوي^(٥١)، الكوال^(٥٢)، الطائر الطيب^(٥٣)، الكوري^(٥٤) من اللغات الأهلية.

اقترض البريطانيون الذين استقروا بالهند كلمات مثل: الرأجا^(٥٥)، الكاري، الثواب^(٥٦)، السباهي^(٥٧)، الكولي^(٥٨)، الشبيروت^(٥٩)، البنقل^(٦٠)، الدنغري^(٦١)، النمس، النيش وهو شراب مسكر، الصاحب^(٦٢)، المنديل الكبير، العمل غير المتقن، العهد الصياد، الغابة، البيجاما، السفاح، الكشمير، وحتى شامبو، أما مستوطنو جنوب إفريقيا، فقد اقترضوا كلمات جيرانهم الأفارقة مثل: خنزير الأرض^(٦٣)، المربع ذي الأشجار المتناثرة، أثر الحيوان، الهجرة الجماعية بواسطة عربة الثيران، ومن بعض اللغات المحلية الأهلية أخذوا كلمات مثل: "impi" (أنصار الحرب) و "indaba" (مؤتمر).

(٤٧) حيوان جنوب أمريكي كالجمال الصغير يتون حبة .

(٤٨) نمر أمريكي استوائي .

(٤٩) كنغر صغير .

(٥٠) حيوان أسترالي شبيه بذب صغير .

(٥١) طائر لاجتأحي من طيور نيوزيلندا .

(٥٢) حيوان أسترالي من نوات الكيس .

(٥٣) بيضاء أسترالية .

(٥٤) شجر من الفصيلة الصنوبرية .

(٥٥) أمير هندي .

(٥٦) شخص ذو ثروة أو مكانة عظيمة .

(٥٧) هندي مجند في الجيش الإنجليزي .

(٥٨) حمال أو عامل غير بارع .

(٥٩) ضرب من المسكرات .

(٦٠) بيت من طابق واحد وخاصة في الريف أو على شاطئ البحر .

(٦١) نسج قلنتي خشن .

(٦٢) لقب بمعنى سيد يخاطب به الهنود شخصا أوروبيا ذا مكانة اجتماعية أو منصب رسمي .

(٦٣) حيوان ثديي أفريقي من آكلات النمل .

أما عن باقي اللغات التي اقترضت الإنجليزية من كلماتها فحدث ولا حرج، فمن الهولندية اقترضت كلمات: رئيس، رصيف الميناء، ثنية الشراع، البراندي^(٦٤)، يخت، فخ (محلج للقطن) (الجن)، سلطة الكرنب، ومن الإسبانية: كتلة ضخمة من الذهب أو الفضة في منجم، سياج الخيل، رصيف، بعوضة، الشيرى^(٦٥) فرار أو اندفاع مفاجئ للناس أو الحيوانات، ومن الألمانية: يسلب، روضة أطفال، الهمستر^(٦٦)، رقصة الفالس أو موسيقاها، أحد أنواع البسكويت، البودل^(٦٧)، حقيبة تحمل على الظهر، بيرة، ومن الإيطالية: كمان، الأوبرا، السباغيتي (مكرونة طويلة ورفيعة)، لحن يؤديه مطربان أو ملحنان، كرنفال، بحيرة مالحة تفصلها الصخور المرجانية أو الحواجز الرملية عن البحر، استوديو، مظلة، ومن العربية: الكحول، علم الجبر، فراش السرير، سفاح، الحريم، شربات، تعريف، ومن الصينية: شاي، صلصة الطماطم (كاتشب)، الجنس^(٦٨)، التيفون^(٦٩)، البرتقال الذهبي، ومن اللغات الباسيفكية الشيء المحرم، الوشم، الأكلال^(٧٠)، من اللغات الأفريقية اليوم^(٧١)، موز، البانجو من الآلات الموسيقية، غوريلا، سحر، وكذلك الكلمة الإنجليزية الأكثر شهرة مازال الباحثون في جدال حول أصل هذه الكلمة، ولكن رجوعها إلى أصل إفريقي من أكثر الآراء قبولاً.

كما اقترضت كلمة الزبادى من اللغة التركية، والخيرزان من المالية، والسهب^(٧٢) من الروسية، وقافلة (عربة مغطاة تصلح للإقامة) من الفارسية، ومزلق الخشب وهو أحد أدوات الترحلق على الجليد من النرويجية، والمائدة الشطانية^(٧٣) من السويدية، وعربة تجرها الخيول من المجرية، ومربي البرتقال من البرتغالية، وتبات القرفة من

(٦٤) شراب مسكر .

(٦٥) خمر إسبانية الأصل .

(٦٦) حيوان من القوارض شبيه بالجرذ .

(٦٧) كلب ذكي كثيف وأجعد الشعر .

(٦٨) نوع من العشب .

(٦٩) إعصار إستوائي في منطقة الفلبين أو بحر الصين .

(٧٠) قيثارة برتغالية الأصل .

(٧١) نوع من البطاطا .

(٧٢) سهل واسع خالي من الأشجار .

(٧٣) ضرب سويدي من الغداء أو العشاء .

العبرية، والفضولي من اللغة البيديية^(٧٤) والويسكى، من سكوتس جالينك^(٧٥) وزائف من الأيرلندية، السونا من الفنلندية وكما أنه في الأونة الأخيرة زاد الإقبال على اقتراض الكلمات اليابانية، فأضيفت كل من السومو^(٧٦)، والكاسيت الصغير المحمول إلى قائمة الاقتراضات القديمة التي كانت تحوى كل من : الغايشة^(٧٧)، الهراكيرى^(٧٨)، الجودو^(٧٩)، السوكيياكى^(٨٠)، الكيمون^(٨١).

تمثل الغالبية العظمى من تلك الكلمات عناصر جديدة، فمتحدثو الإنجليزية لم يسبق لهم رؤية البطاطس أو زلاجات الجليد أو الزياىدى أو البمرنج قبل أن يشهدوها خارج بلادهم ثم يلحقوها بأسمائهم، مثلهم فى ذلك مثل الأجيال الأولى التى لم تر القلاع أو المنشآت التعلبية قبل الغزو النورماندى، وإذا بعدنا بالزمن أكثر نصل إلى أشياء لم يعهدا الإنجليز القدامى مثل الأساقفة أوتيات الضس، ولكن لا يعد هذا السبب الوحيد الذى تقترض من أجله الكلمات، فقد تضمنت اللغة الإنجليزية القديمة كلمات دالة على (اللغة) و(الإناث) و(الوجه) وتم استخدامها على الوجه الأمثل ولكن كل ماحدث هو أن المكانة العظمى للغة الفرنسية فى ذلك الحين حثت العديد من متحدثى اللغة الإنجليزية على استخدام كلمات فرنسية فى حديثهم على أمل أن يكون ذلك الحديث أكثر لياقة، بالرغم من فقدان الفرنسية لتلك المكانة إلا أنك قد تعرف شخصاً ما لا يكف عن خلط حديثه الإنجليزى أو كتابته بكلمات وعبارات فرنسية مثل "au contraire" (بالعكس)، "joie de vivre" (جمال الحياة)، "au naturel" (فى الطبيعة)، "fin de siècle" (نهاية القرن)، "derrière" (الأخير).

(٧٤) لهجة من لهجات اللغة الألمانية تكثر فيها الكلمات العبرية والسلافية وينطق بها اليهود فى الاتحاد

السوفييتى وبلدان أوروبا الوسطى، تكتب بحروف عبرية .

(٧٥) لغة مستخدمة فى شمالى إسكتلندا .

(٧٦) أحد أنواع المصارعة اليابانية .

(٧٧) مطربة وراقصة يابانية .

(٧٨) طريقة يابانية للانتحار بيقر البطن بخنجر تخلصا من العار .

(٧٩) ضرب حديث من المصارعة اليابانية .

(٨٠) طعام من لحم وخضمر ويصل يقدم فى المطاعم الأمريكية اليابانية .

(٨١) ثوب فضفاض يرتديه اليابانيون .

تختلف قليلا حالة الكلمتين "glasnost"، "perestroika"، وهما كلمتان من اللغة الروسية بدأتا في الظهور على شاشات التليفزيون وفي الصحف اليومية في وقت خمود الثورة بالاتحاد السوفيتي السابق، تعني هاتان الكلمتان "restructuring" (إعادة بناء) و "openness" (فتح) ولكننا - برغم استخدامنا للكلمات الإنجليزية المساوية لهما في المعنى - فضلنا اقتراضهما من اللغة الروسية (لنقل فضل ذلك الصحفيون) لتوضيح أن الحديث لا يقصد به أية إعادة بناء أو أي "فتح" بل ذلك البناء والفتح الذي يحدث في الاتحاد السوفيتي بصفة خاصة.

لا تعد الإنجليزية اللغة الوحيدة التي تقترض من كلمات اللغات الأخرى، لأن كل اللغات يحدث بها هذا الاقتراض بل إن كثيرا منها اقترض مؤخرا أعدادا كبيرة من الكلمات الإنجليزية وهذا ما سوف تناقشه بالفصل الثامن.

دعونا - قبل أن نترك موضوع الاقتراض - نوضح أنه يمكنك اقتراض كلمات لا تنتمي إلى اللغة التي يُعتقد أنها اللغة المُقترض منها، فعلى سبيل المثال اقترضت الإنجليزية عبارة "nom de plume" (اسم مستعار) من اللغة الفرنسية ولكن هذه العبارة لم يكن لها وجود بالفرنسية وقت أن اقترضناها، إنها اختراع إنجليزي، بالمثل ردت الفرنسية ما فعلته الإنجليزية باقتراضها للكلمة الإنجليزية "footing" (أساس) لتعني هذه المرة السير الوئيد وهي اختراع فرنسي.

المثال المفضل الذي يصلح في مقامنا هذا هو تلك الحكاية التي يذكرها اللغوي الأمريكي "شارلز هوك" قائلا أن أبا فليبينيا أطلق على ابنه - أثناء الاحتلال الأمريكي للفلبين - اسم "Ababils" نسبة للقديس الراعي للولايات المتحدة الأمريكية، ولكن هذا الشخص لم يكن له وجود في ذلك الوقت، إذن ماذا حدث؟

كانت الفلبين مستعمرة إسبانية تتحدث فيها اللغة الإسبانية على نطاق واسع، في الإسبانية تستخدم كلمة "saint" (قديس) للدلالة على القديس الرجل بصفة خاصة ومن هنا جاءت أسماء أماكن مثل سان فرانسيسكو، سان جوزيه، سان دييجو، لاحظ الأب الفليبي أن الجنود الأمريكيون - في أوقات الشدة - اعتادوا النداء على قديسهم بالاسم "San Ababís" أو ما يشابه ذلك.

لا ينطق الصوت "H" في أغلب كلامنا

لم تكن المفردات الإنجليزية هي العنصر الوحيد الذي تغير في السنين الألف الأخيرة، فقد حدث تغير فجائي في النطق وإن كان يصعب تعيينه والتعرف عليه من النصوص المكتوبة، بما أن الوقت لن يسعنا هنا لمناقشة كل التغيرات الرئيسية التي طرأت على النطق، فدعونا نفحص بدقة تغيرا وحيدا ذلك المتمثل في القصة المدهشة الخاصة بالصوت "H".

كان الصوت "H" من الصوامت الشائعة التي يتكرر مجيؤها في أي موضع بالكلمة، إليك بعض الأمثلة: "habban" (يملك)، "hiw" (لون)، "hit" (هذا - للجملادات)، "heah" (مرتفع)، "hepu" (ارتفاع)، "bahindan" (خلف)، "hnutu" (بندق)، "hn" (يغفو لفترة قصيرة)، "hrfn" (القداف)^(٨٢)، "hring" (جرس)، "hlud" (عال) "hlaif" (رغيف)، "hlaford" (رب)، "hfdige" (سيدة)، "hwit" (أبيض)، "hwæt" (ماذا)، "niht" (ليل)، "beorht" (ساطع)، "fyrhtan" (يخيف)، "leoht" (ضوء)، "tahte" (تعلم)، "hlæ hhan" (يضحك)، "ruh" (عنيف)، "syhō" (يرى)، "seah" (رأى)، "purh" (عبر). كان الصوت "H" ينطق في كل هذه الكلمات بشكل ملحوظ فلم يكن مرققا أو لطيفا بل كان قويا يشبه التركيب الألماني "CH"، والإسباني "L"، والعبري "CH"، والهولندي "G"، لا زال هذا الصوت القديم مستخدما في الكلمة الأسكتلندية "loch" (بحيرة) المستعارة من لغة سكوتس جاليك.

كان الصوت "H" قديما - في اعتقادنا - يُنطق مخففا عند مجيئه في بداية الكلمة كنطقنا له في الوقت الحالي، وهذا لم يمنع نطقه بقوة أكثر عندما يقع في غير موقعه السابق ذكره، كانت هذه فقط البداية، فبعد الغزو النورماندي بوقت قصير بدأ متحدثو الإنجليزية فعل الشيء الذي ربما يعتبره سعلمو اللغة الإنجليزية المتشدنون - إن تواجد منهم أحد - خطأ فاححا وهو إسقاط الصوت "H".

سنبدأ أولا بالصوت "H" المتبوع بالأصوات "l, r, n"، بدأت الكتابة بالإنجليزية بعد الغزو على نحو واسع وتزامن ذلك مع إسقاط الصوت "H" تماما من كلمات مثل

(٨٢) طائر أسود كالغراب .

"loud" (مرتفع)، "ring" (جرس)، "nut" (بندق) ولم يحاول أولئك المعلمون المتشددون إثتاعاً عن هذا الفعل، ظل الصوت نفسه في كلمات أخرى في الوقت الذي تغيرت فيه قواعد النطق الإنجليزية.

أولاً : استبدلت التهجئة القديمة "hw" بأخرى جديدة وهي "wh"، لذا أصبحت الكلمتان "hwit" "hwæt" تكتبان على الشكل "white" (أبيض) و "what" (ماذا).

ثانياً : أصبح الصوت "H" الذي ينطق بقوة في وسط ونهاية الكلام يكتب على الشكل "gh"، لذا كان الصوت "H" ينطق بقوة في كلمات مثل "light" (ضوء)، "bright" (ساطع)، "night" (ليل)، "laugh" (يضحك)، "rough" (عنيف)، "through" (خلال).

لكن سرعان ما بدأ إسقاط الصوت "H" بأعداد أكثر عندما ترسخت قواعد النطق الجديدة باللغة، ففي أثناء القرن الخامس عشر بدأت كل الأصوات التي تنطق "gh" تسقط من النطق، وقبل حلول القرن السادس عشر كانت قلة من الفلاحين والمتحذلقين لا يزالون ينطقون الصوت "H" في كلمات مثل "night" (ليل)، "through" (خلال)، فيما عدا أسكتلندا حيث تمسك الناس بالنطق القديم لمدة طويلة، حدث شيء غريب في بعض الكلمات القليلة : استبدل الصوت "H" بالصوت "F" ربما لتشابه هذين الصامتين أو لأن بعض الناس الذين لا ينطقون "H" أخطئوا السمع واعتقدوها "F"، لذا فإن السبب وراء النطق الحديث غير المتوقع للصوت "H" وكأنه "F" في كلمات مثل "rough" (عنيف)، "laugh" (يضحك) ما هو إلا خطأ في أصله.

يشكو معلمو اللغة الإنجليزية في الوقت الحاضر من إسقاط صوت "H" بلا ضوابط، إننا نتوقع تعرض بعض التلاميذ للعقاب بسبب ذلك ولكن لا جدوى من ذلك، فما زال الإسقاط مستمرا بحيث لم يبق لنا سوى أصوات قليلة لا تنطق في كلمات مثل "night" (ليل)، "taught" (تعلم)، "through" (خلال) تذكرنا بنطق أجدابنا لذلك الصوت منذ خمسمائة عام.

لا يمكننا القول بأن اللغة الإنجليزية قد تخلصت من صوت "H" في جميع كلماتها حيث لا تزال هناك الكثير من الكلمات التي تحتوى على هذا الصوت ومنها : "he" (هو)، "him" (له)، "her" (ملكها)، "which" (أى)، "why" (لماذا)، "where" (أين)، "whether" (إن، إذا)، كانت تأتي هذه الكلمات قديما بصفة متكررة غير منبورة وفي

هذه الحالة كان صوت "H" لا ينطق بها، ولا يحدث هذا إذا كانت منبورة، بقي هذا التنوع قائما لقرون عدة وإلى عصرنا هذا ما زال أغلب المثقفين يقولون (لا يكتبون) أشياء مثل "What did 'e (he) give 'er (her)?" (ماذا أعطاهما؟). يفقد الضمير "hit" (هذا لغير العاقل) الصوت "H" لأنه يأتي دائما غير منبور مما جعلنا نعتاد شكله هذا منذ قرون مضت "H".

لا ينطق الشخص المثقف الصوت "H" في كلمات مثل "vehicle" (عربة)، "annihilate" (يفنى) لعدة أجيال، في الولايات المتحدة الأمريكية ينم نطق الصوت "H" في بداية الكلمة على أن الناطق لم يتلق القدر الكافي من التعليم ويحاول الحديث بشكل لائق، تكمن المشكلة في المقطع غير المنبور الذي يأتي في بداية الكلمة، فكلمات مثل "historical" (تاريخي)، "hotel" (فندق) تفقد الصوت "H" فتكون "istorical"، "otel" عندما تسبقها أداة التنكير "an"، ومن هنا تحاشي معظم المتحدثين النجباء ذلك بأن استخدموا مع هذه الكلمات أداة التنكير "a" فأصبحت "a historical novel" رواية (تاريخية)، "a hotel" (فندق).

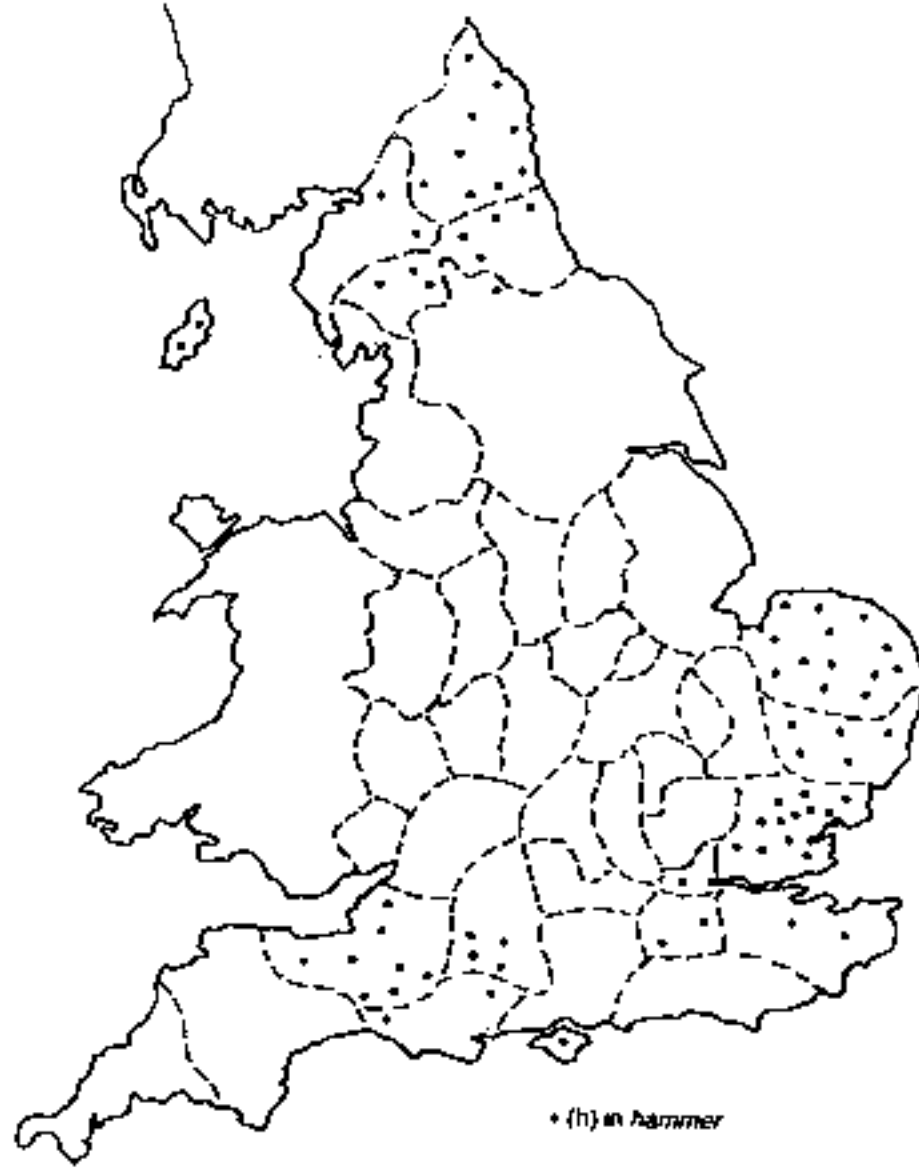
في إنجلترا بدأ الصوت - "H" في القرن التاسع عشر - في الاختفاء من كل الكلمات التي تبدأ بالتركيب "wh" (والتي بالطبع تنطق hw)، وأصبح المتحدثون النجباء بإنجلترا ينطقون الكلمات الأتية بون صوت: "H" "whlch" (أى) "witch"، "whales" (حيتان) "wales"، "whine" (أنين) "wine"، بالرغم من ذلك لا زال هناك اعتقاد جماعي لا يرقى إلى مرحلة القوة يذهب بأن النطق باستخدام الصوت "H" يبدو أكثر أناقة، كما أنه لا زال هناك القليل من معلمى الخطابة بإنجلترا يحاولون تعليم تلاميذهم بأن يقولوا أشياء مثل "hwales"، "hwlch" في وقت أصبح فيه هذا النطق مجرد تكلف من الطراز القديم.

بينما ينتبه المتحدثون النجباء إلى مثل هذه الأمور نجد النسبة السائدة من سكان إنجلترا يعمدون إلى إسقاط الصوت "H" في كثير من المواقع الهامة، تحديدا بدأ بعض المتحدثين إسقاطه في كل كلامهم ولم يعرفوا ينطقونه على الإطلاق، فأصبحت "hair" (شعر) تنطق مثل "air" (هواء)، "hear" (يسمع) مثل "ear" (أذن)، "harm" (ضار)

مثل "arm" (يد)، هناك أدلة واضحة تؤكد أن مثل هذا النطق كان موجود فعلا منذ قرون - فعلى سبيل المثال كان كل من شكسبير ومارلو يتفكّهون على هذا النطق في القرن السادس عشر، كما اعتقد عالم اللغة جيمس ميلروي احتمالية استخدامه منذ العصور الوسطى.

مازال المتحدثون النجباء سالفو الذكر لا يعيرون اهتماما إلى هذه الحقيقة (الغالبية العظمى من المتحدثين في إنجلترا أسقطوا الصوت "H" نهائيا من كلامهم)، توضح الخريطة رقم (٥-١ لعام ١٩٦٠) المناطق الثلاث المحدودة المساحة بإنجلترا والتي ما زال سكانها يستخدمون الصوت "H" في لغتهم الدارجة، من الملاحظ أن هذه الخريطة مبالغة في نتائجها فهي توضح أن مدينة النرويش تولى اهتماما كبيرا للصوت "H" مع أنها في الحقيقة لا تمبأ به الآن مطلقا، أما أغلب المتحدثين بإنجلترا (وكذلك ويلز) لا ينطقون الصوت "H" في كلمات مثل "hair" (شعر)، "head" (رأس) ليتساويا بذلك مع كلمتي "light" (ضوء)، "loud" (عال).

بالرغم من التوسع في إسقاط الصوت "H" إلا أن ذلك يعد أمرا مستهجننا عند البعض، فمتحدثو الطبقة الوسطى لا يزالون يحرصون على البقية الباقية من ذلك الصوت حيث نجد أي متحدث عادي يطمح في الحصول على مهنة ذات قيمة ما عليه إلا الحفاظ على نطق الصوت "H" في كلامه لأن الاتجاه السائد في إنجلترا الآن هو اعتبار الشخص غير متعلم إذا أغفل ذكر ذلك الصوت، تذكر أنه حتى معلمي الإنجليزية الصارمين لم يحاولوا استيعاد الصوت المفقود في كلمات مثل "light" (ضوء)، "it" (هذا لغير العاقل) أو حتى "which" (أي)، يتركز الأمر برمته على الصوت "H" الذي يتنطق في كلمات بعينها منذ أجيال قليلة مضت، ذلك النطق الذي يكفل لصاحبه أن يكون إنسانا ذا مكانة.



شكل (١-٥)

مناطق إنجلترا التي ينطق بها صوت "H"
صوت "H" في كلمة "hammer" مطرقة

السؤال الآن هو : إلى أين ستنتهي قصة الصوت "H" بإنجلترا ؟ ما من أحد يعرف إجابة لهذا السؤال، ولكننا نساند جانب التخلى عن ذلك الصوت؛ ففي اعتقادنا أن هذا الإسقاط يقف خلقه تاريخ طويل وأنه سيواصل انتشاره حتى لا يبقى سوى حفنة من الذين ينطقون هذا الصوت ضمن كلامهم، والذين سيذهبون لا محالة وستذهب معهم آخر "H" .

إذا ثبت خطأ توقعنا السابق فسيكون ذلك بسبب التأثير المستمر للإنجليزية الأمريكية، لم يعرف إسقاط للصوت "H" في شمال أمريكا وأسكتلندا وأيرلندا وبلاد نصف الكرة الجنوبي - في كلمات مثل "hair" (شعر)، "head" (رأس)، ربما كان هذا الاهتمام بنطق ذلك الصوت هو السبب الذي جعل المتحدثين بإنجلترا يتجهون نحو التخلى عن البقية الباقية من هذا الصوت، لكن من الصعب الجزم بهذا الأمر لسبب واحد وهو ملاحظة اللغويين الأمريكيين - منذ عقدين أو ثلاثة - إسقاط الصوت "H" من الكلمات التي تبدأ بالصوتين wh- مثل "where" (أين) و "whine" (أنين)، كما أنهم حددوا ثلاثة مناطق ينتشر بها هذا الإسقاط حينئذ، سرعان ما بدأ هذا الإسقاط في الانتشار عبر البلاد بسرعة مذهلة، وقد أفاد اللغوي الأمريكي ويليم برايت مؤخرًا أن القليل من كبار السن هم الذين ينطقون الصوت "H" في الكلمات "where" و "whine" يعقب الكاتب أن هذا الأسلوب الحديث انتشر في قرى بعيدة مثل "كاتاروجس" - القرية التي ولد بها، فبينما ينطق هو الصوت "H" في تلك الكلمات لا ينطقها أخواه اللذين يصغرانه سنا .

كذلك لم تظهر أية علامات دالة على إسقاط الصوت "H" في كلمات إنجليزية أمريكية مثل "hair" (شعر) و "head" (رأس)، ولكننا لن نصاب بالدهشة إذا قرأنا مقالًا في أحد الصحف اللغوية التي ستصدر في غضون السنوات القليلة القادمة يخبرنا بظهور إسقاط لذلك الصوت في تلك الكلمات بكل من "أبوكورك" و"نولوث" و"شاتانوجا".

تبين قصة الصوت "H" عددًا من النقاط الهامة بشأن الطريقة التي يسير بها تغير اللغة:

١ - من المحتمل أن يؤثر التغير على حالات معينة في البداية ثم يعتد تأثيره إلى حالات أخرى، رأينا إسقاط الصوت "H" بداية إذا وقع قبل الأصوات "l, r, n" ثم

سرعان ما امتد إلى كل الأصوات فيما عدا تلك المتبوعة بصوت صائت أو بالصوت "w" ثم تبع ذلك المقاطع غير المنبورة والصوت "H" المتبوع بالصوت "w" وأخيرا امتد إلى البقية الباقية.

٢ - ينتشر التغيير تدريجيا فوق إحدى المناطق الجغرافية، توضح الخريطة بالشكل (٥-١) أن الخطوة الأخيرة في إسقاط الصوت "H" بدأت من بعض المناطق حتى انتشرت في أغلب أنحاء إنجلترا فيما عدا ثلاثة أنحاء متفرقة أطلق عليها المناطق القديمة والتي لم يظهر بها التغيير حتى الآن، توضح المعلومات من مدينة النرويج أن انتشار إسقاط الصوت "H" مازال مستمرا، كما تذهب المعلومات من أمريكا إلى أن إسقاط الصوت "H" من الكلمات التي تبدأ بالصوتين wh- بدأ في الانتشار تدريجيا من ثلاث مناطق رئيسية.

٣ - ربما يؤثر التغيير على متحدثين بعينهم في مجتمع ما في البداية ثم ينتقل بعد ذلك إلى الآخرين، أثناء ذلك يكون التجديد شيئا مستهجنا، يطلق اللغويون على هذه الحالة الشائعة التغيير السفلى : هو تجديد يظهر بالتنوعات المنخفضة المكانة ثم يستهجنه المتحدثون الآخرون في بداية الأمر وبمرور الوقت ينتشر هذا التنوع عبر طبقات المجتمع حتى يصبح معيارا وفي المقابل يعتبر الشكل القديم مستهجنا، يبدو هذا الأمر وكأنه حدث في شأن إسقاط الصوت : "H" تذكر أن إسقاط هذا الصوت من كلمات مثل "light" (ضوء) قاومه المدعون لعلم ثم أصبح معيارا بعد ذلك بينما اعتبر إسقاط ذلك الصوت من الكلمات التي تبدأ بالصوتين wh- شئا مبتذلاً في البداية ولكنه أصبح الآن شأن المثقفين بإنجلترا.

هناك حالة تتشابه مع إسقاط الصوت "H" بل تتفوق عليها ألا وهي إسقاط الصوت "r" بدأ بعض المتحدثين بإنجلترا منذ قرنين في إسقاط الصوتين "rs" اللذين لا يتبعان بصوائت من جميع كلماتهم، لذلك أصبحت "farther" (أبعد) مشابهة للكلمة "father" (أب)، وكذلك "pore" (مسام الجلد) و "paw" (مخالب)، اعتبر إسقاط الصوت "r" في بداية الأمر ولمدة طويلة جهلا ولكنه بالرغم من ذلك انتشر إلى أن أصبح المعيار بإنجلترا، يعد إسقاط ذلك الصوت الآن ضربا من اللياقة كما اعتبر المتحدثون الذين يتمسكون بنطقه في غرب البلاد فلاحين سدج - متلما اقترح الكاتب فيما سبق أن ناطقى الصوت "H" مستقبلا سيعنون من الفلاحين السدج.

٤ - يعد التغيير الأخذ في التزايد تنوعاً، إن التنوع القائم بين نوعي الكلام (النطق الكامل للصوت "H"، التخلي عن ذلك النطق) ما هو إلا نتيجة لاختفاء ذلك الصوت الذي كان متواجداً لقرون، تمثل العديد من أمثلة التنوعات المذكورة بالفصل الرابع تنوعات أخذة في الازدياد.

باستطاعتنا ملاحظة اللغة وسماها وهي تتغير، بالرغم من أنه ربما لا يتسنى لنا معرفة أن ما نشهده هو التغيير الأخذ في الازدياد، يطلق اللغويون على التغيير الذي يمتد لأجيال عديدة - كإسقاط الصوت "H" باللغة الإنجليزية - الاتجاه للتطور اللغوي أي اتجاه اللغة نحو التغيير المستمر في اتجاه واحد، يترتب على كل من التغيير البطيء طويل المدى كإسقاط الصوت "H"، وكذا التغييرات المفاجئة كإكتساب الكلمات الجديدة - نتائج ملحوظة وهي ما سوف تناقشه فيما يلي.

من أين أتت اللغة الإنجليزية ؟

عندما استوطن الأنجلوساكسون إنجلترا في بادئ الأمر منذ ألف وخمسمائة سنة مضت تواجدت بعض التباينات الإقليمية بالفعل في كلامهم ولكنها لم تكن تباينات حادة، تراكمت تباينات أكثر بمرور الوقت، فقد كان أي تحديث يجري في منطقة ما لا يلبث أن ينتقل - في أحيان كثيرة - إلى مناطق أخرى وهذا لايعنى أن التحديث ينتشر بالضرورة في المناطق المتحدثة للغة بكاملها (راجع خريطة اللهجات بالفصل الرابع)، بعد قرون عدة تعرضت إنجلترا لبعض التغييرات اللغوية في النحو ومفردات اللغة والنطق، ولكنها في نفس الوقت لم تتعرض للتغييرات الأخرى التي تأثرت بها المناطق المختلفة، نتيجة لذلك انقسمت كل ناحية تنطق بالإنجليزية تدريجياً إلى عدد من المناطق تمتاز كل منها بعدد لا حصر له من التباينات - هذه هي اللهجات الإقليمية التي تحدثنا عنها بالفصل السابق. قبل حلول عام ١٥٠٠ أو نحو ذلك (بعد مرور ألف عام على الاستيطان الأنجلو ساكسوني) كان من الصعب على المتحدثين من المناطق المختلفة فهم بعضهم بعضاً.

إن الجمع بين تغيير اللغة والانفصال الجغرافي يعد - كما سنرى - قوة لا يستهان بها، وفيما يخص اللغة الإنجليزية نرى أن درجة ذلك الانفصال قد زادت كثيراً من جراء استيطان متحدثي الإنجليزية لأمريكا الشمالية في القرن السابع عشر،

وأستراليا ونيوزيلندا في القرن التاسع عشر، بالفعل يختلف الكلام في أمريكا الشمالية بدرجة ملحوظة عن مثيله في بريطانيا، كما أن الإنجليزية المتحدثة في المسيسيبي أو شمال كارولينا تكون صعبة الفهم للغاية بالنسبة لشخص من بريتون، علاوة على ذلك ذكر أنه عندما عرضت الأفلام الأمريكية لأول مرة ببريطانيا عام ١٩٢٠ لم يتمكن الجمهور البريطاني من فهمها باعتباره لم يسبق له سماع أى شيء من الكلام الأمريكى.

ماذا نتوقع أن يحدث من نتائج لذلك التشعب المتنامي في حالة عدم حدوث تدخل من أية عناصر أخرى؟ ستكون النهاية هي تشعب التنوعات الإقليمية للغة الإنجليزية حتى تنتهي إلى شيء غير مفهوم يضطرننا في النهاية على التحدث - ليس بلهجات مختلفة - بل بلغات مختلفة.

من الممكن ألا يحدث هذا في وقتنا الحاضر بفضل ما نشهده من تقدم سريع في وسائل النقل والاتصال بالقرن العشرين، ولكن ربما يحدث هذا في وقت لاحق، مما لا شك فيه أن انشطار لغة واحدة إلى عدة لغات قد حدث مرارا وتكرارا، وهذا يفسر سبب خروج اللغة الإنجليزية لأول مرة للوجود.

منذ ما يقرب من ألف وخمسمائة عام - حين كانت أغلب مناطق بريطانيا محتملة من قبل اللغات التي تحولت في صورتها النهائية إلى الويلزية والكورنية - كانت الإنجليزية تستخدم في الساحل الشمالي للقارة الأوروبية، أي في مناطق هي الآن جزء من سويسرا وألمانيا والدنمارك، لقد قمنا بتسمية تلك اللغة اسم *ingvaeonic* لأنه حتى وإن كان أصحابها قد أطلقوا عليها اسماً ما فإنه كان سيندر لا محالة بمرور السنين، انتقلت بعض القبائل المتحدثة لهذه اللغة - الإنجل والساكسون - عبر بحر الشمال إلى بريطانيا منذ ١٥٠٠ عام، ولكن لم تهاجر تلك القبائل بكامل أعدادها فقد بقي العديد منها بأوروبا، إذن ماذا حدث لغتهم؟ بالتأكيد لم تتحول إلى اللغة الإنجليزية.

بالطبع لم تتحول إلى الإنجليزية بل تحولت إلى شيء آخر أو لنقل أشياء أخرى، أخذ الإنجل والساكسون اللغة *ingvaeonic* إلى بريطانيا ولكن بحر الشمال وقف حاجلاً صعب التغلب عليه دون مواصلة التقدم، عندما استمرت تلك اللغة في التغير كان هذا التغير يحدث على أحد جانبي البحر ولا يصل أبداً إلى الجانب الآخر، لذا في غضون قرون قليلة اختلفت التنوعات الجزرية التي نسميها الآن بالإنجليزية تمام الاختلاف عن التنوعات القارية، وبينما تحركت إنجلترا تدريجياً نحو الاتحاد تحت سلطة سياسية واحدة (كان هذا عاملاً مساعداً في الحد من انقسام اللغة الإنجليزية)، وجد الذين استقروا بالقارة أرضهم مقسمة بواسطة الحدود السياسية، في النهاية انقسمت اللغة

ingvaeonic القارية إلى عدة تنوعات إقليمية لا تمت إحداهما للأخرى بأي صلة، ذكر علماء اللغة الآن ثلاث لغات قارية مشتقة من اللغة ingvaeonic وهي : الهولندية، "frisian"^(٨٢)، والألمانية الدنيا (حقيقة اشتقت بعض لهجات اللغة الهولندية والألمانية الدنيا من اللغة ingvaeonic، وكان الموقف اللغوي متزما في هذا الجزء من العالم).

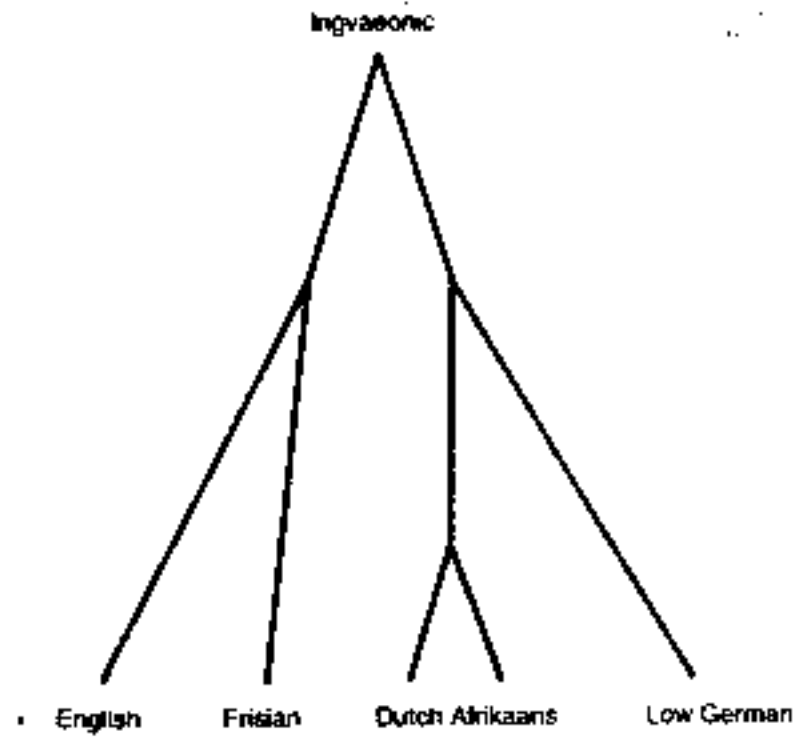
تستخدم الهولندية في كل من سويسرا ونصف مساحة بلجيكا ومساحة صغيرة من شمال فرنسا حول نينكرنك، انقسمت هذه اللغة - مثل الإنجليزية - إلى عدد من اللهجات الإقليمية، فالمتحدث من أمستردام لا يمكنه فهم الهولندية المحلية بلجيكا الغربية أو فرنسا (في بعض الأحيان يطلق على التنوعات الإقليمية للغة الهولندية (FLemISH) فيما سبق كانت اللغة FRISIAN تستخدم في أنحاء كثيرة من سويسرا كما أنها لا تزال تستخدم في عدد من الجزر خارج الساحل السويسري والألماني وكذلك في أحد أنحاء أخرى للقارة الأوروبية، كذلك انقسمت اللغة FRISIAN إلى مجموعتين على الأقل من اللهجات تختلفان إلى حد كبير، أما الألمانية الدنيا فتستخدم في مساحة واسعة من شمال ألمانيا، وتنقسم أيضا إلى عدد من التنوعات المختلفة تماما، (تنحدر من ingvaeonic لغة أخرى لا تستخدم في أوروبا : إنها الأفريقية والتي تعد نتاجا متميزا للهولندية جاءت إلى جنوب إفريقيا منذ ثلاثة قرون).

لم يتمكن متحدثو الإنجليزية من فهم هذه اللغة لعدة قرون، لكنه بإمكاننا معرفة أجزاء من لغة أسلافنا، ما تفسرك للعبارة الهولندية؟ : koud wa- een goed boek de open,ter وماذا عن الجملة "wat wilt u- kopje koffie of glas bier ?"

يمكننا توضيح الأسلاف المستخدمين للغة ingvaeonic بالاستعانة بمخطط الشجرة بالشكل رقم (٢-٥)، يوضح بناء هذه الشجرة تقارب كل من اللغة الهولندية والإفريقية بنسبة أكبر من اللغات الأخرى، بما أنهما ظهرا منذ ثلاثة قرون فقط فهما لا يزالان مفهومين بالرغم من أن كل واحدة ليست مألوفة لمتحدثي الأخرى.

إن اللغة ingvaeonic ليست هي الوحيدة التي تمت للإنجليزية بصلة، فهناك عدد من اللغات الأوروبية قريبة للإنجليزية ولكن لحد ليس كبير، فعلى سبيل المثال لا تعد الجمل الألمانية Mein Haus ist alt , Dies Wein ist gut غريبة عن اللغة الإنجليزية، كذلك ربما يمكنك فهم الجملة السويدية Nils har en penna och en bok بالمعنى "Nick

(٨٢) لغة ألمانية تتعدد بها اللهجات .



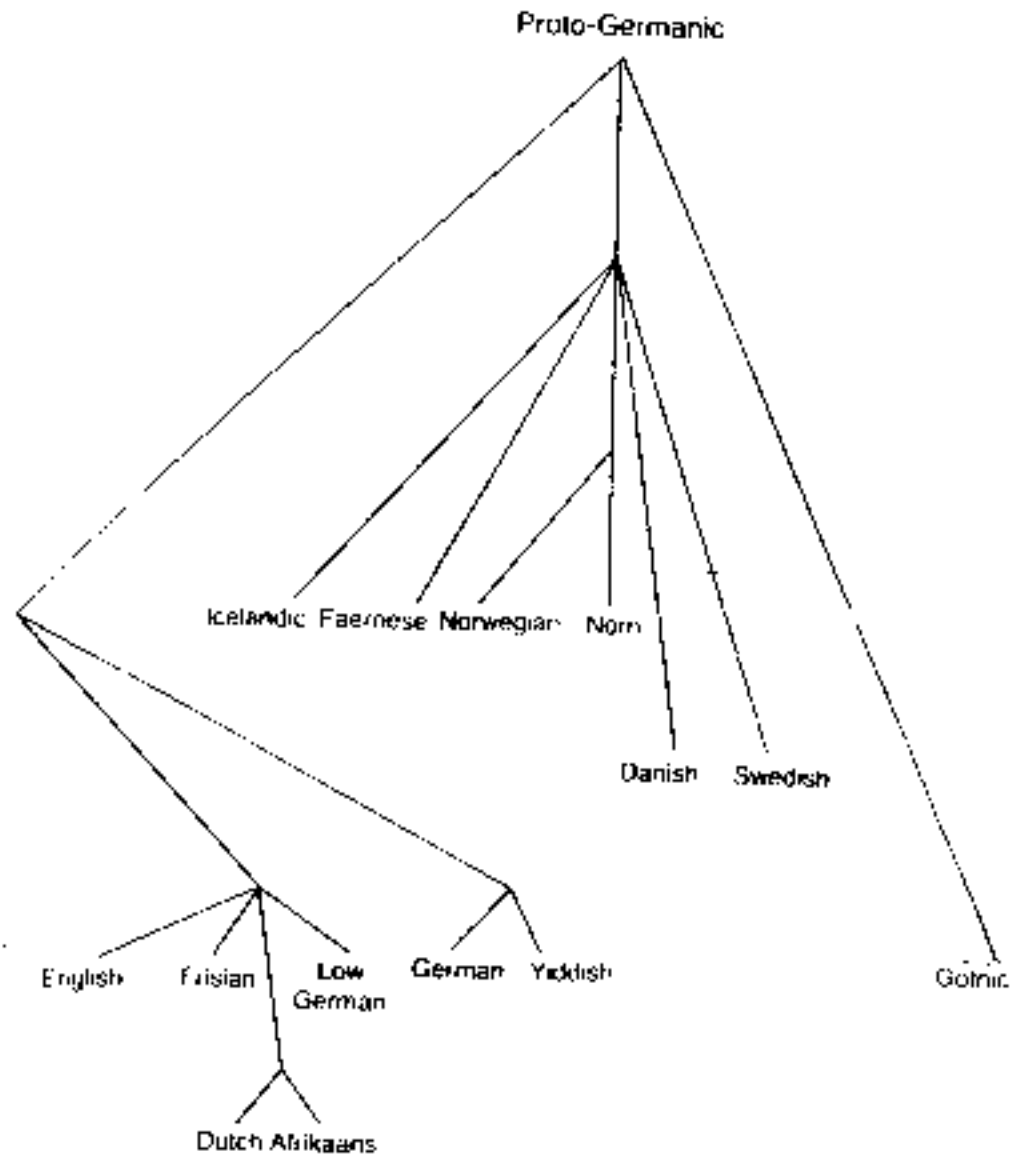
شكل (٥-٢)

شجرة عائلة اللغة Ingvaenonic

الألمانية الدنيا الإفريقية Frisian الإنجليزية

"has a pen and a book" (لدى نيك قلم وكتاب): تعد الأيسلندية أكثر صعوبة، ولكننا إذا أخبرناك أن الجملة الأيسلندية *Folkið segir, að hún sé lík Anna* تعني **people** "say that she is like Anna" (يقول الناس إنها تشبه أنا) ستدرك على الفور مدى التشابه بين اللغتين، من ضمن اللغات القريبة للغة الإنجليزية كل من: الدنماركية والنرويجية والفاروسية "Faeroese" (المستخدمة في جزر فاروس) والنورنية "Norn" (لغة استخدمت فيما قبل في جزر اوركناي وشيتلاند بشمال أسكتلندا)، و البيدية (نتاج مميز للألمانية) والقوطية (لغة بائدة استخدمها العديد من الغزاة الهمجيين الذين أطاحوا بالإمبراطورية الرومانية).

تسمى هذه اللغات باللغات الجرمانية وقد بدأت كلها في الظهور منذ آلاف الأعوام كلهجات للغة واحدة يطلق عليها الألمانية البدائية، تظهر شجرة اللغات الألمانية بالشكل (٥-٣).



شكل (٢-٥)

شجرة عائلة اللغات الجرمانية

النورثية/النرويجية/الفاروسية/الآيسلندية

السويدية/الدنماركية

القوطية

البيدية/الألمانية/الألمانية الدنيا/ Frisian الإنجليزية

الإفريقية

من تحدث الألمانية البدائية؟ وأين، ومتى؟ السؤال ليس بسيطاً، فمتحدثو هذه اللغة كانوا أميين لم يتركوا خلفهم أية نصوصاً مكتوبة، لكن ذهب اجتهادات العلماء إلى أنه من المحتمل أن تكون هذه اللغة قد استخدمت في جنوب إسكتلندا عام ٥٠٠ قبل الميلاد تقريباً، وقد تحرك متحدثو هذه اللغة من مكانهم إلى شمال وشرق وجنوب أوروبا إلى أن وصلوا في النهاية وبعد آلاف السنين إلى بريطانيا، انقسمت اللهجات التي استخدمتها هذه المجموعات إلى عدد من اللغات المستقلة وإن كان من السهل التعرف على الصلة التي تربط بينها.

إن الألمانية البدائية ليست نهاية المطاف كما أنها ليست البداية، فقد أثبتت الدراسات - التي استمرت نحو مائتي عام - بما لا يدع مجالاً للشك أن اللغة الألمانية البدائية بدأ استخدامها كلهجة لإحدى اللغات القديمة، وفي هذا دلالة على أن اللغات الألمانية ذات علاقة بعائلة كبيرة من اللغات المستخدمة في معظم أنحاء أوروبا وكثير من مناطق آسيا، تشمل تلك العائلة الكبيرة على: اللغات السلتية مثل الويلزية والأيرلندية، واللغات الرومانية مثل الفرنسية والإسبانية والإيطالية، واللغات السلافية مثل الروسية والبولندية والصربية-الكرواتية، واللغات البلطية^(٨٤) مثل الليتوانية، والعديد من اللغات المستقلة مثل اليونانية والألبانية والأرمنية، واللغات الإيرانية مثل الفارسية والكردية، واللغات الهندية الشمالية مثل الهندية والبنجابية^(٨٥) ولغة بنجلاديش والجوجاراتية، وعدد من اللغات المنقرضة التي استخدمت سابقاً في بلكانز بتركيا الجديدة وآسيا الوسطى، تطلق على تلك العائلة اسم الهندوأوروبية وتتجذر لغاتها من أصل بعيد يسمى بالهندوأوروبية البدائية أو PIE، يعتقد أن PIE كانت تستخدم منذ حوالي ستة آلاف سنة في مكان ما بأوروبا الشرقية، وعلى الأرجح بجنوب روسيا من قبل مجموعة من الناس يركبون الخيول والعربات ذات العجلات ويشتغلون بالزراعة وتربية الحيوانات، قد جاعتنا هذه المعلومات عن تلك اللغة من كلمات مثل "horse" (فرس)، "wheel" (عجلة)، "axle" (محور العجلة)، "grain" (بذرة)، "cow" (بقرة)، "sheep" (شاه)، "dog" (كلب) والتي بقيت في لغات ذات صلة باللغة المتحدث عنها، إننا على يقين بأن -على سبيل المثال - كلمة "sheep" (شاه) الإنجليزية تقابل

(٨٤) مجموعة من اللغات الهندية الأوروبية تشمل اللاتفية والليتوانية والبروسية القديمة .

(٨٥) لغة مستخدمة بالهند وباكستان .

كلمة "owis" المستخدمة في اللغة الهندوأوروبية البدائية (تستخدم النجمة للدلالة على تركيب من اختراع اللغوي) لأن الكلمة المقابلة لها في اللغة sanskrit (لغة هندية قديمة) هي "avis"، وكذلك "ovis" اللاتينية، "ois" اليونانية، "avis" الليتوانية، "oi" الأيرلندية القديمة، "ewe" الإنجليزية، كلها كلمات تعنى (شاه).

شيء طبيعي أن يتحدر اللغة الهندوأوروبية البدائية من أصل سابق عليها وهكذا حتى تصل إلى أصول اللغة البشرية والتي ربما تمتد إلى ١٠٠٠٠٠٠ عام أو يزيد، من الصعب تتبع الأمور لأقدم من ذلك، فقد أصبح حجم التغيرات التي حدثت باللغات كبيرا للغاية مما جعلنا عاجزين عن التعرف على أصل واحد للغة والتيقن منه - مع أن عدداً من اللغويين يبذلون الجهد من أجل التوصل لحل هذه المشكلة - وقد بدأ بعضهم الاعتقاد بأن العائلة الهندوأوروبية وغيرها من العائلات اللغوية اشتقت من أصل لغوي بالغ القدم أطلقوا عليه PROTO-NOSTRATIC وهم يرجحون استخدام هذا الأصل اللغوي منذ ما يقرب من ١٥٠٠٠ عام، ولكن الفكرة برمتها لا تزال محل نقاش.

بعيدا عما سبق، فإننا نجحنا في التوصل إلى أصول اللغة الإنجليزية وترجع إلى أناس مجهولين أميين عاشوا بمكان ما بنوروييا الشرقية منذ ما يقرب من ٦٠٠٠ عام، بدأ هؤلاء الناس في الانتشار تدريجيا في أنحاء كثيرة من آسيا وأوروبا، وقد بدأت أولى مجموعاتهم التحرك أولا إلى اسكنديتافا ثم تبع ذلك التوغل جنوبا إلى أوروبا، كما عبرت بعض المجموعات الأخرى بحر الشمال حتى بريطانيا حتى أصبحت لغتهم الجرمانية - والتي أطلق عليها في النهاية الإنجليزية - اللغة القومية لإنجلترا ثم لغة الإمبراطورية البريطانية، وأخيرا اللغة الأعظم مكانة والأوسع استخداما في العالم أجمع.

الفصل السادس

اللغة والعقل والمخ

أشرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب إلى الأهمية القصوى لجهازنا الصوتي الفريد في نوعه، وقدرته على تمكيننا من الكلام، هناك شيء آخر ظهر في إطار التطور الذي عايشه أسلافنا - بجانب ذلك الجهاز الصوتي - وكان له أهميته في استخدام اللغة أيضا : إنه المخ البشري الذي يتميز بـ كبر حجمه، عاش أجدادنا منذ آلاف السنين - بعد نجاحهم في السير بقامة منتصبة - بمخ صغير الحجم يشبه مخ الشمبانزي ثم ما لبث أن تضاعف هذا المخ بين عشية وضحاها إلى أربعة أضعاف حجمه، لم يتوصل أحد إلى سبب ذلك التضاعف برغم تعدد التكهنات حول هذا الأمر، ومن أصلح تلك التكهنات ما ذكر في شأن أن المخ تطور لسبب وحيد ألا وهو تمكيننا من استخدام اللغة.

سواء صح هذا التخمين أو أخطأ، فبطبيعة الحال كان هناك اهتمام كبير باكتشاف كيفية تنظيم اللغة داخل المخ ومكان تواجدها، تجلّى هذا الاهتمام في الجهود الشاقة لعلماء اللغة العصائبيين (الذين يدرسون العلاقة بين اللغة والمخ)، لم تتواجد أية طريقة مباشرة في الآونة الأخيرة لدراسة وظيفية أي مخ طبيعي صحيح، وكانت الطريقة الوحيدة لاستخلاص المعلومات هي دراسة الأسلوب الذي يتحدث به أولئك الذين خانهم الحظ وأصيبوا بتلف في المخ وكذا تشريحهم بعد الوفاة لتحديد الأجزاء المتألفة، علق أحد الأشخاص على عمل هؤلاء العلماء بأنه يشبه فحص حطام جهاز تليفزيون من أجل معرفة الطريقة التي يعمل بها، بالرغم من ذلك، فقد أبلى علماء اللغة العصائبيون بلاء حسنا في عملهم هذا.

مخ تالف ، كلام مضطرب :

يمكن أن يتلف المخ من جراء أسباب عدة : صدمة قوية على الرأس، جرح بالرأس، اختناق جزئي أو سكتة دماغية وهي أكثر الأسباب شيوعا، يستهلك المخ ربع

كامل من مقدار ما بالجسم من أكسجين، وإذا ما تجلط الدم بداخل الأوعية الدموية للمخ سيبقى ذلك هلاك الأنسجة المحيطة به بسبب الاختناق، لا يمكن التوقع بنتيجة هذا التلف ولكنه في الأغلب يسبب نتائج خطيرة من أبرزها حدوث نوع من تعطل قدرة المصاب به على استخدام اللغة، يطلق مسمى الحَبْسَة "Aphasia" عادة على اضطراب اللغة الناتج عن تلف المخ، ولكن تبعاً للمعنى الحرفي لهذا المصطلح وهو "فقدان القدرة على الكلام" بالإضافة إلى قلة عدد الذين يعانون من فقدان قدرتهم اللغوية بل انعدامهم حبذا العديد من علماء اللغة العصائيين الآن استخدام مصطلح "Dysphasia" والذي يعنى "عسر الكلام أو عسر فهمه".

لاحظ العديد من الباحثين المستقلين في النصف الأول من القرن التاسع عشر تشابه اضطرابات الكلام التي يعاني منها عدد من مرضى تلف المخ إلى حد كبير، كما أن جميع هؤلاء المصابين يعانون - بعد تشريح ما بعد الوفاة - من تواجد التلف بنفس المناطق بالمخ، أعلن الجراح الفرنسي "بول بروكا" في عام ١٨٦٤ توصله لتلك الحقائق عن طريق إجراء التجارب على ثمانية من المرضى، لذلك يطلق على الاضطراب الذي قام "بروكا" بتفسيره اسم "حَبْسَة بروكا" وكذلك أطلق اسم "منطقة بروكا" على الجزء الذي قام بدراسته، يبدو أنه بنفس درجة التوافق في التسمية يؤدي التلف بمنطقة بروكا إلى الإصابة بحبسة بروكا.

تشغل منطقة بروكا مساحة صغيرة لا تتعدى البوصة - من القشرة المخية (سطح المخ الخارجى المجدد ذو اللون الرمادى، والذي يتخذ شكل الجوز) - إذا وضعت إصبعك على رأسك وتحديداً فوق صدغك الأيسر ستكون مشيراً وقتئذ إلى منطقة بروكا التي تقع بالجزء الأيسر من المخ لدى غالبية البشر.

يسبب تلف منطقة بروكا نوعاً معيناً من الحبسة يسهل التعرف على أعراضه حيث يكون خروج الكلام من المصاب بطيئاً وشاقاً للغاية، أى أن كل كلمة تُنطق بشق الأنف، بالمثل يكون إيقاع الكلام غير طبيعى وكذلك التنغيم العادى، وفوق هذا وذاك يمثل اضطراب النحو أكثر الأمور جذباً للانتباه، فلا مكان له عند المصابين بذلك النوع من الحبسة، إنهم لا يستطيعون تكوين جملة نحوية صحيحة، ولا يعرفون أغلب الكلمات النحوية البسيطة مثل "of" (من، عن)، "the" (ال)، "to" (نحو، إلى)، "if" (إذا)، "be" (يكون)، "or" (أو)، (مع ملاحظة أنهم يحتفظون بالكلمات التي تشتمل على نفس العدد

من الأصوات مثل "bee" (نحل) و "oar" (مجداف)، كذلك فهم يضعون العلامات النحوية للكلمات مثل علامات الجمع، وعلامات الأزمنة الماضية و -ing الخاصين بالأفعال، إنهم يستطيعون بالكاد النطق بأي أفعال، فمعظم الكلمات التي ينطقونها بصعوبة ما هي إلا أسماء، أخيراً، يتميز نطقهم بالفقر حيث يتداخل الكلام مع بعضه البعض فيصعب تفسيره، إليك نموذج لكلام أحد حبيسي بروكا الذي يجيب على سؤال وجه إليه عن سبب حضوره إلى المستشفى :

نعم - أه - يوم الاثنين - أبي - وأبي - أه - مستشفى - وأه - يوم الأربعاء - يوم الأربعاء - الساعة التاسعة وأه يوم الخميس - الساعة العاشرة أه الأطباء - اثنين اثنين - أه الأطباء و - أه - الأسنان - نعم، وطبيب - أه بنت - واللثة ، وأنا .

بالرغم من ذلك يجعل حديث حبيسي بروكا قدراً لا بأس به من المنطقية والدلالة، فهم يستطيعون فهم ما يقال لهم فيما عدا الجمل المعقدة نحوياً مثل : "The boy who was kissed by the girl cried" (بكى الولد الذي قبلته البنت)، إنهم يستطيعون القراءة بصورة طبيعية ولكن العقبة التي تعترضهم هي الأشكال المصرفة العادية مثل "dogs" (كلاب)، "wanted" (أراد)، وبالعكس يحسنون التعامل مع التصريفات الشاذة مثل "children" (أطفال)، "took" (أخذ)، علاوة على ذلك فهم على علم تام بما يكابدونه من صعوبة في التحدث، وربما يكون هذا أحد أسباب استجابتهم للعلاج، إنهم يتحسنون كثيراً بمرور الوقت وإن كان من الصعب شفاؤهم بصورة نهائية.

عرّف الباحث الألماني "كارل ويرنك" عام ١٨٧٤ نوعاً ثانياً مختلفاً تماماً من الحبسة ويعرف حالياً باسم "حبسة ويرنك"، ينطق المصاب بذلك النوع من الحبسة كلامه بسرعة وطلاقة وكأنه يتحدث تباعاً بون أن يلتقط أنفاسه، يتخذ كلاً من الإيقاع والتنغيم مسارا طبيعياً، كما أن معظم التركيبات النحوية العادية تأتي سليمة، إنك إذا استمعت بون اكرات إلى حديث أحد هؤلاء المرضى ستفشل في ملاحظة أي خطأ به، ولكن بمجرد أن ترهف السمع سوف تلاحظ المشكلة التي يجابهها حبيسي ويرنك : إن ما يقوله لا يمثل أي معنى، ربما يتمكن من إخراج مقاطع قصيرة كل منها ذات معنى على حدة ولكن عند ربط هذه المقاطع لا يتكون معنى مفهوم، كما أن هذه المقاطع تنفصل عن بعضها البعض بكلمات عديمة المعنى، إليك هذا النموذج :

إذا استطعت سوف، أه إننى أستخدم الكلمات استخداما خاطئا لقولهم، كل الحلاقين عندما يوقفونك يكررون ويكررون ، إذا عرفت ما أعنيه، حسنا، إننا كنا نحاول للأفضل بقدر استطاعتنا بينما فى وقت آخر كانت الأسرة هناك ...

يجد حبيسو ويرتك صعوبة بالغة فى الفهم، فهم يستوعبون قليلا وربما لا يستوعبون أى شىء على الإطلاق مما يقال لهم، أكثر من ذلك أنهم لا يدركون ما هم بصدده من مشكلات، وهم يصابون بالإحباط والضيق كثيرا عندما يبدي أى شخص عدم قدرته على فهم ما يقولون، من الطبيعى أن تقابل صعوبة بالغة عند معاملة شخص ما لا يدرك ما لديه من مشاكل، وهم فوق ذلك قلما يستجيبون للعلاج.

استطاع ويرتك - مثل بروكا - تحديد منطقة بعينها بالمخ يترتب على تلفها تلك الأعراض المذكورة أنفا، تفوق منطقة ويرتك منطقة بروكا حجما وتقع مثلها بالجزء الأيسر من القشرة المخية عند معظم الناس، يمكنك تحديد مكانها إذا وضعت إصبعك فوق أذنك اليسرى مع تحريكك إلى الخلف قليلا.

نخلص مما سبق أن تلف منطقة ويرتك من شأنه التأثير سلبيا على الاستيعاب وإضعاف القدرة على فهم المفردات الجديدة إلى درجة كبيرة، أما تلف منطقة بروكا - على النقيض - يدمر إمكانية تكوين تركيبات نحوية صحيحة ويضعف القدرة على النطق، أوضحت الأبحاث فى المجال نفسه أن منطقة بروكا تكون بمثابة المنطقة المحركة بالمخ والتي تتحكم فى الحركات العضلية، بينما تتجانس منطقة ويرتك مع المنطقة السمعية المسئولة عن معالجة المدخلات التى تأتىها عن طريق الأذنين، يفسر هذا التصنيف الطريقة التى تنتظم بها اللغة داخل المخ، فالمنطقة السمعية تستقبل المدخلات عن طريق الأذنين ثم ترسلها إلى منطقة ويرتك المتولدة مسؤولة الاستيعاب، فيما يخص عملية الكلام ترسل منطقة ويرتك الكلمات إلى منطقة بروكا - والتي تقوم بإنتاج التركيبات النحوية المرادة بما فيها كل الكلمات النحوية والواحق، ثم ترسل تعليماتها إلى المنطقة المحركة التى توجه عضلات الأعضاء الصوتية من أجل إخراج النتائج أو الكلام.

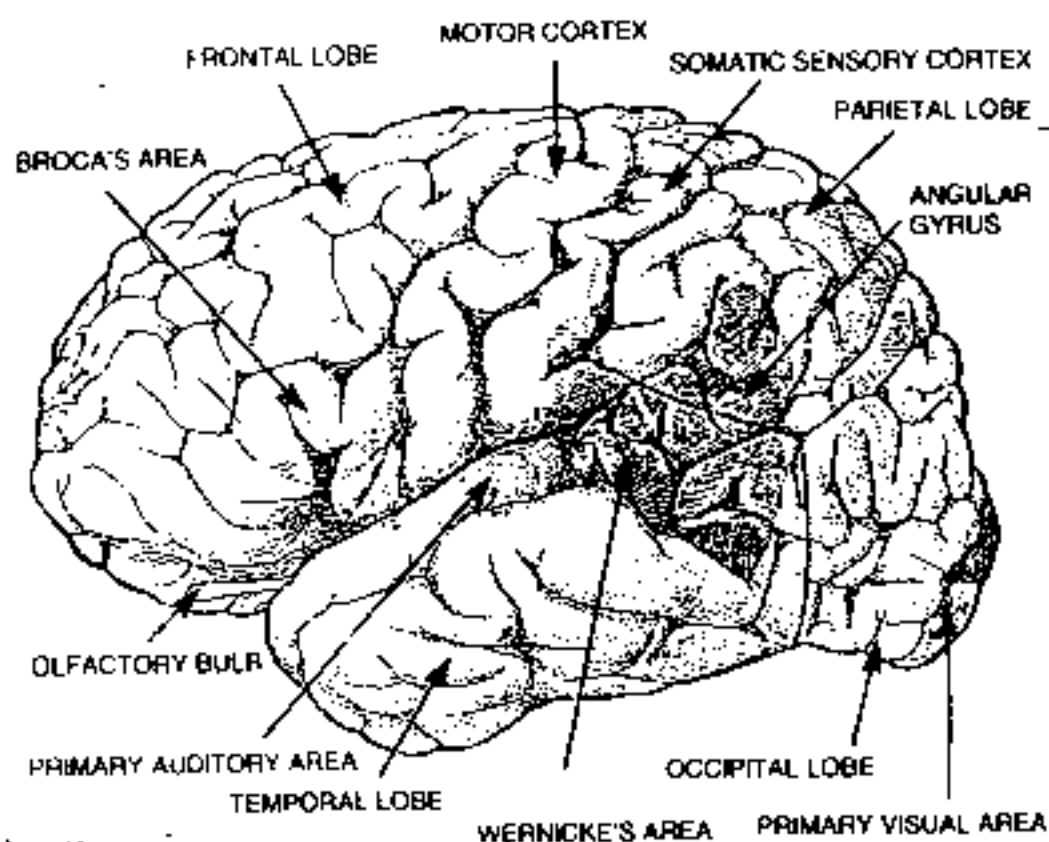
تتطلب تلك العملية - التى يمكن تسميتها بالنموذج القياسى - تواجد صلة بين منطقتى ويرتك و بروكا، وبالفعل توقع بروكا منذ عهد بعيد بحتمية وجود هذه الصلة كما

أنه أشار إلى نوع آخر من الحبسة ينتج من حدوث تلف بتلك الصلة التي تربط بين المنطقتين، اكتشفت تلك العلاقة مثلما تم التنبؤ بها، وبالفعل وجدت حزمة من الألياف تأخذ شكل الحرف "لا" وتسمى حزمة الألياف العصبية المقوسة وهي التي تصل بين منطقتي ويرنك وبروكا مباشرة، يؤدي تلف هذه الصلة إلى الحبسة الاتصالية وفيها يعاني المريض من نفس أعراض حبسة ويرنك إلا أنه يفلح في الحفاظ على مستوى استيعابه ويزيد على حبسة ويرنك عرض واحد وهو عدم قدرة المريض على ترديد ما يقال له، هذه النتيجة النهائية هي كل ما تنبأ به النموذج القياسي : بما أن منطقة ويرنك تعجز عن الحديث إلى منطقة بروكا فإنها تعجز أيضا عن نقل ما يصلها أو ما تسمعه إليها.

أما في حالة "حبسة العزلة" النادرة الحدوث تترك الإصابة الشاذة المناطق الخاصة باللغة في المخ سليمة إلا من اتصالها بباقي أجزاء المخ، لذا فإن المصاب لا يقدر على فهم الكلام الموجه إليه، كما لا يمكنه كذلك الحديث بطلاقة اللهم إلا عند التفوه ببعض العبارات التقليدية والمقاطع الطفولية، وهو برغم ذلك يتمكن من تكرار أي شيء يقال له بصورة ميكانيكية، كما يتسنى له غناء الأغنيات وتعلم الجديد منها.

هناك حقيقة هامة بشأن ما للحبسة من تأثير على مستخدمي لغة الإشارة كتأثيرها على المتحدثين العاديين، نجد أن مستخدم الإشارة عند إصابته بحبسة بروكا تجيء إشارات بطيئة ولا يعبأ مطلقا بالتصريفات النحوية (تذكر أن لغات الإشارة - كلفة الإشارة البريطانية - تتضمن الكثير من القواعد النحوية كأي من اللغات المتحدثة الأخرى)، بينما يشير المصاب بحبسة ويرنك بصورة سريعة وطلاقة ولا يفهم من إشارات إلا القليل، كما أنه يواجه صعوبة بالغة في فهم إشارات الآخرين، لا ينفي هذا الحقيقة القائلة بأن كل مستخدم لغة الإشارة المصابين بالحبسة والذين لا يعانون من الشلل يستطيعون استخدام أيديهم بصورة طبيعية لأغراض أخرى غير الإشارة لكلام، من هذه الأغراض الإيماءات اللافغوية كالتميح والتلويح، وفي هذا دليل قاطع على أن مناطق اللغة الموجودة بالمخ هي المتحكم الرئيسي في إخراج اللغة، أي أن هذا الدور - إخراج اللغة - ليس حكر على الجهاز الصوتي أو الأذنين.

· يعرض الشكل (٦-١) مخططا للنصف الأيسر من المخ بما يحويه من مناطق اللغة والمناطق الأخرى طبقا للنموذج القياسي.



شكل (١-٦)

النصف الأيسر للمخ

Occipital lobe	الفص القذالي	Wernicke's area	منطقة ويرنك
Temporal lobe	الفص الصدغي	Primary visual area	المنطقة البصرية الرئيسية
Broca's area	منطقة بروكا	Primary auditory area	المنطقة السمعية الرئيسية
Motor cortex	القشرة	Frontal lobe	الفص الأمامي
Parital lobe	الفص الخلفي	Somatic sensory cortex	القشرة الحسية الجدارية

ثبت نجاح النموذج القياسي في بيان الآثار المترتبة على تلف المخ، بالطبع لا تتطابق أعراض الحُبسة عند اثنين من المصابين بتلف المخ، كما أن هذا التلف لا يحدث في منطقة بعينها بالمخ عند جميع المصابين، ومن هنا تتعدد الأعراض التي يعاني منها المصابون بالحُبسة، بالإضافة إلى ما سبق ذكره، أضافت بعض الأبحاث الحديثة وحلاً إلى الماء عندما أثبتت أن منطقتي اللغة بالمخ لا يشغلان مكانهما - الذي افترضته

الأبحاث السابقة - عند العديد من الناس، بل إنهما يبعدان عنه بقليل، لكننا تمكنا من مشاهدة ما يجري بداخل مخ الشخص السليم بواسطة الأساليب العلمية المتوافرة في وقتنا الحاضر ومنها بصفة خاصة المسح الضوئي الذي يطلق عليه اختصارا (PET) أي المسح الضوئي بأشعة إكس عن طريق إطلاق جسيم موجب ذى كتلة تعادل كتلة الإلكترون، ومما أكدته هذه الأساليب هو أن مناطق اللغة المتعارف عليها متواجدة بالفعل وتنشط عندما يؤدي الفرد إحدى الوظائف اللغوية مثل الاستماع أو الكلام أو القراءة.

من أكثر جوانب النموذج القياسى تعقيدا - وهو الشيء غير المتوقع - والتي تم اكتشافها منذ زمن بعيد هي أنه في الوقت الذي تشغل مناطق اللغة جزءا من النصف الأيسر للمخ عند معظم الناس، توجد هذه المناطق بالنصف الأيمن عند ثلاثة بالمائة منهم، وقد يحدث أن توجد بكلا النصفين في حالات نادرة، مما يدعو للدهشة أن كل المنتمين إلى نسبة الثلاثة بالمائة يستخدمون يدهم اليسرى بدلا من اليمنى (كما أن بينهم من يستخدم كلتا يديه في الكتابة ببراعة)، ولكن بالرغم من ذلك توجد مناطق اللغة بالنصف الأيسر من المخ عند نسبة ٨٥٪ من الذين يستخدمون يدهم اليسرى، إنه من المستحيل معرفة الضابط لتلك العملية ولكن دعونا ننظر بإمعان أكثر إلى أمر اليمين واليسار هذا.

اليسار مقابل اليمين :

ينقسم المخ البشري - والذي يحتوى على معظم خصائصنا الإدراكية الراقية - إلى قسمين متماثلين يطلق عليهما النصفين، يتم الربط بين هذين النصفين بواسطة حزمة صلبة من الأنسجة تسمى الجسم الجاسى، منذ زمن بعيد اكتشفت مسئولية كل نصف من هذين القسمين عن أحد نصفي الجسم، ولكن لأن أسلافنا القدامى قدموا لنا دليلا أطاح بذلك الاكتشاف أصبح النصف الأيسر من المخ هو القائم على رعاية الجزء الأيمن من الجسم والعكس صحيح، لذلك - ونحن بمتحى عن الحُبسة - يمكن أن يحدث تلف النصف الأيسر من المخ عمى العين اليمنى أو صمم الأذن اليمنى أو شلل الجزء الأيمن للجسم.

لا تعد اللغة الخاصة الوحيدة التي تشغل حيزا بالنصف الأيسر للمخ، فمن الظاهر أن معظم القدرات التحليلية تتركز به أيضا ومن هذه القدرات : القدرة على

القيام بالعمليات الحسابية وحل المسائل الجبرية وترتيب الأشياء ترتيباً زمنياً وفقاً لحدوثها، كما نجح علماء اللغة العصائيون - بالإضافة إلى ذلك - في تحديد عدد من المناطق المميزة والتي تقع بالنصف الأيسر للمخ وتقوم بوظائف محددة، كمناطق اللغة.

يختلف نصف المخ الأيمن عما سبق ذكره، فهو يتخذ شكلاً غير منتظم بعكس النصف الأيسر كما يقل بل ينعدم عدد المناطق المتخصصة به، ولكن تتجلى وظيفته الأساسية في عملية الإدراك وتداعي المعاني والأفكار، نُسقُ لك مثلاً، انظر إلى الشكل رقم (٦-٢) ماذا ترى؟ بالتأكيد أنك سترى على الفور كلمة إنجليزية، ولكن لماذا؟ ففي الحقيقة لا توجد أية كلمات بالشكل، لا يوجد سوى مجموعة مختلطة من الخطوط المستقيمة، بالرغم من ذلك فنصف المخ الأيمن لديه من القدرة ما يمكنه من التعرف على الأشكال المألوفة التي تتضمن خليطاً من المعلومات وإيجاد تفسير لها، وهذا ما يفعله النصف الأيمن للمخ دائماً وأبداً، إنه يتخبركم كم المعلومات الحسية التي ترد للمخ وينظمها في أشكال مفهومة ومألوفة، سؤالنا الآن هو: ماذا يحدث إذا تلف نصف المخ الأيمن؟



شكل (٦-٢)

اختبار لنصف المخ الأيمن

تمثل حالة الدكتور P. أكثر حالات تلف نصف المخ الأيمن شهرة، إنه موسيقى بارع ومعلم للموسيقا يعاني من سكتة دماغية خفيفة بالنصف الأيسر من مخه، لم تظهر للسكتة الدماغية أية آثار عليه، فقد ظل كما كان ذكياً ومثقفا لدرجة كبيرة، قادراً على الكلام بطلاقة وأناقة، على إلقاء النكات الطريفة، تذكّر الحقائق، اللعب، الغناء والاستمرار في ممارسة التدريس. لقد كان طبيعياً في كل شيء فيما عدا شيئاً واحداً.

لقد فقد الدكتور P. القدرة على تذكر الأشياء الرتيبة التي ذكرناها لتونا، لم يعد قادراً على تجميع المعلومات المرئية وتحويلها إلى أشكال متعارف عليها، نتيجة لذلك لم يعد قادراً على التعرف على الأشياء التي يراها، عندما وضع شيء ما في يده همّ بفحصه بحرص وباستخدام القدرات التحليلية السليمة التي يقوم بها النصف الأيسر من مخه قال طولها حوالي ست بوصات ... تتخذ شكلاً معقداً ذا لون أحمر ملحقاً به شيء أخضر، عندما كررنا عليه السؤال ماذا تعتقد أن يكون ذلك الشيء؟، أخذ يمعن النظر في حيرة ثم قال "الأمر ليس بسيط ... هذا الشكل ينقصه التماثل البسيط الذي يشبه أي مجسم أفلاطوني، وإن كان له تماثل من نوع أرقى، عندما أمر بشم ذلك الشيء، نظر في حيرة ثم استجاب للأمر وفجأة رجع إلى صوابه قائلاً: "جميل! زهرة صغيرة!".

لم ينس الدكتور P. كلمة زهرة أو مفهوم الزهرة، بل فقد القدرة الرتيبة - قدرتنا على رؤية الأشياء المعتادة والتحدث عنها - لوضع كم من الصور المرئية للون الأحمر والأخضر معا في كل مترابط لتكون النتيجة شيئاً معيناً ينتعى لفئة الزهور، لقد مكنته النصف الأيسر السليم من مخه من تكوين وصف دقيق ومفصل عن كل جزء من الشيء الذي يراه وكذلك التعبير عن ذلك الوصف بلغة إنجليزية سليمة، لكن عجز النصف الأيمن التالف عجز التعامل مع المعلومات المرئية، لهذا لم يقو على إمداد النصف الأيسر بفكرة مترابطة تنم على تسمية هذا الشيء، يكمن الخلل في المعالجة المرئية فقط، ففي الوقت الذي توافرت به المعلومات غير المرئية - الشم في حالتنا هذه - أدى النصف الأيمن من المخ وظيفته بكفاءة، ولم يجد الدكتور P. أدنى صعوبة في التعرف على الرائحة المعتادة للزهرة وتفسير ما تعنيه هذه الرائحة.

نتج عن عجز الدكتور P. أمر مؤسف للغاية وهو فقدان القدرة على التعرف على الوجوه، إنه لم يتمكن من معرفة أكثر الوجوه ألفة لديه فحسب بل إنه أيضا لم يستطع الجزم بكون الشيء الذي ينظر إليه وجها أم لا، عندما اختبر في هذا الأمر بعرض صور فوتوغرافية عليه لم يتمكن من التعرف على أغلب الأشخاص بالصورة بما فيهم أخيه وزوجته ونفسه، تسنى له من حين لآخر التعرف على شخص ما عن طريق التقاط واحدة أو اثنتين من الصفات المميزة له : على سبيل المثال، كان عند رؤية الشعر والشارب الكثيف يظن أن الشخص الذي بالصورة هو "ألبرت إينشتاين"، لكن عجزه بلغ المدى عندما كان يربط على رأس عداد وقود السيارات مدعيا أنهم أطفال، وكان يحاول الدخول في حوارات مع النقوش المنحوتة على الأثاث معتقدا أنها وجوه.

لا يعد عجز الدكتور P. عجزا لغويا بصفة أساسية رغم تبعاته التي لا يمكن إغفالها والتي أثرت بدورها في استخدامه للغة بشكل طبيعي، قد تفصح قدرات النصف الأيسر للمخ عن اتصالاتها بالجانب اللغوي بعدة طرق مباشرة، تتمثل إحدى هذه الطرق في التعبير عن المشاعر، فنجد بعض المصابين بتلف النصف المخ الأيمن يفقدون القدرة على التعبير عن عواطفهم - بالرغم من أنهم لا يزالون يشعرون - ونتيجة لذلك يأتي حديثهم - الذي يكون طبيعيا بخلاف هذا الجانب - فاترا بلا حياة وآليا بل في أغلب الأحيان ميكانيكيا، كما تبقى وجوههم مسمطة وإن تأرجح شعورهم ما بين الزهو والامتعاض، عادة يتمكن المصابون بتلف النصف الأيسر للمخ الحاد، والذين فقدوا القدرة على الكلام تماما - من الغناء وفي بعض الأحيان يكون غناؤهم جيدا كما يستطيعون تعلم الأغنيات الجديدة : يبدو ظاهريا أن تعلم كلمات الأغنيات الجديدة والقدرة على النطق بها وظيفة من الوظائف الموكلة بها نصف المخ الأيمن، مما يثير الدهشة احتفاظ العديد من هؤلاء الناس بقدرتهم على القسم كضباط بحرية - يبدو أن نصف المخ الأيمن به بعض المفردات ! (في الواقع هناك من الأسباب ما يجعلك تعتقد بأن القسم - مثله في ذلك مثل الضحك والبكاء والصراخ - لا تحكمه القشرة المخية على الإطلاق ، بل يقع تحت تأثير جزء من المخ أعمق قليلا وأكثر قدما).

يدعو أمر مستخدم لغة الإشارة المصاب بتلف النصف الأيمن من المخ إلى الدهشة، فمن شأن هذه الإصابة إتلاف القدرة على التعرف على تعبيرات الوجه العادية، ولكن هذا لا يفقد المصاب القدرة على استخدام تلك التعبيرات والتي تعد جزءا

من القواعد النحوية للغة الإشارة - في ذلك برهان على أن استخدام اللغة للتعبيرات يحكمه جزء من المخ مختلف عن ذلك الجزء الذي يتولى أمر التعبيرات غير اللفوية - كذلك يحدث تلف النصف الأيمن للمخ عجزاً من نوع غريب يطلق عليه "إهمال اليسار" : فيه يفضل المصاب بالرغم من كونه مبصراً في رؤية أى شيء يقع جهة اليسار، كما أنه يفضل في رسم الجانب الأيسر في أية لوحة فنية يقوم بتصويرها، حتى إنه يفضل في ارتداء الملابس بالجزء الأيسر من جسده، لكن مستخدم لغة الإشارة الذي يعاني من نفس هذا النوع من العجز يستخدم الجانب الأيسر من مجال الرؤية بصورة طبيعية عند الإشارة، في هذا دليل آخر على استقلال الخصائص اللفوية بدرجة كبيرة عن غيرها من الخصائص، أولئك الوظائف غير اللفوية للمخ.

تمثل الطريقة التي تحفظ بها الكلمات داخل المخ واحدة من الأمور التي تبحث على الحيرة، في اعتقادنا أن منطقة وبرانك تلعب دوراً حيوياً كسبيل لدخول المفردات، وهذا لا يعنى أن الكلمات تحفظ داخل تلك المنطقة، إننا متأكدون تماماً من هذا الأمر، جاء عدد من حالات عجز اللغة أثناء السنوات القليلة الماضية بأفكار جديدة ولكنها لم تزدها إلا دهشة وحيرة، فقد عانى معظم المصابين بالحُبسة من عرض العجز عن إيجاد الكلمات المعبرة عن الأشياء، كما أن بعضاً منهم - وإن كان يمارس الحديث بصورة طبيعية - يكاد لا يجد أية كلمات على الإطلاق، هذا وتظهر عند مرضى بعينهم أنماط من الحُبسة لا يصاحبها أية أعراض، إليك النموذج التالي:

ورد أن العديد من المصابين لم يقابلوا أية صعوبة في إيجاد مسميات للأشياء غير الحسية (الجمادات) مثل الكرسي والطريق، في الوقت الذي لا يمكنهم إيجاد مسميات تعبر عن الكائنات الحية مثل سيدة وكتب، هل يعنى ذلك أننا نحتفظ بالكلمات الدالة على الكائنات الحية في مكان مخصص بالمخ؟ في حالة أخرى نجد رجلاً فقد كل الكلمات الدالة على الفواكه والخضراوات فقط: ليست عنده أية مشكلة من أى نوع بشأن كلمات أخرى، فمشكلته تكمن في أنه لا يستطيع تسمية أى نوع من الفاكهة أو الخضراوات سواء تم إمداده بوصف لذلك النوع أو صورة له أو حتى إعطائه إصبع موز أو ثمرة خيار، كما أنه لا يمكنه الجزم إذا ما كان الشيء الذي بيده والذي يمثل له مشكلة نوعاً من الخضراوات أم الفاكهة، يبدو الأمر غير معقول إذا اعتقدنا أننا نحتفظ

بالكلمات الدالة على الخضروات والفاكهة بمكان ما داخل المخ، كما أن عدداً قليلاً من اللغويين سوف يقنع بهذه النتيجة، إذن كيف يمكننا تفسير ما يحدث لهذا المريض؟

ربما تكون حالة السيدتين اللتين سنتحدث عنهما فيما بعد من أكثر الحالات إثارة للدهشة، إنهما يعانيان من سكتة دماغية بالنصف الأيسر للمخ، ولقد ثبت أنهما لا يواجهان أية صعوبات عند استخدام الأسماء، بل تكمن الصعوبة القصوى في الأفعال حتى وإن كانت الكلمة التي تعبر عن كل من الاسم والفعل كلمة واحدة، إنهما لا يواجهان أية صعوبة في نطق وكتابة الجمل "There's milk in the glass" (يوجد لبن بالكوب) أو "That's a nice picture" (إنها صورة لطيفة)، في كلتا الجملتين كلمتي (لبن ، صورة) أسماء، أما في الجمل التي تكون فيها هاتين الكلمتين أفعالاً مثل "She can milk a cow" (إنها تستطيع حلب البقرة) أو "Try to picture the scene" (حاول رسم المشهد) فإنهما لا تحسنان التصرف حتى إن كانت الجملة تملئ عليهما ويطلب منهما كتابة كلمة واحدة بها، فإنهما في هذه الحالة يستطيعان كتابة الاسم وليس الفعل، يرجح هذا الأمر أن الأسماء والأفعال تحفظ بأماكن مختلفة بالمخ، يتقبل العديد من اللغويين هذه النتيجة أكثر من تقبلهم للنتيجة الخاصة بأسماء الفاكهة والخضرا، هذا ولم يتسن لنا بعد معرفة كيفية تخزين الكلمات، أي أن كل ما تم لنا معرفته زاد الأمر تعقيداً.

يعد فقدان بعض المرضى للغات بأكملها أمراً من الأمور التي نقف أمامها مكتوفي الأيدي ولا تزيدنا سوى حيرة، يفقد الكهول الذين تعلموا لغات عديدة في مراحل متقدمة من حياتهم - الذين أصيبوا بمرض يتلف العقل كالزهايمر - اللغة ثلث الأخرى ولكنهم في الأغلب يحتفظون بلقنتهم الأم أطول فترة ممكنة، بينما يفقد صغار السن - الذين يتحدثون لغتين أو ثلاث والذين تعرضوا لتلف بالمخ - كل اللغات التي تعلموها مرة واحدة ويستعيدونها كذلك مرة واحدة وبسرعة كبيرة، فعلى سبيل المثال فقد أحد الكنديين الفرنسيين - ثنائي اللغة - لغته الفرنسية وأبقى الإنجليزية فأصبح لا يستطيع التحدث مع زوجته الفرنسية أحادية اللغة، بعد مرور أسبوع استعاد اللغة الفرنسية وفقد الإنجليزية فأصبح لا يمكنه الحديث مع الأطباء والمرضات بالمستشفى التي يتلقى بها علاجه، يستمر الأمر هكذا في بعض هذه الحالات لمدة شهور وما من أحد يمكنه تفسير ما يحدث.

في الواقع، اكتشف أن المصابين بالحُبسة يعانون من مجموعة أعراض يمكن التعرف عليها : فمنهم من يستطيع التحدث وليس القراءة، ومنهم من يمكنه القراءة وليس الكتابة، ومنهم من يتمكن من الكتابة وليس القراءة (حتى قراءة شيء تم لهم كتابته منذ فترة وجيزة)، مكنت هذه الملاحظات المحيرة العديد من المتخصصين من الوصول إلى نتيجة مفادها أنه من الواجب أن تكون قدرتنا اللغوية مجزأة إلى حد ما ، أى لا تكون كلا واحدا بل يجب أن تقسم إلى عدد من التقسيمات الجزئية المميزة، كل منها يشغل جزءاً مختلفاً من الألياف العصبية بالمخ، لا تعد هذه النتيجة أمراً مفاجئاً بالرغم من كونها باعثة لكثير من النقاش ، بما أننا أدركنا جزئية خصائصنا العقلية - كما يتراعى لنا من تجربة الدكتور P. - تعتبر الرؤية جزئية فالأجزاء المختلفة من المخ تتولى مسئولية الجوانب المختلفة للرؤية، إذن فلماذا نتوقع أن تكون اللغة مختلفة عن ذلك؟

كما أننا ندرك تمام الإدراك أن عملية معالجة اللغة جزئية، فعلى سبيل المثال يقوم المخ دائما عند سماع شخص ما يتحدث بتحليل أصوات الكلام إلى ثلاثة مكونات كحد أدنى وهي : هوية الصوت، ونبرة الصوت (غاضبا أو فرحا أو غير ذلك)، والمحتوى اللغوي، حتى وإن كنا نستمتع إلى لغة أجنبية لم يسبق لنا معرفتها، يمكننا التعرف على أصواتها المفردة واستنتاج نبرتها، ولكن يظل الجانب اللغوي غير واضح بالنسبة لنا، من الواضح أن المخ يكون فواصل بين هذه الأشياء الثلاث ويتعامل معها كل على حدة.

النفس المقسمة :

تظهر أعراض مرض الصرع الحاد على شكل صدمة كهربائية تصيب المخ : ففي إحدى نوبات هذا المرض تتدفق دفعات من المؤثرات العصبية على المخ باتجاه دائري مما يجعله غير قادر على القيام بوظائفه الطبيعية فلا يستطيع المصاب التحكم في نفسه، توصل الجراحون منذ سنوات قليلة مضت إلى طريقة يتم بها تقليل ثورة ذلك النشاط العصبي هذا وهي قطع الجسم الجاسي.

يمثل الجسم الجاسي - كما سنذكر - العنصر الوحيد الذي يصل ما بين نصفي المخ الأيمن والأيسر، لذا فإن قطعه سينتهي أي اتصال ما بين التصفين، لكن هذه الطريقة تؤدي في أغلب الحالات إلى إرضاء المرضى الذين يعانون من هذا المرض المزمن إلى حد كبير، لذلك قنع العديد من المرضى بإجراء العملية على أمل أن يحيوا الحياة الطبيعية والخالية من النوبات الصرعية الحادة والمدمرة، بالفعل تم لهم الخلاص من تلك النوبات ، لكن ماذا يكون شكل الحياة بمخ مقسم؟

تكون الحياة غريبة، وإن كانت هذه الغرابة لها معنى فى إطار ما ذكرناه بشأن
وظيفية المخ ، انقسامه إلى نصفين كل منهما ذى وظيفة محددة.

هب جدلا أن شخصا سليما وطبيعيا ويمك مخا مقسما أعطى مطرقة، سيتمكن
بالفعل من استخدامها بكلتا يديه وبصورة طبيعية، إذا أمسك المطرقة بيده اليمنى،
سيتمكن من فهم وتلبية التعليمات الموجهة إليه بفعل شىء ما بهذه المطرقة، لكنه لن
يفعل شىئا إذا أمسكها بيده اليسرى، إنه يستوعب التعليمات بدقة ويمكنه شرح
المطلوب منه فعله ، ولكنه لا يستطيع فعله، فلماذا؟

يمكننا تفسير ما يحدث على النحوالتالى : تشغل مناطق اللغة حيزا من النصف
اليسر للمخ الذى يتحكم باليد اليمنى، لذلك يستطيع هذا النصف تفسير التعليمات
المشار إليه يفعلها وتوجيه اليد اليمنى لفعل المطلوب، بينما يتحكم النصف الأيمن باليد
اليسرى، وفى حالة قطع الجسم الجاسى لا يجد النصف اليسر سبيلا للاتصال
بالنصف الأيمن الذى لا يملك خصائص لغوية خاصة به، من هنا يمكن للنصف الأيسر
فهم التعليمات ولا يمكنه توصيلها لليد اليسرى، تؤكد هذه النتائج بما لا يدع مجالا
للشك أن اللغة تقع بالنصف اليسر من المخ وحده عند أغلب الناس.

أثبتت الدراسات التى أجريت على المصابين بانقسام المخ أن النصف الأيمن منه
لا يخلو تماما من الإمكانيات اللغوية، فهناك تقنيات بسيطة تمكنه من توصيل كلمات أو
أشياء محسوسة لعين واحدة أو أذن واحدة فى المرة الواحدة، لا يجد المصاب بانقسام
المخ أدنى صعوبة فى فهم أو شرح الكلمات التى تأتى إلى العين اليمنى أو الأذن
اليمنى (مسئولية النصف الأيسر)، ولكن حتى إذا استقبلت العين أو الأذن اليسرى
المنبه يستطيع النصف الأيمن التعرف على عدد ضئيل من هذه المنبهات، أى أن القدرة
اللغوية للنصف الأيمن محدودة للغاية ولكنها غير منعدمة.

قد يبدو سلوك بعض المصابين بانقسام المخ غير متوقع بالمرة فى بعض الحالات،
معظمهم عندما يرى صورة إباحية تعرض على عينه اليسرى فقط ربما يحمر خجلا أو
يقهقه ولكنه لا يستطيع وصف ما رآه بل يصر على أنه لا يرى شىئا على الإطلاق، كما
شكت إحدى السيدات من معاناتها فى اختيار ملابسها بالصباح لأن يديها تصر على
اختيار شىء لا ترغبه هى، كما أنها عندما تقوم بقراءة كتاب يجب عليها أن تجلس على
إحدى يديها التى تدير الصفحة كلما همت بالقراءة، أذهل هذا السلوك كلا من علماء

اللغة العصائيين والفلاسفة، إنه يوحى بأن كل نصف من المخ له ذاتيته وشعوره، وهما يندمجا فيصبحان شيئا واحدا عن طريق الجسم الجاسي وعندما يفقد هذا الاندماج يذهب معه نصف المخ كل في طريق.

أشياء مضحكة، وألسنة :

يعرف علم اللغة النفسى بأنه دراسة العلاقة ما بين اللغة والعقل، يعنى علماء اللغة النفسيون بصفة أساسية بطريقة معالجة اللغة : فهم يهتمون كثيرا بالخطوات التي من خلالها تخرج اللغة وتفهم، لقد أعد هؤلاء المتخصصون عددا من التقنيات المتماثلة لاختبار ما يقوم به الأفراد عند إسناد مهام مختلفة لهم فى إطار مناخ تجريبي، تبعا لذلك تم استخلاص مجموعة من المعلومات القيمة من الحديث التلقائى لهؤلاء الأفراد بجانب الأفعال العملية، وواحد من أروع الأشياء التي تنور فى فلك الحديث التلقائى هو حدوث هفوات اللسان.

يطلق أحيانا على هفوات اللسان - أو لنقل الأكثر شهرة منها - اسم " السبونرية" نسبة إلى السيد المبجل " و.أ.سيوتر " بتيو كولدج، جامعة أكسفورد الذي أنتج العديد من تلك الهفوات.

بالمثل تنتمى الكلمات المحولة إلى نفس الفئة النحوية بشكل أو بآخر، يقول الناس أشياء مثل " He threw the window out the clock " (ألقى النافذة من الساعة) وبها أسماء محولة، أو " Please wash the table and clear the dishes " (من فضلك اغسل المائدة ورتب الأطباق) وبها أفعال محولة ، لكنهم لا يقولون مطلقا أشياء مثل "He clocked the throw out the window" وبها الأسماء والأفعال محولة.

يتعمل الاكتشاف الثالث فى الكلمات التي يتم استبدالها بكلمات أخرى، فى هذه الحالة تكون الكلمة المستخدمة قريبة الصلة فى معناها بالكلمة التي كان من المفروض استخدامها، لذلك نجد جملا مثل " Her marriage broke up an hour and a half ago " لقد انفسخ عقد زواجها منذ ساعة ونصف) (المقصود منذ سنة ونصف مضت)، "I really like to get up in the morning" (أحب حقا أن أستيقظ فى الصباح) (المقصود أكره حقا الاستيقاظ فى الصباح).

استكمالاً لتلك الاكتشافات، وجد أن هفوات اللسان يتكرر حدوثها مع الكلمات ذات المعنى التي يتغير ترتيبها وليست الكلمات العديمة المعنى : لهذا يحدث أن يقول بعض الناس "rare bug" (بق نادر) والمقصود بها "bear rug" (دثار الدب)، ولا يحدث أن يقال جمل مثل "tinner dable" والمقصود منها "dinner table" (مائدة الغداء)، دائماً نجد الكلمات التي تم تغيير ترتيبها أو استبدالها بكلمات أخرى كلمات فعلية، يقول البعض : "to go first and girl" (الأول والفتاة) والمراد هو مصطلح من كرة القدم الأمريكية يعنى "first and goal to go" (الهدف الأول وليس الأخير).

جاء عالم النفس "فرويد" باستنتاج في شأن هفوات اللسان لاقى قبولا كبيرا، فقد رأى أن تلك الهفوات ما هي إلا إعلان عن الاضطرابات الخفية التي يكابدها المتحدث وبخاصة تلك الاضطرابات الجنسية، يؤيد هذا الاستنتاج مجموعة متواضعة من الأدلة القائمة على العناصر الحكائية، فمثلا في أحد المواقف صدر عن مجموعة من طلبة الجامعة كماً من الهفوات أثناء اختيارهم من قبل سيدة جميلة، ومن تلك الهفوات قولهم "fast passion" (عاطفة) بدلا من "past fashion" (موضة منقضية)، ولكن لا ترقى مثل هذه الهفوات إلى منزلة الأغلبية.

مما يدعو للدهشة احتفاظ هفوات اللسان بالتركيب اللغوي، قالت أم لولدها "brush your bed" بدلا من "brush your teeth and make your bed" (نظف أسناتك ورتب مضجعتك)، في ضوء ذلك استنتج بعض الباحثين أن المخ البشرى يحتوى على ما يشبه المحرر الذى يفحص المقاطع الكلامية حتى تكون محتفظة بالتكامل اللغوي.

تمثل ظاهرة انقلاب اللسان من المشاكل الماثوفة الخاصة بالكلام، إننا نمر بهذه المشكلة من وقت لآخر، فنحن أثناء حديثنا نتوقف فجأة للبحث عن كلمة ما أو اسم معين ولا نجده، يخبرنا الكاتب أنه في محاولة لتذكر لقب المحرر أخذ يفكر قائلاً : أعرف أن الاسم قصير يتكون من أربعة أو خمسة حروف وربما يتكون من مقطع واحد، ولكن للحظة واحدة استطعت فقط تذكر البداية، شيء يشبه الأسماء إيفانز و "جوتز" ثم "دل" و "هيل" إلى أن قفز الاسم الصحيح إلى خاطري : "مال".

إن السبب وراء حدوث ذلك غير معروف : إن قدرتنا الطبيعية على إيجاد مسميات للأشياء - والتي تعمل بصورة ميكانيكية سريعة - على إيجاد الكلمات تتعطل عند

الرغبة في إيجاد عنصر ما، إن هذا العنصر المفقود يمكن استعادته ببذل جهد غير عادي، تعد الطريقة التي يتدرج بها ذلك الجهد المبذول في عملية انقلاب اللسان من النقاط الجديرة بالاهتمام.

يقول الكاتب أنه في حالته كان كل ما يتذكره هو قصر الاسم المفقود وتكونه من مقطع وحيد، بالرغم من ذلك أثبتت الدراسات التي أجريت على الظاهرة أن المتحدث الذي يبحث عن الكلمة المفقودة يمكنه تذكر معظم المعلومات غير المتوقعة عنها ولا يمكنه تذكرها في اللحظة ذاتها، لا بد أنك معناد سماع جمل مثل "إنني متأكد أنه يحتوي على الصوت "m"، كذلك يمكننا تذكر طول الكلمة - مثلما حدث لكاتبنا - أو حتى عدد المقاطع التي تشتمل عليها بدقة، مثلما يمكننا تذكر أصوات أو حروف معينة تشتملها هذه الكلمة، كما يمكننا أيضا تذكر مقاطع بأكملها، الشيء المدهش هو تواجد الدليل القاطع على أن بداية الكلمة المفقودة ونهايتها يسهل تذكره عن وسطها وهي الظاهرة التي أطلق عليها بعض علماء اللغة النفسانيين "تأثير حوض الاستحمام" لأنها تذكرهم بشخص يرقد في الحمام ورأسه وقدمه خارج المياه (يرى وجوب أن يأخذ هؤلاء العلماء حماما ممتعا)، إن الشخص الذي يبحث عن كلمة "silicosis" (السليكي)^(٨٦) ويأتي بكلمة "psittacosis" (داء الببغاء)^(٨٧) - يوضح هذا الاتجاه جيدا.

يسبب التشابه بين الكلمات حدوث التخمين الخاطيء، فعند البحث عن الصفة "articulate" (بين القول) قد ترد إلى أذهانتنا صفات مثل "ثرثار" و"كثير المزاح" و"ليق" و"كثير الكلام" وكلها صفات تتشابه في معانيها، كذلك عندما يبحث شخص ما عن "المجزر رقم ٥" (عنوان كتاب) لا يتذكر سوى "درجة ٤٥١ فهرنهايت" (عنوان كتاب آخر ينتهي برقم)، في إطار بحث ألففوي "بول شاشتر" عن الاسم "Olivia Newton-John" ورد إلى ذهنه الاسماء "Harriet Beecher Stowe" و"Enda May Olliver" (أسماء لسيدات تتكون من ثلاث كلمات) وكذلك الأسماء "Debbie Harry" و"Helen George" (أسماء لسيدات تصلح أن تكون أسماء لرجال أيضا) دفع هذا الاستنتاج الأخير شاشتر إلى تذكر الاسم الصحيح.

(٨٦) داء رئوي متميز بقصر النفس ناشئ عن تنشق متكاول لقبار السليكا .

(٨٧) مرض من أمراض الطيور يتميز بالإسهال والهزال .

تخبرنا مثل هذه المعلومات بوضوح الطريقة التي تحفظ بها المفردات داخل المخ وكيفية استعادتها وقت الحاجة إليها، يبدو بصورة واضحة أن المخ لا يخزن الكلمات مثلما تخزن الضمير في زجاجات، بل يبدو أن الكلمات تخزن ويربطها بالكلمات الأخرى عدد لا حصر له من الروابط : روابط تربط ما بين الكلمات المتشابهة في الصوت والهجاء، الكلمات المرتبطة ببعضها بعضاً من ناحية المعنى، الكلمات المنتمية لنفس الفئة النحوية، أو تلك التي تربطها أية صلة يمكن التسليم بها طبقاً لخبراتنا ومعارفنا الحياتية، تقترح خيرة "شاشتر أن الروابط غير المتوقعة مثل "Women whose sur-name are men's given names" (ألقاب النساء التي تصلح أن تكون أسماء للرجال) تتواجد بالفعل داخل المخ، إننا في الوقت الحالي لا نمتلك الفكرة الواضحة التي تبين لنا ما نفعه بمثل هذه الملاحظات، ولكنها على جانب من الأهمية.

ما لون اسمي ؟

تذكر الصحفية " أليسون موتوك " أن معلمة اللغة الإنجليزية بالمرحلة الثانوية طلبت منها تفسير اسم إحدى الشخصيات التي تضعها القصة القصيرة التي كتبتها، ولكن " أليسون " مرت قائلة : "إنها تريد اسماً قوياً ذا لون أحمر" - ماذا تعنيه باسم ذا لون أحمر ؟ إنها تعني نفس المعنى الذي تبغيه عندما تتحدث عن إشارة المرور الحمراء، فالأسماء عند "موتوك" ملونة كالأشياء الحسية، وليس الأسماء فقط بل كل الكلمات والأرقام وحروف الهجاء.

يطلق على هذه الظاهرة اسم الأصوات الرامزة، وهي تؤثر على شخص واحد من بين خمسة وعشرين ألفاً، يستقبل هذا الشخص بصورة ثابتة وأبداً من التعبيرات الحسية لا يلحظها غيره من الذين لا يملكون ظاهرة الأصوات الرامزة : من ضمن أقوالهم أن لون الطلاء الأبيض رائحته زرقاء، العشب رائحته قرمزية، صوت الطائرة الهليكوبتر المحلقة أخضر، مذاق الليمون شائك وكذلك مذاق الشيكولاتة ، الصوت الصامت "o" في كلمة "oo" (هديل الحمام) يبدو وكأن لونه أصفر بالرغم من تنوع استجابات هؤلاء الأشخاص فيما بينهم، فإن كلا منهم يظل ثابتاً في استجاباته : أي عندما يختبر أي منهم على فترات زمنية تمتد لعدة أسابيع يكشف ذلك عن حدوث نفس الاستجابات بشأن نفس الأصوات الرامزة.

لا تمثل اللغة عند الأشخاص الذين يمارسون ظاهرة الأصوات الرامزة مجرد شيء مسموع، إنهم يرونها وكأنها كرتفال من الألوان، وقد تم في لندن مؤخرا فحص مخ جماعة منهم وهم معصوبي العينين عن طريق المسح الضوئي باستخدام أشعة إكس وذلك وقت استماعهم لكلمات وأصوات، أثبت هذا الفحص أنه عند سماعهم لشيء ما فإن مناطق الرؤية بالمخ تنشط وبخاصة المناطق المعروف عنها التحكم بالألوان بينما لا يحدث هذا النشاط عند الأشخاص الذين لا يمارسون هذه الظاهرة.

إن الأشخاص الذين تظهر عندهم ظاهرة الأصوات الرامزة يكتسبونها منذ الصغر وربما منذ ميلادهم، لذا فهم يصابون بالدهشة عندما يعرفون أن هناك أشخاصا لا يمارسون هذه الظاهرة، إننا لا نملك أدنى فكرة عن الطريقة التي تعمل بها الأصوات الرامزة، كل ما نعرفه هو أن المالكين لهذه القدرة من الناس لديهم روابط إضافية داخل المخ لا يملكها غيرهم، علاوة على ذلك، ضمن بعض الباحثين أن كل الأطفال يولدون بها لفترة ولكنها تختفي عند معظمهم باستثناء القلة القليلة، هذه الفكرة يؤيدها عدد قليل جدا من الأدلة.

إنه من اليسير التيقن بالفكرة القائلة بأن الممارسين لظاهرة الأصوات الرامزة أناس محظوظون لدرجة كبيرة، فهم يعيشون في عالم بديع يكون فيه أغلبنا مصابين بالعمى، الشيء المذهل هو إثبات الدراسات الحديثة بأن هؤلاء الناس لا يمثلون نسبة عشوائية من سكان منطقة ما، تبلغ نسبة الذين يستخدمون يدهم اليسرى بدلا من اليمنى أو الذين لديهم القدرة على استخدام كلتا يديهم أكثر من خمسين بالمائة، كلهم يمتلكون ذاكرة حادة وأغلبهم ضعيف في الرياضيات وهم دائما ما يضلون الطريق، كما يسرد العديد منهم خبرات غريبة مثل الاعتقاد بأنهم قد ارتادوا مكانا ما من قبل بالرغم من أن زيارتهم لذلك المكان هي الزيارة الأولى، والأحلام التنبؤية والاستبصار، كما أن الغالبية العظمى منهم نساء، وهذا الاكتشاف الأخير أعاد الحياة إلى الفكرة القديمة التي نادى بها الكثير وأيدها القليل من الأدلة، والتي تذهب إلى اختلاف تركيب المخ عند كل من الرجال والنساء، يصعب علينا الآن استنباط أية نتائج محددة من دراسة ظاهرة الأصوات الرامزة، وقد خلصنا من الأدلة القاطعة الآخذة في الازدياد أن خصائص اللغة تستقل كلية عن الوظائف الأخرى للمخ، وفي الوقت ذاته بدا لنا بوضوح أن تلك الخصائص تتصل ببقية أجزاء المخ بواسطة طرق معقدة وغريبة.

الفصل السابع

الأطفال واللغة

تتوافر في أغلب صغار الثدييات (باستثناء الكنغر) درجة معينة من التطور لا تظهر في المراحل المتقدمة من عمر الأطفال، فصغير الدب يتمكن من الانتصاب والسير في غضون دقائق من ميلاده في حين أن الطفل لا يمكنه الالتفات أو الزحف قبل بلوغه عدة أشهر من العمر، عند ميلاد الطفل لم تكون جمجمته قد تكونت بالكامل، فالعمد النخاعي الذي يفصل بين الخلايا العصبية بالمخ لم يتطور بالدرجة الكافية، كما أن النظام البصري بالمخ لم يتم له بعد العمل بكفاءة؛ لذلك كان من ضمن التقديرات التي قيات في هذا الشأن ألا يولد الطفل قبل بلوغه من العمر ثمانية عشر شهرا بدلا من تسعة أشهر.

إذا كان الأمر كذلك، فلماذا نولد عند مرحلة تكون فيها ناقصى النمو؟ لا توجد إجابة مباشرة للسؤال ولكن كل ما في الأمر أنه بسبب رأس الطفل الضخمة والتي تكبر تبعا لمخه الكبير الحجم يكون من الصعب عليه حتى في الشهر التاسع من الحمل شق طريقه خلال قناة الولادة، لذلك من المتوقع أن تتحول عملية الولادة - إذا تأخرت شهرا أو أكثر بعد الشهر التاسع - إلى عملية مستحيلة، بالإضافة إلى ذلك تفوق عملية الولادة عند البشر مثيلتها عند بقية المخلوقات في الصعوبة ودرجة الألم والخطورة، كما أنه ليس ببعيد أن يصاب مخ الطفل بالتشوه أثناء تعرضه لصدمة الميلاد.

يظل الطفل لسنوات عدة بعد ميلاده عاجزا لدرجة كبيرة، ومتواكلا على والديه كلية من أجل أن يستمر في الحياة، إنه لا يفعل شيئا طوال هذه الفترة من حياته سوى تعلم اللغة.

بعد اكتساب اللغة من أكثر الأمور - روعة وجمالا - التي يمكننا إنجازها على مدار حياتنا بأكملها، فنحن نتعلمها في عمر نكاد نكون لا نفعل به أي شيئا آخر، كما تعد اللغة الشيء الوحيد الذي يتمكن الأطفال من تعلمه ببراعة أكثر من البالغين، لأنه

من الممكن لأي طفل صحيح يدنيا تعلم اللغة المحيطة به بكفاءة، بينما يعجز عن أداء هذا العمل البطولي غيره من البالغين، كيف يقوى الأطفال على فعل ذلك الأمر؟ وكيف يمكنهم اكتساب لغتهم الأم؟

أسند العديد من الناس - منذ سنين قليلة مضت - اكتساب اللغة إلى عمليتي التقليد والتدعيم، يحاول الطفل ببساطة - طبقا لهذه الرؤية - تقليد ما يقوله الكبار، وإذا ما أبلى بلاء حسنا في تقليده هذا يكافئ بالمدح والإطراء، أما إذا حدث العكس فإن صنيعه هذا يقابل بالاستهجان والتصويب، تبعا لذلك ينتقل الطفل في تقليده للكبار من أفضل إلى أفضل إلى أن يصل إلى تلك الحالة التي يكون فيها قد تعلم اللغة.

يعد إثبات خطأ أسلوب التقليد والتدعيم من أبرز إنجازات علم اللغويات في السنوات الأخيرة وأكثرها ثباتا، فهو أسلوب من شأنه عدم تمكين الأطفال من تعلم اللغة على الإطلاق، إننا نعرف الآن جيدا كيفية تعلم الأطفال اللغة، وكيف أن الطريقة التي تعلمهم اللغة تعد أفضل بكثير مما يقوم به أسلوب التقليد الذي يتسم بالقصور.

سنبدأ بوصف لما يمكن ملاحظته عند متابعة طفل يكتسب لغته الأم، ومن تلك الملاحظات نصل إلى بعض النتائج الأولية، سنتبع ذلك بملاحظة اكتساب اللغة في ظروف غير عالية لمعرفة مدى صحة هذه النتائج، وسوف نسوق الأدلة من حالات أطفال يعانون عجزاً.

ما لاحظناه :

يبدأ اكتساب اللغة في مرحلة مبكرة للغاية ترجع إلى ما قبل ميلاد الطفل، فقد أثبتت الاختبارات أن الأطفال حديثي الولادة المنتمين إلى أم فرنسية وبيئة متحدثة للغة الفرنسية أيضاً يفضلون الاستماع إلى تسجيلات ناطقة باللغة الفرنسية وليس بأية لغة أخرى، لا بد وأن تنغم اللغة وإيقاعها يجذبهم، كما أننا نفترض اعتيادهم على استماع هذين العنصرين وهم لا يزالان داخل الرحم (بانتقال الصوت عبر بطن الأم)، يبدو حقا أن الأطفال - في تلك المرحلة المتقدمة من العمر - يبدعون في استقبال اللغة المحيطة بهم بل يعيرونها اهتماما خاصا.

يمر كل طفل صحيح بعد ميلاده بمراحل محددة لاكتساب اللغة وذلك وفقا لترتيب لا يتغير، ولكن قد يختلف هذا الترتيب بشكل أو بآخر عند بعض الأطفال.

يبدأ الطفل - في سن شهرين تقريبا - بإصدار صوت كهديل الحمام ، أصوات تشبه الضوضاء المألوفة التي يصعب وصفها، تتحول تلك الأصوات إلى البأبة في سن ستة أشهر، وهي نوع من الألعاب الصوتية تتضمن سلسلة من المقاطع التي تفتقد إلى المعنى والترابط، يصدر الأطفال غالبا في مرحلة البأبة أصواتا لا تتواجد في البيئة المحيطة بهم كما لو أنهم يدرّبون جهازهم الصوتي، ثم تبدأ الأصوات التي يصدرونها بعد ذلك في التشابه مع لغتهم شيئا فشيئا، تبدأ البأبة - بصفة خاصة - في عرض تنغيمات مطابقة للغة المحيطة بالطفل، وقد أثبتت التجارب أنه في مثل هذه المرحلة من العمر تستطيع الأم الفرنسية التعرف على الأطفال الفرنسيين (بخلاف طفلها) بمجرد الاستماع إليهم، كما ينطبق الأمر ذاته على الأمهات المتحدثات للإنجليزية والروسية والعربية، يفشل عدد قليل جدا من الأطفال في إحداث البأبة ولا يُعرف سبب لذلك.

يبدأ الطفل أحيانا في سن من عشرة إلى اثني عشر شهرا في إنتاج كلمات مفهومة، وقد جرى العرف أن يعتبر الطفل قد بدأ في الكلام عندما يصل هذه المرحلة، (من الطريف أن الإناث يبدعن هذه المرحلة قبل الذكور) تستمر مرحلة الكلمة الواحدة هذه لبعض الوقت حيث يضيف الطفل كلمات جديدة لفرداته ببطء، لا تتزايد المفردات في تلك المرحلة بسرعة ولكنها تشمل العديد من الأنواع المختلفة للكلمات مثل (أب، كلب، ملعقة، حمام، ساخن، يأكل، فوق، وداعا، وحتى كلمة ذلك)، لا تتضمن هذه المرحلة أية كلمات نحوية كفعل يكون، ربما، من، إلي، ال، كما أن الطفل لا يستخدم أية نهايات نحوية كعلامات الجمع والأزمنة الماضية.

يحدث أحيانا في سن ما بين ثمانية عشر شهرا وأربع وعشرين شهرا شيء هام، حيث يبدأ الطفل في نطق مقاطع تتكون من كلمتين مثل : "جورب أبي"، "أريد عصيرا"، "أعطني ملعقة"، تسمى هذه المرحلة بمرحلة الكلمتين، التسمية هنا مثالية فالطفل لا يمكنه نطق أية مقاطع تشتمل على ثلاث كلمات مثل "أمي أحضري الكرة"، كل ما يمكنه قوله "أمي أحضري" أو "أحضري الكرة"، جدير بالذكر أن الطفل في هذه المرحلة يكاد لا يتفوه بكلمات مثل "الكرة أحضر"، والتي لا تتبع الترتيب السليم للكلمات، ومن هنا يكون الطفل قد اكتسب بعض القواعد النحوية، تذكر ما قلناه في الفصل الثاني بشأن الدور المهم الذي يلعبه ترتيب الكلمات في علم النحو وبخاصة فيما يخص اللغة الإنجليزية، بالإضافة إلى ذلك لا تزال الكلمات والنهايات النحوية غير متواجدة.

تبدأ مفردات الطفل - في نفس هذه المرحلة العمرية - في التزايد بسرعة أكبر مما كانت عليه، بحيث لا يستطيع الأبوان تسجيل الكلمات التي يعرفها طفلهما، يعتقد أن الطفل العادي يمكنه معرفة حوالي ١٠٠٠٠ كلمة قبل بلوغه سن الخامسة، وهذا يعني أن معدل تعلمه للكلمات يبلغ عشر كلمات في اليوم.

تستمر مرحلة الكلمتين شهوراً عدة ثم "يبدأ الشقاء في الانفراج" وفق تعبير اللغوي "ستيغن بنكر"، تزداد المقاطع في الطول لتصل إلى أربع، خمس، ست، سبع، عشر كلمات وربما أكثر، تظهر الكلمات والنهيات النحوية وفي غضون شهور يستخدم الطفل أغلب الأشكال النحوية للكلمات والتي يستخدمها البالغون، كما تظهر كل أنواع التركيبات الجديدة مثل النفي والعبارات التابعة والأسئلة، ويستخدمها الطفل بسرعة ودقة وثقة أكبر.

إليك نموذج لمقاطع طفل شهير عُرف في الأدب الإنجليزي باسم "آدم"، وقد قام بدراسته اللغوي "روجر براون"، كان "آدم" في سن سبع وعشرين شهراً لا زال ينطق مقاطع من كلمتين مثل "big drum" (طبله كبيرة)، كان يقول قبل بلوغه الشهر التاسع والعشرين "what that paper clip doing" (ماذا يفعل دبوس الورق هذا؟)، قبل الشهر الثاني والثلاثين "let me get down with the boots on" (دعني أتزل بالحذاء الطويل)، قبل الشهر السادس والثلاثين "you dress me like a baby elephant" (إنك تجعلني أرتدى الملابس مثل صغير الفيل)، قبل الشهر الثامن والثلاثين "can I put my head in the mailbox so the mail man can know where I are and put me in the mailbox" (هل أستطيع وضع رأسي في صندوق البريد فيعرف ساعي البريد أين أنا ويضعني في صندوق البريد؟).

كان "آدم" بطيء التعلم، فقد تبعتها في الدراسة طفلة أخرى تسمى "إيف" وكانت تنطق بجمل مثل "Fraser, the doll's not in your briefcase" (يا فراسر، الدمية ليست في حقيبتك) و "I got peanut butter on the paddle" (وضعت فول سوداني وزيد على المحرك) وهي لم تبلغ سنتين من العمر، كان "آدم" في نفس عمرها لا يزال في نهاية مرحلة الكلمتين، إنز ترى أن كلام "آدم" و"إيف" قد مرا بالمراحل نفسها ولكن "إيف" اجتازتها بسرعة أكبر.

يكتسب الأطفال أغلب القواعد النحوية للغة التي يتعلمونها فيما بين الثانية والثالثة أما قبل بلوغهم الخامسة فإنهم يكونون قد تعلموا كل شيء فيما عدا قليل من التركيبات المفصلة التي يتم لهم تعلمها في مرحلة متأخرة، كما أنهم يستمرون في ارتكاب الأخطاء الغريبة مثل "two mens" (رجلان، الصواب two men) و "I brokeed it" (كسرتها، الصواب I broke it)، وهي أخطاء يلحظها البالغون بسهولة، بالرغم من هذا أوضحت الدراسات تدرية حدوث مثل هذه الأخطاء، فطفل الخامسة يتسنى له تعلم جُل الأشياء التعلم الصحيح، انظر إلى ما يلي: يعرف طفل الخامسة يتسنى له تعلم جُل الغريبة التي يرتكبها - عن نحو اللغة الإنجليزية أكثر مما تجده في كتاب للنحو، تذكر ما أشرنا إليه في الفصل الثاني بشأن الكم الهائل من القواعد النحوية التي تعرفها ولكنك من المرجح لا تعي ذلك : إنك اكتسبت هذه المعرفة قبل سن الخامسة وفي أغلب الأحيان قبل الثالثة.

إن طفل الثالثة لا يمكنه إجراء عملية الجمع لرقمين أو الحديث تليفونيا أو ربط حذاءه أو عبور الشارع بمفرده، ولكنه يتمكن من معرفة نحو اللغة الإنجليزية ومفرداتها - ببراءة - أو الفرنسية أو الباسكية أو النافاهو أو أية لغة يتعلمها وهذا بكل المقاييس إنجاز غير عادي (كما أن الأطفال الذين ينشئون في بيئة ثنائية اللغة يتقنون كذلك كلتا اللغتين).

يتوالى اكتساب اللغة بعد مرحلة الكلمتين بسرعة فائقة بحيث يكون من المستحيل تسجيل كل شيء يقوم الطفل بنطقه، بالرغم من ذلك فإننا إذا ما ركزنا على جانب واحد للغة وتابعناه عند الطفل سنحصل بشأنه على العديد من المعلومات ذات القيمة.

نظرة أكثر قريبا :

الآن لنا وقفة مع صياغة الجمع في اللغة الإنجليزية، افترض أننا أخبرناك أن كلا من الكلمات "ziff, zo, zax" مهمة تدل على أشياء يمكن عدها، ماذا تفترض أن يكون الجمع من تلك الكلمات ؟ إننا متأكدون من أنك لن تواجه أية مشكلة في الإجابة على هذا السؤال : جموع هذه الكلمات على التوالي هي "ziffs, zos, zaxes"، إذا أرهفت السمع ستلاحظ أن نهايات الكلمات يتم نطقها بطرق مختلفة في الحالات الثلاث : الكلمة الأولى تنتهي بصوت -s، الثانية بصوت -z، الثالثة بصوت -متبوعا بصوت

صاغت إضافي، إننا متأكدون تماما من اختيارك للشكل الصحيح من الجمع في كل حالة من تلك الحالات، فمعرفتك بنحو اللغة الإنجليزية تتضمن معرفتك بالطريقة التي نصيغ بها جمع كلمات تلك اللغة.

يمكن اختبار قدرة الأطفال الصغار على صياغة الجمع عن طريق ما يسمى باختبار "wug"، وفيه يُعرض على الطفل شيء صغير ويتم إخباره بأن هذا الشيء يسمى "wug"، ثم يقدم له شيء آخر مشابه للشيء الأول ويخبره الباحث أن هذا الشيء "wug" آخر، عند تواجد عنصرين من هذا الشيء يكون الطفل الذي يطلق عليهما - "wugs" - بنهاية تنطق كصوت - Z - قد تعلم كيفية صياغة الجموع، يستطيع طفل الرابعة تعلم هذه القدرة، ويفرغ جميع الأطفال من تعلمها قبل بلوغهم السادسة.

كيف تمكن الطفل من صياغة الجمع بصورته الصحيحة وهو لم يسبق له التعرف على الكلمة المخلقة "wug" كما لم يتعرف على جمعها؟ بالطبع لم يتسن للطفل فعل ذلك عن طريق التقليد أو الحفظ : الشيء الوحيد الذي مكنه من ذلك هو القاعدة المتكونة عنده بشأن صياغة الجموع، وهي قاعدة يمكنه تطبيقها على الأسماء الجديدة دون أدنى جهد، إنها نفس القاعدة التي استخدمتها مع الكلمات المبهمة التي عرضناها من قبل، تتشابه هذه القاعدة النحوية الإنجليزية مع قواعد أخرى سبق لنا مناقشتها بالفصل الثاني من الكتاب، وإن كانت أيسر منها قليلا.

إذن كيف تمكن الطفل من تعلم هذه القاعدة ؟ بالتأكيد لم يدرّب الأبوان طفلها على صياغة الجموع كأن يقولون له (انظر يا "جينفر" هذا كلب، هذان كلبان، هذا عود ثقاب، هذان اثنتان)، حتى إن حدث هذا، هل هو كاف أن يساعد في تعليمهم كل ما يتعلق بصياغة الجموع؟ إن الآباء ليسوا على دراية كاملة بالأشكال الثلاثة لنهايات الجموع وبالتالي لن يتمكنوا من إظهارها لأطفالهم، بالرغم من ذلك، نجح "جينفر" قبل بلوغه الرابعة أو الخامسة في تعلم القاعدة، تذكر ما قلناه في شأن الجموع وسنعود مرة أخرى لسؤالنا هذا فيما يلي

فكر الآن في الطريقة التي يتعلم بها الأطفال النفي، إنها طريقة واحدة يتبعها جميع الأطفال، أولا : يضعون كلمة نافية، عادة "no" (لا)، في بداية أية جملة مثل "No I want juice" (لا أريد عصيرا)، بعد ذلك يحركون هذه الكلمة النافية ليكون موضعها قبل الفعل ., "no want juice" ، في النهاية تظهر الأدوات النافية الأكثر تعقيدا : "ا

"don't want juice"، هنا تكمن المشكلة : يظل الأيوان - إذا رغبوا في ذلك - يصوبون ما يقوله أطفالهم إلى ما لا نهاية، لكن الطفل يستمر في استخدام نمط النفي للمرحلة العمرية التي يمر بها حتى ينتقل إلى المرحلة التي تليها، حتى وإن أغفل الآباء عن التصحيح لأطفالهم (أغلبهم يفعلون ذلك) فإنهم ينتقلون بين المراحل نفسها حتى يصلوا إلى مرحلة البالغين.

ما الذي يفعله الطفل ؟ إنه يُكون القواعد لصياغة النفي ويظل يجربها وينتقل فيما بينها حتى يجد القاعدة التي تشبه تلك التي يستخدمها البالغون، لاحظ أن الطفل لا يحاول الرجوع إلى أية مرحلة تشتمل على قواعد قديمة، فكل طفل يجرب القواعد ذاتها بترتيب تصاعدي واحد، علاوة على ذلك، يفعل الأطفال الذين يتعلمون لغة ثانية نفس الشيء - لكن الطفل الذي يتعلم لغة كالإسبانية يتوقف عند المرحلة الثانية لأن نمط النفي الذي تُستخدم به الكلمة النافية قبل الفعل، كما يتضح من الجملة "I no want juice"، هو النمط الذي يصاغ به النفي في اللغة الإسبانية.

بصورة أخرى نستطيع القول أن الأطفال يعرفون أية قواعد من الواجب عليهم استخدامها ! هذا الأمر مدهش للغاية، فهو يحطم ما سبق ذكره بشأن التقليد والتدعيم، إذا كان الطفل مجرد مقلد لما يقوله البالغون، سيكون كلامه سلاسل مبعثرة من الأنماط الشبيهة بأنماط البالغين، وهذا ما لم نلاحظه في كلام الأطفال، ينطبق الأمر ذاته على صياغة النفي، وكذلك كل جانب من جوانب اكتساب اللغة، فمثلاً تتطور طرق تكوين السؤال على النحو التالي :

أولاً: "why you eating?" (لماذا تأكل ؟) (لاحظ أن السؤال لا يشتمل على فعل مساعد).

ثانياً : "Why you are eating" (الفعل المساعد ليس بموقعه السليم)، "Why are you eating" (تحرك الفعل المساعد إلى موقعه الصحيح بعد كلمة الاستفهام).

حان الوقت الآن لتأمل الملاحظات الآتية:

لماذا يحدث ذلك ؟ :

يتوافر تحت أيدينا الآن قدر هائل من المعلومات التي تم التوصل إليها عن طريق الملاحظة، والتي أثبتت أن الأطفال يكتسبون اللغة وفق نظام محدد ذي ترتيب خاص

جدا، إنهم لا يصدرين كلاما عشوائيا يقارب في شكله كلام البالغين، كما أنهم لا يفعلون أخطاء عشوائية، لذلك فإن تعلمهم للكلام لا يتم عن طريق التقليد، كذلك رأينا أن أية محاولة يقوم بها الآباء لتصويب كلام أطفالهم تنتهي بالفشل : فالطفل يسير في اكتسابه للغة وفق مراحل مرتبة، لذلك فإن التدعيم - سواء كان ذا تأثير إيجابي أو سلبي - ليس عاملاً مساعداً في تعلم اللغة، إذن كل ما يفعله الطفل لتعلم اللغة هو تكوين قواعد متفاوتة التعقيد، قواعد يتبعها جميع الأطفال بنفس ترتيب اكتسابها، أي أن اكتساب اللغة عملية نشطة : فالطفل لا يمتص اللغة التي تصادفه بطريقة سلبية، بل إنه يكون اللغة وينظمها، يعد هذا الاكتشاف واحداً من الاكتشافات الرئيسية لعلم اللغويات الحديث، الذي بدوره يطيح بأية فكرة واهية تعترف بفضل التقليد أو التدعيم.

في الحقيقة، يُحكّم بالفشل على أية فكرة تذهب إلى أن عملية اكتساب اللغة عملية سلبية للغاية، تأمل مشكلة "gavagai" الشهيرة، افترض أنك تعاني في تعلمك لإحدى اللغات الأجنبية، وفي أحد الأيام شاهدت أرنباً يقفز فنظر إليه معلمك وقال "gavagai"، ماذا تعني كلمة "gavagai" ؟ هل تعني أرنباً؟ أرنباً ذا حجم ولون خاص؟ هل هي اسم لذلك الأرنب بعينه؟ أم أنها تعني "انظر إليه وهو يذهب"، أم "إنه يأكل كثيراً" أم "لقد أضر بحقل الخس الخاص بي"؟ أو عدد يبلغ التريلليون من الإجابات التي يمكن تصورها؟ ما إجابتك؟

يواجه الطفل الذي يتعلم اللغة لأول مرة مثل هذه المشكلة كيف يمكنه معرفة معنى شيء ما؟ عند سماعه لمقطع من الكلام يقوله أحد البالغين، كيف يمكنه معرفة إذا ما كان هذا المقطع الذي سمعه يقصد به اسم لوحدة مفردة أو اسم لعند من الوحدات أو تطبيق على صفات لبعض الوحدات أو وصف لبعض الأشياء أو أي شيء آخر؟ كيف يتسنى له تخمين معنى جملة مثل "أمك مرهقة" أو "أبوك بالخارج" وهو لم ير بعينه في اللحظة ذاتها كلا من الإرهاق أو والده؟

الأسوأ من ذلك عندما يتعلم الطفل معان لبعض المقاطع ويأتي دور تكوين التعميم، أي إذا سمع شخصاً بالغا يقول "الكلب جائع"، قميصي أزرق"، كيف يتسنى له قول جمل مثل "ليزا جميلة" أو "الكوب غير نظيف"، بالطبع كل هذه الجمل متشابهة في تركيبها ولكن كيف يعرف الطفل هذا؟ ما دام الطفل ليس عنده أي سابق معرفة باللغة كيف يمكنه استنتاج أن هذه الكلمات شبيهة لكلمات أخرى وكل منها يستخدم في بناء الجمل؟

بالفعل يعرف الأطفال هذا الأمر، فالطفل عندما يسمع جملة "ليزا سعيدة" و "تبدو ليزا سعيدة" ثم يسمع "الكلب جائع" يمكنه تكوين جمل صحيحة مثل "يبدو الكلب جائعاً"، ولكن عند سماعه للجملة "ليزا نائمة" لا يكون الجملة "تبدو ليزا نائمة"، فلم يسبق لنا سماع أى طفل يقول هذه الجملة الخاطئة، لماذا؟ لأن "جائع" صفة بينما "نائمة" فعل، لكن كيف توصل الطفل لهذه المعرفة؟ كيف تسنى له حتى معرفة أشياء مثل الصفات والأفعال؟

تسمى تلك المشكلة الحيوية "بالمشكلة المنطقية لاكتساب اللغة" : يبدو من المستحيل من حيث المبدأ - تعلم أى شيء عن لغة ما دون معرفة شيء عنها أولاً، لا يمكن للطفل حفظ أعداد لا حصر لها من المقاطع التي يمكن تصورها بجانب كل المعلومات التي تخبره بكيفية استخدام هذه المقاطع (تذكر المقاطع الجديدة التي ذكرناها بالفصل الثاني)، بالطبع هذا لا يحدث، يحدث بدلاً منه أن يكون الطفل القواعد بنفسه، كي يكون الطفل القواعد يجب عليه أولاً ملاحظة تشابه المقاطع مع بعضها البعض، لكن كيف يمكنه إدراك التشابه بين المقاطع وهو لا يعرف معنى التشابه؟

هناك إجابتان لهذا السؤال، حيث ذهب بعض الناس إلى أن الأطفال يكتسبون اللغة عن طريق استخدام قدراتهم الإدراكية المتعددة الأغراض وهي نفس القدرات التي تؤهلهم لاكتساب أنواع المعارف الحياتية الأخرى، من ناحية أخرى، فضل الآخرون الإجابة التي اقترحها اللغوي الأمريكي "شومسكي"، يرى "شومسكي" أن الأطفال يولدون وهم على دراية باللغة البشرية، أى أن جزءاً كبيراً من تركيب اللغة البشرية فطري، كما يذهب "شومسكي" إلى أن فصيلتنا قد طورت خاصية اللغة داخل المخ، كما أن اللغة تنمو عند الأطفال بقدر كبير مثلما تنمو قدراتهم البصرية الأخرى، لا زال تفسير "شومسكي" محلاً للجدال، ولكن يتوافر قدر كبير من الأدلة الآخذة في الازدياد تدل على صحته، لذا دعونا الآن ننظر إلى بعض هذه الأدلة.

البحث عن اللغة :

إن ملاحظة الأطفال الذين يواجهون مشكلة تعلم اللغة في ظروف غير عادية إحدى الطرق لاختبار مدى صحة فرضية "شومسكي"، ستعرض فيما يلي ظرفين من هذه الظروف.

أولاً : الأطفال المصابون بالصمم، إنهم يصدرون أصوات الهديل ويأبون عن مثلهم في ذلك مثل أى طفل طبيعي، ولكن بما أنهم لا يستقبلون أى مثير سمعى فإن قدرتهم على البأبة تتوقف ويظلون صامتين، لكنهم إذا شاهدوا الناس من حولهم يستخدمون لغة الإشارة فإنهم يمارسون البأبة ولكن باستخدام أيديهم هذه المرة، إذا كان أبؤهم مصابين بالصمم أيضاً وبارعين فى استخدام لغة الإشارة فإنهم بالتالى سيتقدمون فى تعلمهم للغة الإشارة بصورة طبيعية وناجحة، كما أنهم سيجتازون مراحل تعلم اللغة كغيرهم من الأطفال الطبيعيين : مرحلة الكلمة الواحدة، مرحلة الكلمتين، مرحلة غياب العلامات النحوية ثم إتقان الكيان النحوى الكلى للغة الإشارة، وهكذا، إننا لانلاحظ أدنى فرق بين اكتساب اللغة المتحدثة واكتساب لغة الإشارة، تذكر أننا ذكرنا فى الفصل السادس ما يفيد بأن تلف المخ يؤدى إلى نفس النتائج سواء كان الشخص يتحدث بشكل طبيعى أو يستخدم لغة الإشارة - وهذا يدفعنا إلى القول بأن خاصية اللغة مستقلة لدرجة كبيرة عن الخصائص العقلية الأخرى - هذا ما توقعه شويمسكى .

أما إذا كان والدا الطفل غير بارعين فى استخدام لغة الإشارة كأن يستخدمونها بصورة غير منتظمة وغير دقيقة، فإن الطفل بالرغم من ذلك يتعلم اللغة بصورتها الصحيحة، يبدو أن الأطفال ماهرون فى تعلم اللغة حتى إنهم يتمكنون من استخلاص القواعد التى يتطلبها ذلك التعلم من مصادر فقيرة، ومن هنا فإنهم يتمكنون من استخدام لغة الإشارة أفضل من والديهم ! (مسمار آخر بقى فى نعش نظريات تعلم اللغة عن طريق التقليد)، لاحظ شيئاً آخر : إذا كان الأبوان غير قادرين على استخدام لغة الإشارة على الإطلاق فإن الطفل يظل متحينا لأية فرصة يصدر فيها أبواه أية تلميحات، ثم لا يلبث أن يطور هذه التلميحات للغة للإشارة من إنتاجه هو ! بالفعل تمت دراسة العديد من هذه الحالات، فلا شك فى حدوثها، جاءت نتائج ذلك البحث مؤكدة، فقد نجح أمثال هؤلاء الأطفال فى اختراع قواعد نحوية صارمة متضمنة لأشياء مثل معرفات الأفعال، إنهم يتصرفون كالأطفال الذين تعلموا لغة الإشارة بالطريقة التقليدية إلا أن اختراعهم لإشارات خاصة بهم هى الفارق الأوحد بينهما، يكتب مثل هذا التعلم الذاتى - لسوء الحظ - التوقف عند حد معين يكون بعده التقدم شىء مستحيلًا، وذلك يرجع إلى غياب التدعيم المناسب بلا أدنى شك.

ماذا تستنتج من تلك الملاحظات؟ هناك تفسير واحد يمكننا الخروج به وهو - كما وصفه اللغوي "راي جاكيندوف" - أن الأطفال يبحثون عن اللغة، إنهم يبحثون عن اللغة المتحدثة أولا وعندما لا يجدونها فإنهم يبحثون عن لغة الإشارة وعندما يفشلون في ذلك يبحثون عن أي شيء حولهم يشبه اللغة ثم يبذلون قصارى جهدهم لتحويل ذلك الشيء إلى لغة كاملة، هذه النتيجة مذهلة، ولكن يمكن تدعيمها بأدلة أخرى.

حدث لمرات عديدة على مدى التاريخ الإنساني أن تقابل أناس من أماكن مختلفة ومتنوعة، يتحدثون لغات مختلفة ومتنوعة أيضا في مكان واحد، تحقق ذلك - على سبيل المثال - للأفارقة الذين جاؤا إلى أمريكا الشمالية أو الكاريبي كعبيد، وللناس من 'بابوا' بجنوة الجديدة والذين اتحدوا كشعب واحد يتحدث مئات اللغات، وكذلك للكم الهائل من العمال الذين وفدوا إلى هاواي قادمين من العديد من البلدان ليعملوا في زراعة السكر، كان رد فعل هؤلاء الناس إزاء لغاتهم المختلفة واحدا : اخترعوا لغة الاتصال الهجينية، إنها نظام أساسي غير متقن للتواصل مكون من شتات من لغات عدة مجمعة مع بعضها بعضا بطريقة عشوائية، لا تشتمل هذه اللغة على مفردات بعينها أو قواعد نحوية، يتحدثها أشخاص مختلفون بطرق مختلفة، إنها وسيلة للتواصل، فقيرة ومحدودة للغاية ولكنها تؤدي الغرض منها ويتعلمها كل فرد بالمجتمع.

بمرور الوقت يتزوج الأشخاص الذين يستخدمون هذه اللغة الهجينية وينجبون الأطفال، يتحدث هؤلاء الأطفال تلك اللغة مع بعضهم بعضا، بغض النظر عن اللغة التي يتحدثونها بالمنزل، هنا يبرز سؤال مهم : ماذا يحدث؟

إذا تابعت المناقشة السابقة يمكنك تخمين الإجابة : يحول الأطفال هذه اللغة الهجينية إلى لغة حقيقية ! إنهم سرعان ما يتفقون على نظام نحوي معين يتضمن ترتيب محدد للكلمات لا تشتمل عليه اللغة الهجينية، إنهم يعرضون كل أنواع التفصيلات النحوية الجديدة التي لا تتواجد باللغة الهجينية : أزمنة الأفعال، العبارات التابعة، وكل شيء تتوقع تواجده بأية لغة، كما أنهم يعملون على زيادة مفردات اللغة حتى يتسنى لهم الحديث عن أي شيء يبغونه، تسمى هذه اللغة الجديدة باللغة المولدة، ويكون الأطفال الذين قاموا باختراعها الناطقين الأصليين الأوائل لها، قد تظل هذه اللغة في بعض الحالات وتزدهر، ففي هايتي - على سبيل المثال - تمثل اللغة التي يتحدثها السكان بكلمهم لغة مولدة اخترعها أسلافهم الأفارقة منذ أجيال مضت، كما

أن اللغة المولدة حديثاً في "بابوا" بجنوة الجديدة تستخدم على نطاق واسع هناك، قد تختفى اللغة المولدة نهائياً في حالات أخرى، فقد اندثرت اللغة المولدة بهاواي نهائياً بفضل اللغة الإنجليزية.

إن مضمون اللغة المولدة يعد سندا هاما لموقف "جاكيندوف"، كما أنه يعطي ضربة قاضية لتلك الأفكار العتيقة التي تذهب إلى أن تعلم اللغة أمر سلبي يتم عن طريق التقليد أو التدعيم، عندما يخترع الأطفال لغة مولدة فإنهم لا يكونون قد تعلموا لغة لم يعرفها أبائهم فحسب بل يكونون قد تعلموا لغة لم يكن لها وجود من ذي قبل، لتكف الآن عن ذكر المزيد من الأدلة المباشرة والمقنعة المدعمة لما أكدناه في موقع متقدم من هذا الفصل، وهو أن الأطفال يكونون لغتهم بطريقة تشطة إيجابية.

هل هناك سن معينة يتوقف عنده اكتساب اللغة ؟

أشرنا فيما سبق أن الأطفال يتعلمون اللغة المحيطة بهم، في حين لا يستطيع أغلب البالغين فعل ذلك، قدم عالم اللغة العصائى "إيريك لينبيرج" تفسيراً لهذا الأمر في عام ١٩٦٠، فهو يذهب إلى أن الأطفال يمتلكون قدرة خاصة في تعلم اللغة والتي يحولها الجسم في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة تقريبا، إذن تدل فرضية التوقف أن هناك فترة محددة من عمر الطفل لا يمكنه بعدها تعلم أية لغة، من السهل اختبار فرضية "لينبيرج" على النحو التالي : تقوم بتربية طفل في عزلة تامة عن أية لغة حتى يبلغ الرابعة عشر من العمر، ونرى إذا ما كان هذا الطفل سيتمكن من تعلم لغته الأم بعد ذلك أم لا، بالطبع ما من شخص يتمتع بالصحة العقلية يمكنه إجراء مثل هذه التجربة القاسية، ولكن - لسوء الحظ - قام البعض بإجرائها، فيما يلي سنعرض ثلاث حالات لأطفال كانوا ضحايا لتلك التجربة، ثم تُعرف الأسماء الفعلية لهؤلاء الأطفال، لذا فقد اشتهروا على مر التاريخ بالأسماء التالية: "إيزابيل"، "جيني"، "شيلسا".

كانت "إيزابيل" فتاة فرنسية عزلها والداها لسنوات فلم تتمكن من سماع أية لغة، عندما تم اكتشافها في سن السادسة، كانت لا تتفوه بأية لغة على الإطلاق كما كانت متأخرة في معظم مناحى الحياة، لكنها عندما عاشت في بيئة طبيعية بدأت في تعلم اللغة الفرنسية بسرعة كبيرة، وفي غضون العام تميزت كثيرا عن الأطفال في مثل عمرها، يرى لينبيرج أن "إيزابيل" كانت محظوظة حين تم إنقاذها قبل أن تصل سن التوقف.

كانت "جيني" أقل حظاً من "إيزابيل" فقد سجنها والداها - المخبولان - أثناء طفولتها بأن قيدوها ليل نهار ومنعوها من الحركة، ولم يتحدثوا إليها مطلقاً كما لم يسمحوا لها بالكلام فكان أى صوت يصدر عنها يُقابل بعقابها، عندما بلغت الثالثة عشرة - فى إحدى فزهاتها التادرة مع والدتها خارج البيت - رأها أحد المسئولين وأنقذها من قسوة أبويها.

تحسنت "جيني" كثيراً عندما مارست الحياة فى بيئة طبيعية، تحولت من تلك المخلوقة النحيفة الحزينة الصامته إلى فتاة مرحة مليئة بالحيوية شغوفة بمداعبة الآخرين، شرعت بعد ذلك فى تعلم اللغة الإنجليزية، بدأت بالمقاطع المكونة من كلمة واحدة ثم سرعان ما انتقلت إلى مرحلة الكلمتين، وتمكنت بسرعة من اكتساب العديد من ملامح النحو الإنجليزى وكذلك المئات من الكلمات، توقفت "جيني" بعد ذلك، وحتى حين استمر تدريبها بكثافة لم تحرز أى تقدم يذكر، فمثلاً لم يتقدم استخدامها للنفى بعد المرحلة التى سبق الحديث عنها والتى تستخدم بها الكلمة النافية "no" فى بداية الجملة، خلاصة القول أن قدرتها اللغوية توقفت عند سن الثانية والنصف فى حين أن قدراتها الأخرى وصلت إلى مستوى طفل السابعة أو الثامنة.

تدعم حالة "جيني" المساوية فرضية التوقف، لكن الأمر لا يرقى لهذه الدرجة من البساطة، عندما تم اكتشاف "جيني" كانت متخلفة لدرجة كبيرة وظلت كذلك بالرغم من تقدمها فى بعض الجوانب الحياتية إلى حد ما، يمكن القول أنها كانت متخلفة فعلاً عند ميلادها، لكن الأجدد بنا أن نقول أنها ولدت طبيعية وجاء تخلفها نتيجة حتمية للسنوات الطوال التى عوملت فيها بوحشية، لا يمكننا الحكم أن فشلها فى تعلم اللغة الإنجليزية كان نتيجة لعجزها الإدراكى العام فقط.

ينطبق الأمر ذاته على "شيلسا" التى ولدت فاقدة لحاسة السمع، وعندما فشلت فى تعلم الكلام جاء تشخيص حالتها خطأ بأنها متخلفة عقلياً، تختلف "شيلسا" عن الطفلتين السابقتين فى أنها عاشت وسط أسرة متحابية مكنتها من الحياة بصورة طبيعية قدر الإمكان، عندما بلغت الواحدة والثلاثين من عمرها رأها طبيب ووصف لها علاجاً ليساعدها على استعادة حاسة السمع، بدأت "شيلسا" فى تعلم اللغة الإنجليزية بعد أن تمكنت من السمع بشكل طبيعى لأول مرة، وبعد مرور سنوات من التدريب المكثف تسنى لها اكتساب ما يقرب من ألفى كلمة، ومعرفة أصول النحو الإنجليزى .

كما استطاعت أن تقرأ وتفهم ما يقال لها بالقدر الذي يجعلها تقوى على الحياة بصورة طبيعية وتلتحق بوظيفة لنصف الوقت، هذا ولم تتمكن من اكتساب ما يجعلها تتقن استخدام اللغة كإنسانة عادية، لقد توقفت قدرتها اللغوية أيضا عند سن الثانية والنصف تقريبا.

على ما يبدو أن الأدلة التي قدمها لنا المرضى المضطربين عقليا والأطباء غير البارعين تؤكد فرضية "لينبيرج" وهي أن قدرتنا الخارقة على تعلم اللغة تظل بحوزتنا حتى السنوات الأولى القلائل من عمرنا ثم لا تلبث أن تذهب بفعل بعض الترتيبات الجينية، كما لو أن اللغة جزء من جيناتنا التي هي هبة طبيعية.

هل تتواجد اللغة في جيناتنا ؟

تقول فرضية "شومسكي" بشأن الفطرية، ضمنيا، أن قدرتنا اللغوية تستقر في جيناتنا. يدعم ذلك أن العيوب الجينية تؤثر على عملية اكتساب اللغة، بالطبع لم يسم أحد الأفراد جينا معيننا خاصا باللغة - فأمر الجينات ليس بسيطا إلى هذه الدرجة، لكن بعض الدراسات الحديثة أثبتت تواجد صلة ما بين اللغة والجينات وتبعاً لذلك كانت الصلة بين اللغة وفرضية الفطرية.

هناك أنواع متعددة من العيوب الجينية والتي ينتج عنها عدد من الاضطرابات الجسدية والعقلية، فقد اكتشف منذ سنين مضت أن عيبا معيننا يصيب عدد الكروموسومات الحادية عشر يؤثر سلبيا على أيض الكالسيوم^(٨٨) فيلحق ضررا بأجسامنا، يعاني الأطفال المصابون بهذا الضرر من "أعراض ويليمز" : فهم يتسمون بصغر الجسم والتخافة كما يعانون من اضطرابات بأعضائهم الداخلية ويشبه وجههم الجنية، إنهم متخلفون عقليا لدرجة كبير، فلا يمكنهم جمع اثنين واثنين أو عقد رباط حذائهم أو إعداد المائدة وإن تقدم بهم السن، برغم ما سبق، يمكن لأطفال "ويليمز" تعلم اللغة - كيف! - إنهم يتعلمونها بصورة طبيعية بل يظهرون براعة في استخدامها، فهم يتحدثون سريعا وكأنهم يلهثون، فقد لاحظ الباحثون أنه من الصعب إيقافهم عندما يبدعون في الكلام، إنهم يكتسبون عدداً هائلاً من المفردات، كما يمكنهم تكوين جمل

(٨٨) الأيض تغيرات كيميائية في الخلايا الحية التي تُؤمنُ بها الطاقة الضرورية للعمليات والنشاطات الحيوية الجديدة لتعويض المنتثر منها.

طويلة ومعقدة بلا أدنى جهد : كما أن قدرتهم على اكتساب القواعد النحوية بارعة بالفعل فيما عدا اتجاههم إلى جعل الأشكال الشاذة عادية : يأتون بالشكل "taked" على أنه الصيغة الماضية للفعل "take" (ياخذ)، (took هو الفعل الصحيح)، إنهم يسربون حكايات مدهشة ومفصلة، إلا أنهم في بعض الأحيان يواجهون بعض المشاكل مع الواقع فقد يثرثرون بمرح عن أشياء أو أصدقاء ليس لهم وجود، عندما يبتهجون يستخدمون كلمات لا تناسب المقام الذي تقال به، اطلب من أي طفل عادي تسمية بعض الحيوانات، ستجده يقول "cat" (قط)، "dog" (كلب)، "cow" (بقرة)، "horse" (فرس)، اطلب من طفل "ويليمز" نفس الشيء ستسمعه يقول أشياء مثل "ibex" (الوعل)، "yak" (الياك، شور من حيوانات آسيا الوسطى)، "unicorn" (حيوان خرافي يشبه الحصان وله قرن طويل في وسط جبهته)، مجمل القول، إذا استمعت إلى طفل "ويليمز" لن تلاحظ أي خطأ في كلامه، يجب أن يقضى هؤلاء الأطفال حياتهم في مؤسسات للرعاية.

تدل أعراض ويليمز على أن التلف المدمر الذي يصيب العمليات العقلية والإدراكية لا يؤثر على سلامة القدرة اللغوية، يعد هذا دليلاً على صحة فرضية الجزئية المذكورة بالفصل السادس، ولكنه لا يثبت الصلة بين اللغة والجينات، الآن دعونا نختبر نوعاً آخر من الإعاقة.

أدرك الأطباء منذ زمن بعيد أن طائفة بعينها من الأطفال الذين يظهرون طبيعيين وأصحاء وأذكياء يواجهون صعوبة بالغة في تعلم لغتهم الأم، إنهم في الغالب يبديون في التعلم في مرحلة متأخرة ويتقدمون ببطء ويتكلمون بصورة بطيئة وشاقة ويجدون صعوبة في إكمال ما بدأوه من جمل علاوة على الأخطاء الكثيرة التي يرتكبونها، كما أن بعضاً منهم يتكلم بسرعة وطلاقة ولكنهم يصنعون عدداً كبيراً من الأخطاء النحوية، في النهاية قد ينجح بعض هؤلاء الأطفال في اكتساب القدرة اللغوية في حين قد يفشل بعض آخر، وفي كلتا الحالتين تبقى الإعاقة قائمة طوال حياتهم، تسمى هذه الإعاقة "بالتلف المحدد للغة"، وللإختصار تسمى "SLI"، مسمى عديم المعنى ولكنه يشتمل على عدد من الإعاقات المختلفة، لاحظ عدد من الأطباء انتشار "التلف المحدد للغة" داخل العائلة الواحدة - كما اكتشفت اللغوية الكندية "ميرنا جوينك" ودرست عائلة بأكملها في بريطانيا ظهرت بها تلك الإعاقة عند ١٦ من بين ٣٠ من أفرادها على مدى ثلاثة أجيال. تسبب اكتشافها هذا في قيام عاصفة من المناقشات الحادة.

عائى من "SLI" - من أفراد هذه العائلة - الجدة وأربعة من أولادها الخمسة وأحد عشر من أحفادها الذين يبلغون أربعة وعشرون، ولم يصب أى من أولاد أحد أبنائها الذى لم يكن مصابا، نلاحظ إصابة الذكور والإناث بصورة متساوية، كذلك لم يصب توأم لأحد الأحفاد المصابين، كالعادة كان كل الأفراد المصابين أسويا، نوى ذكاء عادى وسمع طبيعى.

تظهر الأعراض ذاتها على كل الأفراد المصابين، فهم يتكلمون بصعوبة ويطء، كما أنهم يتوقفون من حين لآخر لتصحيح أخطائهم ولكنهم فى الغالب يحولون فى تصحيحهم هذا الأشكال السليمة إلى أخرى غير سليمة، يمتلئ كلامهم التلقائى بالأخطاء النحوية فى أشكال الكلمات وليس تركيب الجمل، إنهم يتفاضون عن النهايات النحوية للأسماء بشكل منتظم وقد يستخدمون النهايات الخاطئة كأن يقولون جملا مثل "There's a trains coming" (هناك قطار قادم) استخدام أداة التنكير "a" (مع الاسم الجمع، "Yesterday I eat dinner late" (تناولت عشاءى فى وقت متأخر بالأمس) استخدام صيغة الفعل المضارعة مع الزمن الماضى، لا يخطئ طفل فى سن المدرسة مثل هذه الأخطاء مطلقا - لكن المصابين فى سن ما بين الأربعين والسادسة والسبعين، والأطفال فيما بين الثامنة والتاسعة عشر يخطنون هذه الأخطاء وقت إجراء الدراسة عليهم، بالإضافة إلى ذلك، تلقى جميع المصابين - ما عدا الجدة - علاجا مكثفا لمعالجة مشكلاتهم ولكن لم يحدث أى تحسن يذكر.

لاحظت "جوبنيك" عندما قامت باختبار الأفراد المصابين عدم قدرتهم على التمييز بين الأشكال النحوية الصحيحة وغير الصحيحة أو اختيار الصحيح منها، عنما سئل أحدهم هل الجملة "The boy eat three cookie" (أكل الولد ثلاث كعكات) صحيحة أم خاطئة، لم يأت بآية إجابة، عنما طُوب بإكمال الجملة "Every day he walks three miles. Yesterday he ..." (إنه يسير ثلاثة أميال كل يوم، بالأمس ...) أضافوا الفعل "walk" (الصيغة المضارعة للفعل بدلا من الماضى)، كما كان فشلهم فى اختبار "wug" المذكور آنفا شئيا مذهلا، فعندما طلب منهم جمع "wug" جاءوا بالكلمات "wugss" و"wugness"؛ كما أتوا بجمع كلمة "zat" بالكلمات "zackie" و"zacko"، الكلمة "zoopez" كجمع للكلمة "zoop"، "zatches" للكلمة "zash"، "tobyess" للكلمة "tob" ما الذى يحدث بالله عليكم ؟

جاءت "جوينيك" باستنتاجين، أولهما عدم استيعاب هؤلاء الناس لحقيقة وجود قواعد لصياغة الجموع والأزمنة الماضية، لذا كان لزاماً عليهم تعلم كل صيغ الجموع والأزمنة الماضية مثلما نتعلم نحن صياغة الأشكال الشاذة أمثال "men" (رجال) ، "took" (أخذ) وعندما تصادفهم أحد الكلمات الجديدة فإنهم لا يعرفون طريقة جمعها، ثانيهما تشابه توزيع الإعاقة على أفراد الأسرة مع ما نتوقعه من مشكلة أخرى يسببها عيب في جين ما، لذلك فإن هؤلاء الناس قد توارثوا جينا معيبا.

يتوافق تحت أيدينا الآن دليل مباشر يقول أن قدرتنا اللغوية يتم التحكم فيها عن طريق الجينات، وذلك لأننا لا نعرف من الآثار المترتبة على الجينات المعيبة سوى فقدان القدرة على تكوين قواعد نحوية بعينها، بالطبع لا يزال الجين المعيب الذي نتحدث عنه غير واضح المعالم، فهو لا يزال قيد التخمين بالرغم من أنه يحظى باستحسان كبير، تشبثت الصحف ذات الشعبية بما قالته "جوينيك" في شأن "الجين النحوي"، ولكن لسوء الحظ أساء العديد من رجال الصحافة الذين كتبوا عنه فهم معنى مصطلح "النحو" تماما، كما أنهم توصلوا لنتيجة مناقية للعقل ألا وهي أن متحدثي الإنجليزية غير النموذجية الذين يقولون "I ain't got none" (لا أملك شيئا) لديهم مشكلة جينية (انظر الفصل الثامن للأمر ذاته).

لا زالت فرضية "شومسكي" محلا للجدال، ولكن هناك كما من الأدلة المؤثرة الآخذة في الازدياد تقر بصحتها : توارثنا لقدرتنا اللغوية الفريدة أمر مذهل - والتي لا يشاركنا فيها أى من المخلوقات الأخرى - من أسلافنا الذين قاموا بتطويرها، إننا الآن على يقين بأن قدرتنا اللغوية جزء من حياتنا، مثلها في ذلك مثل أشياء تصبح جزءاً لا يتجزأ من أجسام الحيوانات، أجنحة الطيور التي تمكنها من الطيران، رقص النحل، ارتداد الموجات فوق الصوتية التي تمكن الخفاش من إيجاد طريقه.

الفصل الثامن

اتجاهات حول اللغة

في أحد العروض المسرحية القصيرة المغمورة والتي أداها فريق "مونتى بايثون" الكوميدي، كان أحد المذيعين يتحاور مع أستاذ لتاريخ العصور الوسطى بجامعة أكسفورد بشأن نظام الزراعة المفتوح، أخذوا يتناقشون أثناء حديثهم عن حقوق والتزامات الأحرار والفلاحين، هاج الجمهور وماج لأن المذيع كان يتحدث كأي فرد عادي بينما كان الأستاذ الجامعي يتحدث بلكنة ساكنى أحياء لندن الفقيرة - أى لكنة الطبقة العاملة بلندن، نظراً لأن أساتذة جامعة أكسفورد لا يتحدثون باستخدام هذا النوع من اللكنات فإن ما قاله الأستاذ الجامعي يبدو غريباً على الأذان البريطانية بالرغم من أنه منطقي ومفيد : لقد وجد المتحدثون البريطانيون أنه من المستحيل قبول أستاذ جامعي يتحدث بلكنة الطبقة العاملة التي تقطن المدن، ويستخدم في كلامه الاختصار 'ويقول "yeah" (نعم) بدلا من "yes".

خلصنا من خبراتنا السابقة أن اللغة تحتوي على عدد من الجوانب الفريدة في نوعها، سواء على المستوى العام - المخلوقات بمختلف أنواعها - أو المستوى الإنساني، كما أن اتجاهات البشر حول اللغة تكون غير معتادة، لذا فإننا سندرس في الفصل الحالي بعض النماذج المثيرة لاتجاهات البشر حول اللغة.

هل من الممكن أن تكون اللغة لا أخلاقية ؟

كان للفيلسوف والعالم اليوناني القديم "أرسطو" صولات وجولات على جانب كبير من الأهمية في مختلف فروع المعرفة (يدخل علم اللغويات ضمن هذه المعارف، لكن هذا لا يعنينا الآن)، بلغ أرسطو درجة من رفعة الشأن خلال العصور الوسطى جعلت من أي قرار يقوم بإصداره محل قبول لدى الجميع، وبدون أية مناقشات، كانت إسهاماته في علم الأحياء من أروع ما توصل إليه حيث كان ملاحظاً بارعاً في هذا المجال، بالرغم من ذلك فقد وجدناه يؤكد في إحدى مؤلفاته أن النساء يملكن عدداً من الأسنان أقل من الرجال.

إننا متأكدون تماما - بالرغم من أننا لم نجر دراسات كافية في هذا الشأن - من أن عدد الأسنان عند النساء يساوي تماما عددها عند الرجال، أي واحد وثلاثون سنا وعليك التحقق من ذلك إذا قمت بفحص أسنان بعض الناس، إذن كيف لنا أن نجابه هذا التناقض بين ما أكده أرسطو وما توصلنا إليه عن طريق ملاحظتنا ؟ يمكننا حل هذا التناقض بأحد الافتراضين الآتيين :

١ - خطأ ما أكده أرسطو : فربما يكون اكتشافه هذا غير واف، بل من المؤكد أن يكون خاطئا تماما.

٢ - خطأ ما ألفناه من حقائق : أي أن أسنان النساء لا تنمو بالطريقة الصحيحة ويجب حثها على جعلها تنمو بالطريقة المناسبة.

ما رد فعلك تجاه هذين الافتراضين ؟ تبعا لأنك شخص طبيعي للغاية ستجد الافتراض الأول هو وحده المقبول في حين أن الثاني جنون فحسب.

دعونا نسأل نفس السؤال في منحنى مختلف تماما عما سبق ذكره، خلص المؤرخ الأمريكي الشهير 'كران برينتون' في إحدى دراساته عن الثورات إلى أن كل ثورة تتم بطريقة واحدة وبنفس ترتيب أحداثها، لتأخذ ثورة نيكاراغوا التي قامت عام ١٩٧٩ كمثل، افترض - من أجل إتمام المناقشة - أننا قمنا بدراستها فوجدنا أن أحداثها لم تسر وفق ما توصل إليه 'برينتون' : أي افترض حدوث أشياء بها ذات ترتيب مختلف عن غيرها من الثورات الأخرى. إذا ما توصلت إلى هذه النتائج، ماذا ستكون إجابتك ؟

١ - خطأ ما توصل إليه 'برينتون' : أي أن عمله غير واف، أو لنقل خاطئ تماما.

٢ - خطأ الحقائق التي ألفناها : أي أن سكان نيكاراغوا لم يقوموا بثورتهم هذه بالطريقة الصحيحة، لذلك لنا أن نعلن عدم صلاحيتها ونحثهم على القيام بها مرة أخرى بالطريقة الصحيحة، ما رد فعلك هذه المرة ؟ إننا واثقون هذه المرة أيضا أنك ستختار الاستنتاج الأول كأفضل استنتاج.

تري لماذا نسأل هذه الأسئلة غير المجدية ؟ دعونا نعرض مثالا آخر، هناك تكوين في اللغة الإنجليزية يسمى بالمصدر المتشطر (تخدعنا تسميته التقليدية هذه إلى حد كبير)، من أمثلته ما يلي : "I want to gradually save enough money to buy a car"

(إننى فى حاجة إلى توفير نقود كافية حتى أتمكن من شراء سيارة) ، **"She decided to never touch another cigarette"** (لقد قررت ألا تقرب السجائر على الإطلاق)، تبادل كل من النحويين ومعلمى اللغة الإنجليزية الاتهامات حول المصدر المنشطر على مدى مائتى عام، واعتبروه شكلا غير نحوى ولا يمت للإنجليزية بصلة، لكن بالرغم من ذلك فإننا نلاحظ احتواء كلام كل متحدثى الإنجليزية على هذا التكوين فهم يستخدمونه وبصورة تلقائية : إنه ملمح أساسى من ملامح اللغة فى جميع أنحاء العالم، يتكرر فى مثالنا هذا التناقض بين ما نادى به المتخصصون وما جرت عليه العادة، ماذا ترى ؟

١ - خطأ ما نادى به المتخصصون : أى أن عمل النحويين غير واف بالغرض أو أنه خطأ إلى درجة كبيرة.

٢ - خطأ الحقائق المتعارف عليها : أى أن متحدثى اللغة الإنجليزية لا ينطقون تلك اللغة بالطريقة السليمة والواجب علينا توجيههم نحو الاستخدام الأمثل لها.

ما شعورك هذه المرة ؟ لا يمكننا الإجابة بدلا منك هذه المرة، كل ما نستطيع قوله هو أن عددا كبيرا من حملة لواء العلم من متحدثى اللغة الإنجليزية أثروا الاستنتاج الثانى : إنهم مقرون بخطأ الحقائق ويحاولون قدر الإمكان تجنب نطق أى مصدر منشطر، من أمثلة ما يقولونه **"I want gradually to save enough money to buy a car"** (إننى فى حاجة إلى توفير النقود الكافية من أجل شراء سيارة).

يبدو أن رد الفعل تجاه هذا الأمر مدهش، فالذين يقبلون الاستنتاج الثانى يقرون بصحة ما توصل إليه النحويون فقط لأنه تم تدعيمه بأقوال أناس نوى ثقل، كما دعمه ظهوره فى كل الكتب، وهم يرون وجوب تغيير الحقائق حتى تتناسب مع وصف النحويين.

كيف يستقيم ذلك ؟ لو أخبرك الميكانيكى أن "سير المروحة سليم بينما تراه أنت غير ذلك فإنك ستبحث عن ميكانيكى جديد، كذلك إذا أكد لك أحد البائعين أن كلا من الجوتلة القصيرة القرمزية والبلوزة البرتقالية يصلح ارتداؤهما وقت الذهاب للالتحاق بوظيفة فى بنك، فإنك ستتركين المحل وتبحثين عن غيره، كما أنك ستبحث عن وكيل آخر للعقارات إذا أخبرك أحدهم أن المنزل الكائن فوق حافة الصخور المفتتة فرصة للشراء فى حين أنك شاهدت المنزل المجاور له متساقطا، إذا أقر لك أكثر الخبراء شهرة

بصحة شيء ما - في شتى جوانب النشاط الإنساني - تراه أنت خطأ فادحا فإنك ستتجاهله وتبحث عن شخص أرجح عقلا تتحدث إليه.

لكن يبدو أن اللغة مستثنى من ذلك، إننا عندما نأتى إلى أمر اللغة نجد أن الاستنتاجات غير المعقولة في كل جوانب النشاط الإنساني تكون مقبولة عند معظم الناس ومنطقية بل تكون الإجابة الوحيدة الممكنة : يسعد أمثال هؤلاء الناس هذه المرة وهم يتفقون على خطأ الحقائق ولزوم تغييرها، وتسمى هذه الرؤية الغربية الواسعة الانتشار بالمعيارية، إنها اعتقاد بأننا لا نقوى على اعتبار اللغة أمر يمكننا تناوله بطبيعته، بل يجب علينا تغييرها لتتناسب مع القوانين الموضوعية من قبل مجموعة من الخبراء المستقلين، بغض النظر عما إذا كانت هذه القواعد خاطئة أو غير مقبولة.

لم تقتصر هجمات النحاة المعياريين على "المصدر المنشطر"، فقد رفضوا أيضا استخدام الشكل "It's me" (إنه أنا) ورشحو الشكل "It's I" بدلا منه، ولكن كل منا يقول "It's me"، هل فكرت في إحدى المرات التي نظرت فيها إلى صورتك الفوتوغرافية أن تقول "Good heavens! Is that really I?" (يا إلهي، هل هذا أنا؟)، لقد شاع استخدام الشكل "It's me" باللغة الإنجليزية لقرون عدة كان فيها الشكل "It's I" اختراع غريب من صنع النحاة المعياريين الذين أخبرونا أن الشكل "It's I" أكثر منطقية من الشكل "It's me" - بغض النظر عما يعنيه هذا الشكل - وأنه من الخطأ استخدام الشكل "It's me" الذي ألفنا عليه لم يعبا الكثيرون بما قاله المعياريون، ولكن قلة قليلة اتبعت آراءهم فكان من ضمن كلامهم "The person you're looking for is I" (أنا ذلك الشخص الذي تبحث عنه)، كما واصل حملة الهجوم ضد الشكل "It's me" الصحفي صاحب عمود في أحد الصحف والذي تخصص في الكتابة عن استخدامات اللغة الإنجليزية فرفض العبارة القديمة "Woe is me" (الحنن أنا) وحث قراءه أن يصوبوا تلك العبارة الهمجية لتصبح "Woe is I"، ولكنه تراجع عن موقفه هذا بعد مرور أسبوعين عندما أخبرته جماعة من قرائه نوى الخلفية الثقافية أن العبارة "Woe is me" استخدمت منذ آلاف السنين وهي تعني "Woe is to me" (أنا المقصود بالحنن)، (قارن تلك العبارة بالعبارة الألمانية "Weh ist mir")، بالرغم من ذلك، لم تعبا المعيارية بالحقائق كثيرا، واهتمت بالأهواء الشخصية والآراء التي تصدرها الحكومات.

تطرق هجوم المعياريين إلى أشكال مثل "Who did you see ?" (من الذى تراه) حيث طالبوا استخدام الشكل "Whom did you see ?" بدلاً منه، وحجتهم فى ذلك أن هذا الشكل الأخير تم استخدامه منذ خمسمائة عام، وهى حجة واهية، هل هناك حاجة ملحة لإحياء هذا الشكل وانتشاله من بين ركام من آلاف الأشكال التى انقرضت لمجرد أن جماعة قليلة العدد من المتعصبين أرادوا ذلك، منذ خمسمائة عام كان الناس يقولون "He is yclept John" بدلا من "He is called John" (إنه يدعى جون)، فلماذا لم يُبعث هذه الشكل من جديد أيضا؟

كذلك رفض المعياريون إنهاء الجمل بحروف الجر، فبدلا من استخدام العبارة "Who are you staying with" (مع من تسكن) يجب استخدام "With whom are you staying". لماذا؟ ليس من سبب محدد، كل ما فى الأمر أنهم لا يفضلون وضع حروف الجر بنهاية الجمل، لاحظ أن حروف الجر جزء من النحو الإنجليزي بالغ الأهمية ولا يمكن الاستغناء عنه، إن الطفل الصغير الذى يقول لأبيه "Daddy, what did you bring that book I didn't want to be read to out of up for" (لماذا أحضرت هذا الكتاب يا أبى لا أريد أن يقرأ لى أحد) يتكلم لغة إنجليزية صحيحة، ولن يتمكن أى شخص من إعادة ترتيب جملة تلك لكى يتقدم حرف الجر بدلا من أن يأتى فى نهاية الجملة، أجاب ويستون تشرشل على شخص ما انتقد وضعه لحروف الجر بنهاية الجمل - برد لا يخلو من حكمة - قائلا "This is an outrage up with which I shall not put" (هذا اعتداء لن تقوى على احتماله).

يمكننا الاستمرار فى ذكر الأشكال التى هاجمها المعياريون إلى ما لا نهاية، ونتيجة لهجماتهم تلك اعتقد متحدثو الإنجليزية وجود خطأ بلغتهم حيث أنها لا تتوافق مع الكتب التى تصف تلك اللغة، ترى لماذا يعتقدون ذلك؟ إننا نعتقد أن استخدام اللغة محكوم باعتبار أخلاقية عند العديد من الناس.

يتضح مما تقدم أن محاباة المعياريين للشكل "It's I" ورفضهم لاستخدام كل من المصدر المنشطر وحروف الجر بنهاية الجمل ليست قواعد نحوية على الإطلاق، بل إنها مجرد آراء شخصية حول الاستخدام الأمثل للغة، كذلك القواعد التى يتبعها قارئو السيارات والتى ذكرناها بالفصل الثانى من الكتاب، يمكن للأراء الشخصية أن تكون آراء صائبة ولكنها قد تكون خاطئة أيضا، إن الأراء الأربعة التى نادى بها المعياريون

خاطئة بالفعل، إنها نتاج للأهواء الشخصية والجهل وليس للملاحظة أو الرغبة في إضفاء الوضوح أو البقاة على الكلام، أي إننا في غنى عن هذه الآراء، ولكن بعض الناس لا يمكنهم الاستغناء عنها لأنها ارتقت عندهم إلى مكانة الضرورة الأخلاقية، إننا نتغاضى عن الآراء التي تقال لنا بشأن ملابسنا، ولكننا عندما نأتى إلى أمر اللغة نكون شغوفين لتقبل أى آراء بغض النظر عما إذا كانت مناقية للعقل أو للطبيعة، كذلك الإمبراطور الذى أخبره الناس بإعجابهم الشديد بروعة ملابسهم، خلاصة القول أن البعض يعتقدون بأن الجهل بالآراء التي تقال في شأن اللغة أو رفض تلك الآراء - حتى إن بلغت درجة من الحماسة - أمر غير أخلاقي.

إننا على يقين بأن ذلك الأمر الأخلاقي هو السبب وراء محاباة الرأي الخاص باستخدام الشكل "whom" بدلا من "who"، لقد قرر البعض أن استخدام الشكل "whom did you see" مسئولية أخلاقية ينتهجها كل فرد مهذب مستقيم، بينما اعتبروا استخدام الشكل "who" انحذار أخلاقي يتساوى بالتعامل مع الحال التي تروج المضائق الضارة أو حتى مع التهريب الضريبي، قد تعد هذه الخاتمة مفاجئة لك ولكنه التفسير الأمثل لما سبق.

ماذا يحدث للغتنا؟

رأينا بالفصل الخامس أن حدوث التغيير ملمح ثابت لا يمكن تجنبه في كل اللغات، فعلى مدى حياة أى شخص تكتسب اللغة عدداً من الكلمات الجديدة والنهجات والأشكال النحوية وتفقد كذلك عدداً من الأشكال القديمة، لا يسعد كل الأشخاص بهذا الصنيع، انظر إلى الجمل القليلة التالية :

(8-1) Fortunately, I have a spare fan belt.

(١-٨) لحسن الحظ أن عندي إطارا احتياطيا.

(8-2) Frankly, you ought to stop seeing Bill.

(٢-٨) أقولها لك بصراحة، ينبغي أن تتوقف عن رؤية بل.

(8-3) Mercifully, the ceasefire appears to be holding.

(٣-٨) إن وقف إطلاق النار أمر يدعو للتفاؤل.

(8-4) Undoubtedly, she has something up her sleeve.

(٤-٨) مما لا شك فيه أنها تخفي شيئاً ما .

(8-5) Hopefully, we'll be there in time for lunch.

(٥-٨) نأمل أن نصل في موعد الغداء .

(8-6) Honestly, you have no taste in clothes.

(٦-٨) بأمانة، ذوقك في اختيار ملابسك غير موفق .

هل هناك شيء ما أصابك بالدهشة في تلك الجمل ؟ أم أنها جعل عادية ؟ إن هذه الجمل عادية لدرجة كبيرة بالنسبة لمعظم الناس، ولكن في الحقيقة نقول أن خمسة منها جملاً طبيعية للغاية عند كل الناس، بينما جملة واحدة غير ذلك .

تتسبب الجملة (٥-٨) في مشاكل لبعض الناس، فقلة من متحدثي اللغة الإنجليزية لا يرفضون أمثال هذه الجمل فحسب بل يفعلون ذلك وهم يموتون غيظاً .

تمثل كلمة "hopefully" بموقعها هذا مشكلة لهؤلاء الناس، فهم لا يفضلون هذا الموقع ويتذمرون من وجودها به، وقد وصف الأستاذ "فيليب هاورد" - الكاتب اللغوي الشهير - هذه الكلمة في موقعها السابق بأنها "مقوتة"، "غامضة"، "مبهمة"، "كريهة"، "رتانة"، "جاهلة"، ويؤكد أن من يقى بها في هذا الموضع يكون أكاديمي أمريكي غير حاذق في مهنته، إنه يرفضها في موقعها هذا بكل حال من الأحوال .

لم يكن (فيليب هاورد) هو الوحيد الذي تصدى لاستخدام تلك الكلمة في موقعها ذلك، فقد اشتكى العديد من الكتاب الآخرين منها بنفس الدرجة من الامتنعاض، لكن لماذا تصدى هؤلاء القلة لثقل هذا الاستخدام بينما اعتاده الآخرون ؟

تسمى الكلمات المتبوعة بالفاصلة في الجمل السابقة بالتعبيرات الظرفية، ولكن كل ما في الأمر أن هذه التعبيرات تم استخدامها منذ أجيال عديدة بينما استخدمت "hopefully" كتعبير ظرفي على نطاق واسع منذ عقدين أو ثلاثة، أي أنها تجديد حديث في التاريخ الطويل لتغيير اللغة الإنجليزية .

إن الذين يرفضون استخدام "h" يكوّنون من متوسطى أو كبار السن، إنهم أناس استخدموا الإنجليزية لعقود عدة قبل أن يظهر هذا التجديد بها، وعلاوة على ذلك، فهم أناس نالوا قسما وافرا من التعليم ويولون اهتماما خاصا لاستخدام اللغة، إنهم غالبا متحفظون بشأن وجهتهم للغة، فهم يعيلون إلى التصدى للتغيرات التي تحدث فى اللغة الإنجليزية على أنها "فشل" و"فساد"، على العكس نشأ المتحدثون من صغار السن على هذا الاستخدام الجديد واعتبروه طبيعى للغاية.

لم تكن الجلبة التي صنعت حول الصوت "h" اتجاها جديدا فهناك اعتراضات مشابهة فى كل مرحلة من مراحل التاريخ اللغوى للغة الإنجليزية وكذلك أية لغة أخرى، ما رأيك فى الأمثلة التالية ؟

(8-7) My car is being repaired.

(٧-٨) يتم إصلاح سيارتى.

(8-8) My house is being painted.

(٨-٨) يتم طلاء بيتى.

(8-9) This problem is being discussed at today's meeting.

(٩-٨) ستم مناقشة هذه المشكلة فى اجتماع اليوم.

هل من شىء غريب ؟ إننا لا نعتقد ذلك، فليس هناك متحدث للإنجليزية يصف هذه الجمل بأنها غير عادية.

لم يظل الأمر كذلك، فحتى القرن الثامن عشر لم يعد لمثل تركيب هذه الجمل وجود باللغة النموذجية، وكان على المتحدث الإنجليزى أن يقول بدلا منها مثلا *My car is re-pairing*، *My house is painting*، *This problem is discussing at today's meeting* أشكال يستحيل تواجدها الآن، لكنها كانت الأشكال الطبيعية فى القرن الثامن عشر، وعندما بدأ بعض المتحدثين المجددين قول جمل مثل *My house is being painted* لم يقو المحافظون اللغويون آنذاك على تورية غضبهم. أخذوا يهاجمون التركيب الجديد بصرامة وقالوا أنه "غير مناسب"، "غير منطقي"، "مثير"، "شاذ"، لكن ذهبت جهودهم أدراج الرياح فقد مات كل هؤلاء المعارضون منذ زمن بعيد ومات معهم الشكل التقليدى

الذي طالما دافعوا عنه باستماتة، ثم أصبح الشكل الجديد "غير المنطقي" والشاذ هو الشكل الوحيد الممكن استخدامه، ولم يتمكن أكثر كتاب اللغة الإنجليزية حرصا وبراعة من الإفلات منه ولو حتى في أحلامهم، والعودة للشكل القديم البائد، قد تتعجب من حنق القرن الثامن عشر وتتساءل لماذا كل هذه الجلبة؟ كما سيقراً الجيل القادم الهجمات ضد الصوت "h" في حيرة ويسألون لماذا كل هذه الضجة؟

أظهر الكتاب الرومانيون عداً مشابهاً للتغيرات التي كانت تحدث للغة اللاتينية المتحدثة حينئذ منذ ألفى عام، لكن فزعهم بسبب "الفساد" المستمر للغة لم يكن له أي تأثير حيث استمرت اللغة اللاتينية في التغيير "الاضمحلال" حتى تطورت إلى اللغات الحديثة المعروفة لنا مثل الإسبانية والفرنسية والإيطالية، بالطبع لا يعتبر متحدثو هذه اللغات لغتهم فاسدة ولكنهم اعتبروها غنية وجميلة ومعبرة، فقد أظهر المحافظون على اللغة في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا إعجاباً شديداً بلغاتهم التي نشئوا عليها ولكنهم أبقوا على استخدام بعض الكلمات لأشياء يتفوه بها صغار السن حالياً، تنادى طائفة من المحافظين في كل وقت ومكان بأن اللغة منذ أجيال مضت كانت في أوج ازدهارها بينما تأخذ في الانحطاط سريعاً باستخدام مثل هذه الكلمات "الريثة"، "التافهة"، "الجاهلة" التي تنهافت على أسماعنا هذه الأيام.

التنقية اللغوية :

يتلقى نوع بعينه من التغيير قدراً من الاهتمام قد يستمر لعقود أو حتى لقرون بعد حدوثه، إنه الاقتراض - كما ذكرنا بالفصل الخامس - يتم استخدام عدد قليل جداً من اللغات في عزلة تامة أي أن متحدثي اللغات الأخرى يكونون على اتصال ببعضهم بعضاً ويترتب على هذا الاتصال اقتراض الكلمات من لغة إلى أخرى، كذلك لا يقنع الجميع بحدوث مثل هذه الاقتراضات، فقد يعترض المحافظون على وجود العدد الهائل من الكلمات المقترضة بلغتهم ويعتبرونها نوعاً من "التلوث" الذي يشوه "نقاء" اللغة، وهم تبعاً لذلك ربما يثورون من أجل "تطهير" اللغة وينادون بإحلال الكلمات الأصلية محل الاقتراضات الأجنبية.

بالرغم من أن اللغة الإنجليزية تحتل المكانة الأولى بين اللغات المقترضة إلا أنها أصبحت لغة مانتحة في العقود الأخيرة، إنها اللغة الأساسية للعلم والتكنولوجيا والعمل والثقافة العامة لذا فقد نهلت منها لغات مثل الفرنسية والإسبانية والألمانية والإيطالية

وحتى اليابانية - بكثرة، ما عليك إلا أن تتصفح أى مجلة أوروبية أو يابانية متداولة ستجد صفحاتها مليئة بالكلمات الإنجليزية المقترضة، أما نحن فقد تخيرنا مجلة إيطالية فوجدنا التالي : فى كل صفحة يوصف شخص بأنه "a rockstar" (نجم الروك)، "a top model" موديل مثالى، "a sex-symbol" رمز للجنس، "a top man-ager" (كبير مديرين)، فى أحد الإعلانات عن الحاسبات الآلية نقرأ عن "a hard disk" القرص الصلب و "a mouse" الفأرة و "a floppy" القرص المرن، كذلك يسمى فيلم ما بفيلم الرعب "horror" والآخر ذو نهاية سعيدة "a happy end"، أما المقالات عن الموضة فتحدث عن "look" (المظهر) وأحدث الصيحات، أى أن الصفحات تكون متخمة بكلمات إنجليزية مثل "jogging" (السير الوئيد)، "fan" (نصير)، "gadget" (آلة صغيرة مبتكرة)، "hobby" (هواية)، "t-shirt" (قميص بأكمام قصيرة)، "massage" (تدليك أو مساج)، "partour" (صالة استقبال)، "zoom" (تكبير أو تصغير)، "pay-tv" (تلفزيون بجهاز تلقى به العملات عند استخدامه)، "show" (عرض)، "home video" (فيديو منزلى)، "mass media" (وسائل إعلام)، "status" (مكانة)، "checkup" (فحص شامل).

إن الولع بالاقتراضات من اللغة الإنجليزية أزعج المحافظين اللغويين بفرنسا، لقد كانت اللغة الفرنسية - قبل ازدهار اللغة الإنجليزية فى بداية القرن الحالى - هى اللغة الأولى فى العالم لذا كان من الصعب عليها تقبل الموقف والانصياع لسيادة اللغة الإنجليزية، لهذا بذت السلطات الفرنسية جهوداً مستميتة ومضنية لوقف اقتراض مئات الكلمات الفرنسية من اللغة الإنجليزية، وتم ذلك عن طريق استبدال تلك الاقتراضات بكلمات فرنسية أصلية ومطالبة المواطنين باستخدام هذه الكلمات الفرنسية الحقيقية وليس غيرها، إذن بينما يكون الألمانى والإيطاليون واليابانيون سعداء عند شراء جهاز حاسب آلى "computer" وملحقاته من برامج "software" وقلم ضوئى "light pen" وقرص مرن "floppy" يكون الفرنسى مضطراً لشراء "ordinateur" و "logiciel" و "a crayon optique" و "a disquette" أقترضت الفرنسية الكلمة الإنجليزية "debug" (يخرج برنامجاً تليفزيونياً لأول مرة) على الشكل "débugger" فى أول الأمر ولكن السلطات الفرنسية أمرت أن تكون الكلمة على الشكل "débuguer" والذي يقترب كثيراً من الشكل الذى تأتى عليه الكلمات الفرنسية، يذكرنا المثال الأخير بمحاولة البعض لتبديل الكلمة الإنجليزية المقترضة "bulldozer" (بلدوزر) بالكلمة الفرنسية "bouladozer".

لنضع الأمور في نصابها الصحيح نقول أن السلطات اللغوية الفرنسية نجحت إلى حد ما في إقصاء بعض الاقتراضات الإنجليزية خارج لغتهم، ومع ذلك لا زال المتحدثون الفرنسيون يقضون "le weekend" (أجازة نهاية الأسبوع) في "le camping" (الريف)، ويستمعون إلى "un CD" (أسطوانة) أو "un walkman" (جهاز كاسيت)، وربما يفضلون الاستماع لموسيقا "le rock" (الروك) أو "le jazz" الجاز أو "le blues" (الأغاني الكنيية الزنجية الأصل) أو "le heavy metal" (الهيفى ميتال)، إنهم إذا فكروا في قضاء سهرة خارج المنزل قد يذهبون إلى "le pub" (البار) ويتناولون "un scotch" (ويسكى أسكتلندي) أو "un gin" (الجن)^(٨٩) أو "un cocktail" (كوكتيل)، أو يذهبون لمشاهدة "un western" (فيلم غربي)، أو قد يمكثون بالنزل لقراءة "un best seller" (أكثر الكتب رواجاً) أو مشاهدة "le football" (كرة القدم) بالتلفزيون، أثارت دهشتنا تلك الحملة الإعلانية التي شنتها السلطات الفرنسية عندما أقلقها انتشار مرض الإيدز، وفي أحد هذه الإعلانات تظهر سيدة صغيرة السن جميلة تخرج لسانها من فمها، ومكتوب على الصورة تعليق "يسقط الإيدز"، يبدو أن العامية الإنجليزية قد وجدت طريقها باللغة الفرنسية وبخاصة في حديث صغار السن، يسمى العداء تجاه الكلمات المقترضة من لغات أخرى بالتنقية اللغوية، وهو ظاهرة واسعة الانتشار.

يمثل الاقتراض بالترجمة أحد الطرق المتبعة في إطار حملة التنقية اللغوية، إنها طريقة جيدة لاقتراض الكلمات الأجنبية، فبدلاً من اقتراض الكلمة بذاتها تقوم اللغة المقترضة بترجمة تلك الكلمة حرفياً لتبدو هذه الترجمة قريبة الشبه بالكلمات الأصلية لتلك اللغة.

اتبع الرومانيون القدامى تلك الطريقة عند اقتراضهم لكلمات من اللغة اليونانية التي كانت ذات مكانة عظيمة حينئذ، تتكون الكلمة اليونانية "sympathia" - على سبيل المثال - من جزئين: السابقة syn- وتعنى (مع) والجذر "pathia" ويعنى (معاناة)، قام الرومانيون بترجمة هذه الكلمة باستخدام اللاحقة con- (مع) والجذر "passio" (معاناة) الخاصين بهم، لينتج عن تلك الترجمة الاقتراضية الكلمة "compassion"، أما المتحدثون للألمانية فقد ترجموا هذه الكلمة بدورهم باستخدام العناصر الألمانية "mit" (مع) و "leid" (معاناة) لينتج عنها "mitleid" ومعناها (تعاطف) أو (شفقة)، بالمثل تكونت الكلمة اللاتينية "expressio" من "ex" (خارج) و "passio" (ضغط)، وتم اقتراضها للألمانية بالترجمة فأصبحت "Ausdruck"، "aus" (خارج) و "druck" (ضغط).

(٨٩) شراب مُسكر.

كانت كل من اللاتينية والألمانية من أكثر اللغات اعتماداً على الاقتراض بالترجمة كبديل للاقتراض المباشر، ولكن قد يسبقهما في ذلك اللغة المجرية، تعد الكلمات اليونانية "thermos" (حرارة) و "metron" (مقياس) مصدراً للكلمة "thermometer" الإنجليزية و "thermometer" الفرنسية و "term?metro" الإسبانية و "thermometer" الألمانية و "thermometr" البولندية و "termometro" الباسكية و "termometre" التركية و "termometr" الروسية و "thermometer" السويدية، وهكذا بامتداد القارة الأوروبية - فيما عدا اللغة المجرية - فالكلمة بها هي "h?mér?" وهي اقتراض بالترجمة من نفس اللغة.

فضلت اللغة الإنجليزية الاقتراض عن الاقتراض بالترجمة، فقد اقترضت على الرحب والسعة الكلمات اليونانية "expression" و "compassion" والكلمة اليونانية "sympathy"، لم يتزعج أحد من ذلك الكم الهائل من الاقتراضات، فيما عدا الشاعر ويليم بارنز الذي - في القرن التاسع عشر - احتج احتجاجاً فردياً قائلاً بأن كلمة "omnibus" (أتوبيس حديث) يجب استبدالها بكلمة "folkwain" (كلمة تشبه في تركيبها اسم السيارة الألمانية - Volkswagen فولكسوجن)، لم يعبأ بما نادى به "بارنز" إلا القليل ولكن في عام ١٩٦٦ عرض الكاتب الساخر "بول جيننجز" بمجلة "البانش" نموذجاً للغة الإنجليزية إذا حدث واتبعت طريقة اللغة المجرية، فيما يلي فقرة تتحدث عن هزيمة الملك "ويليم" النورماندي في معركة "هاستنجز":

كتبت في الفقرة السابقة "foregoing" عن الذكرى التسعمائة لمعركة "هاستنجز"، عما سببته هذه المعركة العظيمة من تغيير "ottering" لعرفتنا لمدة قرن تال "hundredyear" وحتى يوم القيامة، وكيف كان الغزاة "inganger" منهمكين في أمر الحرب، وكيف ظلت لغتنا الإنجليزية بمنحى عن تأثير لغتهم الفرنسية التي استمدت اشتقاقاتها "outshoot" من اللغة اللاتينية، لقد كنا نتحدث الإنجليزية منذ العهد الذي اشتغلنا فيه بالزراعة ودرس الأرض وأمور صرف المياه، في جو يتغير دائماً تملأه الأمطار والسحب وتدرجات الألوان، كانت الحياة بشكلها هذا معين لا ينضب يثرى "enmulch" فنون ذلك العهد، فقد ظهرت مجموعات الكلمات غير المسبوقة "unbettered" المتجانسة "againclanger" الدالة على الأصوات الحقيقية "samenoiselike" مثل "الريح والماء"، "الفرس والكلب" وغيرها، لقد أمدت لغتنا

الإنجليزية كلام من الشعراء "bards" والفلاسفة "deepthinker" والكتاب
"tryplecemen" باستعارات "switchmeangroup" لأفكار "withtaking" معنوية
"unthingsome" ومجردة "overthingsome" لا مثيل لها.

كما ترى، تبدو بعض الابتكارات التي أتى بها "جيتنجز" غير يسيرة :
"samenoisielike"، "againclanger"، "switchmeangroup"، "unthingsome"،
"overthingsome"، "withtaking" (هذه الكلمة اقتراض بالترجمة)، "tryplecemen".

ما رد فعلك الآن ؟ هل من الممكن أن تكون اللغة الإنجليزية أفضل حالا بدون
آلاف الكلمات التي قامت باقتراضها ؟ وهل من الممكن أن تكون أكثر ثراء إذا قلنا
"foregoing" بدلا من "preceding" (السابق)، "yearday" بدلا من "anniversary"
(ذكرى سنوية)، "othering" بدلا من "changing" (تغيير)، "hundredyear" بدلا من
"century" (قرن)، "inganger" بدلا من "invader" (غزاة)، "outshoot" بدلا من
"darivation" (اشتقاق)، "enmulch" بدلا من "enrich" (يثري)، "unbettered" بدلا
من "unsurpassed" (غير مسبوق)، "deepthinker" بدلا من "philosopher"
(فيلسوف) ؟ على أي حال، إننا لن نسير على نهج متحدثي الفرنسية في تنقيتها للغة
من جميع الاقتراضات التي دخلتها.

أخيرا نود القول بأن "جيتنجز" قد أخطأ قليلا عندما جاء بالكلمات "noise"
و "age" و "piece" والتي هي اقتراضات من اللغة الفرنسية وإن كانت متخفية بعض
الشيء يعكس الكلمة "bard" المقترضة من اللغة الأيرلندية أو الويلزية، إنه من العسير
كتابة جملة إنجليزية دون استخدام الاقتراضات، وهذا يجعلنا نستنتج أن التنقية
اللغوية ليست ذات أهمية عند متحدثي الإنجليزية.

الطريقة المثلى للحديث :

نادرا ما يتواجد الشكل "doesn't" في الكلام العامي للمنطقة الغربية بنيويورك
وهي المنطقة التي نشأ بها الكاتب، فهناك يقول كل فرد "i don't matter" (لا أعبأ)
و "He don't matter" (لا يعبأ)، وهي أشكال مألوفة بكل تأكيد مهما اختلف مكان
نشأتك.

يسرد كاتبنا خبرة شخصية مفادها أن السيدة "بريك" معلمة اللغة الإنجليزية اعترضت بشدة على استخدام الشكل السابق وشدت عليه حريا ضارية، إنه يتذكر جيدا يوم أن كان جالسا بالفصل وكانت السيدة "بريك" فى أوج غضبها، وعند سماعها لواحد من الطلاب يدعى "نورمان" يقول "He don't know that" (إنه لا يحرف ذلك) انفجرت قائلة "he doesn't know that, Norman"، أجاب نورمان "نعم، هذا صحيح" ولكنه كرر استخدام الشكل "don't" ثانية، وكذلك كررت السيدة "بريك" "ليس don't" وتحول لون وجهها وهى تقول له "He doesn't know"، وتملكت "نورمان" الحيرة وهو يقول "لكنها لا تبدو صحيحة".

يلخص الموقف السابق بدقة شديدة التناقض بين جانب بعينه من أشكال اللغة والذي نطلق عليه الإنجليزية النموذجية، وكافة التنوعات الأخرى والتي من الممكن تسميتها جمعاء بالإنجليزية غير النموذجية، يتولى معلمو اللغة الإنجليزية مسئولية غرس الشكل النموذجي للغة فى أذهان الطلاب والذين يغفلون كثيرا عن هذا الجانب، فالغالبية العظمى من متحدثي الإنجليزية ينشئون على تعلم الشكل العامى من اللغة والذي يختلف كثيرا عن الشكل النموذجي، إذن لماذا يحدث ذلك؟

تكون إجابة هذا السؤال واضحة لعدد من الناس وهى: ما اللغة الإنجليزية إلا لغة نموذجية، إن اللغة النموذجية لغة سليمة من الناحية النحوية ومنطقية ومعبرة، فى حين تكون اللغة غير النموذجية غير سليمة نحويا وغير منطقية، إنها لا تتبع أى قواعد، يرجع استخدام الناس للغة غير النموذجية إلى تقصير من جانبهم، إنهم غير مستعدين للتحدث بطريقة سليمة.

يمثل متحدثو الإنجليزية النموذجية قلة لأن أغلب من يتحدث تلك اللغة يستخدم بصفة منتظمة أشكالا واسعة الانتشار مثل "I ain't got none" (لم أحصل على شيء)، "I seen him yesterday, but I ain't seen him today" (رأيتسه بالأمس ولكنى لم أراه اليوم)، "Me and him was here" (كلانا كان هنا)، كذلك يستخدم هؤلاء المتحدثون أشكالا محلية تبعا للمكان الذى يعيشون به مثل العبارة "Ye divvent knaa, div ye" وتعنى بلغة شمال شرق إنجلترا (إنك لا تعرف، أليس كذلك)، وكذلك العبارة "I done"

"shot me a squirrel" التي تعنى فى جنوب الولايات المتحدة الأمريكية (لقد أصبت سنجابا)، قد تكون مثل هذه الأشكال محيرة أو غير متوقعة بالنسبة لمحدثى اللغة الإنجليزية النموذجية، ولكن هل هناك سبب يحثنا على اعتبارها غير منطقية أو غير صحيحة من الناحية النحوية ؟

بالتأكيد لا يوجد أى سبب، تذكر الصديق "نورمان" الذى قال (ومن المحتمل أنه مازال يقول) "He don't" لأن هذا الشكل يستخدمه كل المحيطين به وقد سمعه وتعلمه منذ نعومة أظفاره، إن رد فعله تجاه ما قالتها السيدة "بريك" بشأن استخدام الشكل "doesn't" سليم جداً، لقد رفضه لأنه لا يعد صحيحاً نحويًا من وجهة التنوع الذى نشأ عليه، فهو من وجهة نظره شكل غريب ولا نحوى مثل الشكل "he divvent" المستخدم فى نيويوركاسيل، لم يكن "نورمان" مقصراً فى استخدامه للغة، كما لم يكن متكاسلاً عن استخدام الطريقة الصحيحة للكلام، لقد تعلم التنوع المحلى للإنجليزية على أكمل وجه، وكأى متحدث أصلى لأية لغة عرف جيداً القواعد التى يستخدمها كما عرف السليم منها وغير السليم نحويًا، تشتمل اللغة الإنجليزية التى يستخدمها "نورمان" على العديد من القواعد النحوية كإى تنوع إنجليزى آخر، كل ما فى الأمر أن هذا التنوع لم يحظ بامتياز كونه تنوعاً نموذجياً.

كما أنه ليس من الممكن اعتبار الشكل "he don't" أقل منطقية من الشكل "doesn't"، كذلك فإن الشكل "he don't" لا يعد أكثر منطقية من الشكل الشاذ "he won't" الذى يعد شكلاً نموذجياً آخر، لم يحدث أن اتهم أحد مستخدمى الشكل النموذجى الشكل "he won't" بأنه غير منطقي وأصر على استخدام شكل أكثر منطقية مثل "he willn't" كانت الأحداث التاريخية هى الحكم الأول فى اختيار الأشكال النموذجية، فكان للشكل "he won't" السبق كشكل نموذجى، بينما كان الشكل "he don't" أقل حظاً حيث لم يتم اختياره، قد يبدو حديثنا هذا مدهشاً قليلاً حيث أن عدد الذين يقولون "he don't" أكثر من هؤلاء الذين يقولون "he doesn't".

إن وصف صيغة لفعال ما بأنها منطقية أو غير منطقية لا معنى له، فمناقشة موضوع ما قد تكون منطقية أو غير منطقية، وكذلك بنية مقال ما، أما الحكم على الشكل "doesn't" بأنه أكثر منطقية من غيره لا معنى له على الإطلاق، فليس من علاقة تربط بين الإنجليزية النموذجية والمنطق، إنن ما الذى يتميز به الشكل "does" عن غيره ؟

لا شيء سوى المكانة التي اكتسبها من اتفاق جماعة من المثقفين على اعتبار أشكالها بعينها نموذجية وما عداها غير نموذجي، كيف تحقق هذا الاتفاق؟

عندما استوطن الأنجلوساكسون إنجلترا منذ ١٥٠٠ عام كانوا يتحدثون لغة إنجليزية متشعبة إلى العديد من التنوعات الإقليمية، وتوضح النصوص المكتوبة بالإنجليزية القديمة هذا التنوع على نحو نابض بالحياة، أنتجت عمليات التغيير اللغوي كالعادة وبمرور الوقت تنوعات إقليمية متزايدة، وقد استمرت هذه العمليات إلى وقتنا الحاضر لدرجة أننا شهدنا تباينا كبيرا فيما بين الإنجليزية المستخدمة في الأماكن المختلفة، تتجلى هذه الاختلافات في كل منحنى من مناحي اللغة، سنتخذ من هذه المناحي مثلا واحدا يتحدث عن أشكال الفعل.

لاحظ الفعل "be" (فعل الكينونة) الذي اندمجت أشكاله - في مرحلة مبكرة من التاريخ الإنجليزي القديم - بأشكال لفعلين آخرين يتشابهان معه في المعنى، ويتج عن ذلك - بالإنجليزية النموذجية - الأشكال الشاذة مثل : "I am, you are, he is, I was, you were, I have been" (أكون، تكون، يكون، كنت، كان)، اختار كل تنوع فض هذا النزاع بطريقته الخاصة والتي تختلف دائما عن الاتفاقات النموذجية، فنجد أن ساكني مقاطعة (سومرست) "Somerset" اتفقوا على الأشكال التالية : "I be, thou art, he be, we be, you be, they be" (أكون، تكون، يكون، نكون، يكون، يكونون)، بينما تم تعميم الشكل "is" في أجزاء كثيرة من شمالي إنجلترا على النحو التالي "I is, he is, we is, you is, they is"، في حين عمت بعض التنوعات الغربية الشكل "am" كما يلي : "I am, you am, he am, we am, they am"، استقرت مناطق أخرى على أشكال مختلفة حيث اختارت إنجلترا الأشكال : "I am, I is, I are, I be, I bin" ينطبق الأمر ذاته على الصيغة الماضية لفعل الكينونة، فعممت بعض التنوعات الشكل "I was" "was, you was, we was" بينما عمم البعض الآخر الشكل "I were, you were, he were"، والآن لم تعد بعض الأشكال أكثر منطقية من غيرها، كل ما في الأمر أن هناك أشكالا أصبحت أكثر اعتيادية من غيرها ولكن لم يحالفها الحظ حتى تصبح إحدى الأشكال الإنجليزية النموذجية، ومن أمثلة تلك الأشكال "I seen her" (رأيتها)، "I done it" (فعلتها)، "I drew a picture" (رسمت لوحة)، "I writ a letter" (أكتب خطابا)، "I've took a picture" (التقطت صورة).

لا تتوحد الإنجليزية النموذجية في جميع المناطق، ففي الإنجليزية الأمريكية يقولون "I've just got a letter yesterday" (تسلمت خطابا بالأمس)، بينما يقولون في إنجلترا "I've just gotten a letter" (تسلمت خطابا لتوي)، بينما اعتبر كلا الشكلين نموذجيين، تم استبدال الشكل الثاني بأخر نموذجي وهو "I've just received a letter" (تسلمت رسالة لتوي)، من ناحية أخرى تتفق النموذجية البريطانية مع النموذجية الأمريكية في الشكل "I've forgotten her name" (لقد نسيت اسمها)، برغم انتشار الشكل "I've forgot her name" إلا أنه غير مقبول في الوقت الحالي كشكل نموذجي، ولكن ربما يعتبر كذلك في يوم من الأيام.

كيف يتم الاختيار؟ من وما الذي يحدد الأشكال التي ستصبح نموذجية وغيرها من التي تتدنى في المنزلة فلا يمكن اعتبارها نموذجية؟ على الأغلب أن ذلك حدث بمحض الصدفة، فقد حدث في فترات مبكرة من التاريخ الحديث (القرن الخامس عشر والسادس عشر)، فنظرا لاستفحال الاختلافات الإقليمية بين متحدثي الإنجليزية، الأمر الذي خلق صعوبة في التواصل ما بين ساكني الجهات المختلفة من إنجلترا، وكذلك نظرا لازدياد حركة السفر والتنقل والتجارة وازدهار التعليم، كان من الضروري التوصل إلى حل ما، لم تتبع اللغة الإنجليزية طريقة اللغة الفرنسية في إنشاء أكاديمية لغوية تضع القواعد الخاصة باللغة وتفرضها على المتحدثين، فبدلا من ذلك تم حل المشكلة بالطرق السياسية، حيث أصبحت العاصمة لندن وما حولها من مقاطعات أهم مناطق البلاد سياسيا (حيث تواجدت بتلك المناطق المحكمة، وهي محور النظام القضائي والإداري)، واقتصاديا (حيث كانت مركزا للتجارة والنظم البنكية)، وثقافيا (حيث اقتربت من الجامعات العريقة كأكسفورد وكامبريدج).

كان هذا هو الحل، حيث اعتبرت التنوعات الإنجليزية المستخدمة في لندن وما حولها أكثر أنواع التنوعات اللغوية قبولا وأعظمها مكانة، تبعا لذلك وقد الرجال والنساء من أصحاب الطموح إلى لندن لإيجاد فرصة في عيش أفضل، وما كان عليهم إلا أن يوفقوا كلامهم مع الأشكال التي سمعوها هناك، نتيجة لهذا اعتبرت الكلمات والأشكال المستخدمة في المناطق المحيطة بلندن - تدريجيا - هي الرؤية النموذجية للغة الإنجليزية بصرف النظر عما إذا كان الإقبال على استخدامها غير كبير في مناطق

أخرى، وعلى الجانب الآخر لم ترق الأشكال التي تم استخدامها في تلك المناطق إلى درجة النموذجية، وحتى إن كانت واسعة الاستخدام في تلك المناطق الأخرى.

من الأهمية بمكان إدراك أن أشكال الإنجليزية النموذجية ما هي إلا نتاج للأحداث التاريخية، فلو كان تحققت لبعض مناطق أخرى من إنجلترا - السيادة لكان من المحتمل أن تصبح أشكالا مثل : "he don't" و "they was" نموذجية ولبذل معلمو اللغة الإنجليزية المتشدنون قصارى جهدهم لحو الأشكال "الجاهلة" والساذجة مثل : "he doesn't" و "they were".

لا تظل الأشكال النموذجية بمعزل عن التغيير، فعند عدة قرون تواجد الشكل "I caught a cold" (أصابتنى الأنفلونزا) وجاء الشكل الجديد الجاهل "caught" (يبدو أنه جاء على نهج الفعل taught تعلم) ليحل محل الشكل الأول الذي يعتبر الآن جاهلا. حديثا تم استبدال الشكل الأمريكى "I dived into the water" (غطست فى الماء) بالشكل "I dove into the water" عند كثير من الناس بما فيهم مؤلف كتابنا، وبذلك أصبح الفعل "dive, dove" يصرف على غرار الفعل "drive, drove" (يقود).

إذن كيف يتسنى لنا معرفة الرؤية النموذجية للغة الإنجليزية ؟ قبل أى شىء نود القول أن الإنجليزية النموذجية شكل ملائم، فالمتحدثون من "جلاسكو" و"نيوكاسيل" و"نيو أورليتز" و"كاب تاون" يعانون من مشكلة صعوبة فهم بعضهم بعضا إذا تعسكوا باستخدام تنوعاتهم المحلية كل فيما يخصه، أما إذا اتفقت هذه الأطراف على شكل نموذجى واحد يتعلمه كل المتحدثين فى كل مكان لكان من السهل عليهم حل مشكلة صعوبة الفهم هذه.

لا يوجد تنوع بعينه أفضل أو أسوأ من غيره، كل ما يعتد به هو مدى طواعية هذا التنوع وكونه مرضيا إذا تم اختياره كنموذج، يتم اختيار تنوع للإنجليزية وفق سلسلة من الأحداث التاريخية ليصبح بعد ذلك نموذجا يفى بالأغراض التي اختير من أجلها، أى يكون هذا التنوع ملائما لكل متحدثى اللغة، فبغض النظر عن طريقة الكلام التي نستخدمها للحديث إلى أخواتنا أو أمهاتنا فإننا فى تأليف كتاب ما نستخدم الإنجليزية النموذجية التي تعلمناها بغض النظر أيضا عن مكان نشأتنا ومن هنا يكون من السهل فهم ما قمنا بكتابته.

لقد أصبحت الإنجليزية النموذجية - في عالم مثل عالمنا - أكثر من ملائمة، أصبحت ضرورة، فلن يقوى أى متحدث للإنجليزية على العيش فى ذلك العالم المتسع إذا لم يتمكن من إجادة إحدى اللهجات النموذجية (ما الإنجليزية النموذجية سوى لهجة ضمن العديد من اللهجات)، إننا نتعامل على مدار حياتنا مع العديد من متحدثى الإنجليزية من شتى أنحاء العالم، لذا يجب علينا أن نستخدم تلك اللهجة النموذجية الاستخدام الأمثل، ومن يعجز عن ذلك يكون قد خسر خسارنا مبينا، فقد يكتب عليه إما عملا مهينا زهيد الأجر أو بطالة طويلة المدى، إن السيدة "بريك" التى سبق الحديث عنها قد علمت تمام العلم أن "نورمان" لن يتمكن من الارتقاء فى حياته المستقبلية إذا أصر على استخدام ذلك الشكل غير النموذجى من اللغة.

لا تتفرد اللغة الإنجليزية بأمر النموذجية هذا وحدها، فقد يتراعى لنا هذا الأمر فى جهات أخرى من العالم، لنأخذ اللغة الألمانية كمثال، تختلف اللهجات الإقليمية للغة الألمانية لدرجة كبيرة، حتى أن المتحدثين من "برلين" و"بون" لا يتسنى لهم فهم بعضهم بعضا إذا ما استخدموا لهجاتهم العامية، تبعا لذلك، يستخدم متحدثو الألمانية تنوعاتهم المحلية عند الحديث مع أشخاص يشاركونهم تلك التنوعات، بينما يستخدمون الألمانية النموذجية عند الحديث مع الأشخاص الآخرين : أى أن متحدثى الألمانية ثنائيو اللهجة، إنهم لا يعتبرون أى لهجة من تلك اللهجات "جاهلة" أو "غير مهذبة"، بل يتعاملون معها باعتبارها ذات وظيفة مغايرة لتلك التى تقوم بها الألمانية النموذجية.

لا بد أنك لمست أن اتجاه البلاد المتحدثة للإنجليزية نحو التنوعات غير النموذجية يختلف تماما عن ذلك الخاص بالبلدان المتحدثة للألمانية، لقد ألصقت بالتنوعات الإنجليزية أبشع الاتهامات وهذا اتجاه مخزٍ للغاية، إن الرغبة فى جعل كل فرد بالمجتمع يتحدث صورة نموذجية للغة أمر ليس بسيئ، ولكن السخرية من التنوعات غير النموذجية واتهام من يستخدمونها بالتقصير أو الجهل هو الأمر السيئ بحق.

يبقى لنا نقطة واحدة فى موضوعنا هذا وهى احتمالية عدم اقتناعك بكل ما عرضناه فى الفصل الذى بين أيدينا الآن، ربما تكون قد أصبت بارتفاع فى درجة حرارتك عند كل مرة تقرأ فيها ذلك الفصل وربما تكون أيضا من أولئك الذين يرون أن الضرورة الأخلاقية تحتم قول العبارة "Whom did you see" أو هؤلاء الذين يجتنبون استخدام المنشطر، إننا نختلف مع أمثال هؤلاء الأفراد سالفى الذكر ولنا أسبابنا فى

ذلك، لذا يجب ألا تتهمنا بأننا نزعم بأن كل أشكال اللغة الإنجليزية جيدة ومقبولة، ليس الأمر كذلك والدليل أننا جميعاً نعرف أشكالاً للإنجليزية المتحدثة أو المكتوبة تتميز بأنها مطمئنة ومبهمة ورنانة أو بأنها غير دقيقة وغير مهذبة وغير واضحة، إننا نعترض على مثل هذه الأشكال وندعو إلى مجاهدة أنفسنا قدر الإمكان من أجل التحدث والكتابة بلغة إنجليزية واضحة وغنية ومعبرة، يمكننا القول بأن الإنجليزية غير النموذجية يمكنها أن تكون واضحة ومعبرة لدرجة كبيرة، مثلما أمكن للعديد من الأشكال اليفيضة التي نستخدمها أن تكون أشكالاً نموذجية، ومن أمثالها الوثائق القانونية والرسمية، والتصريحات الطنانة التي يصدرها السياسيون ورجال الجيش، إذا كان من شأن كل من استخدام الشكل "whom" واجتباب المصدر المنشطر جعل اللغة واضحة ومعبرة لكننا أول من نادينا بأخذ هذا وترك ذلك، إن كلا من المصادر المنشطرة وحروف الجر التي تحتل موقعها بنهايات الجمل والظرف "hopefully" أشكال واضحة ومعبرة أكثر من غيرها، وأولئك الذين يرفضون هذه الأشكال - لسبب أو لآخر - إنما يرفضون أشكالاً جيدة ويستبدلوها بأخرى طنانة سيئة.

اللغة والهوية : تكرر

علمنا من الفصل الرابع أن طريقة الفرد في التحدث تلعب دوراً حيوياً في تشكيل هويته داخل المجتمع، كذلك تتمثل العلاقة بين اللغة والهوية على نطاق أوسع فيما بين لغات وشعوب عدة، ولكن أهملت أهمية تلك العلاقة مراراً وعلى مدى القرنين السابقين من جراء الأحداث السياسية التي جرت خلال العديد من القرون، دعونا نفحص اثنتين من تلك الحالات باختصار.

فلتبدأ بالنرويجيين، حيث كانت النرويج مقاطعة دانماركية تتحدث اللغة الدانماركية تبعاً لذلك، عرف كل النرويجيين المتعلمين اللغة الدانماركية، كما تأثر كلام النرويجيين الذين سكنوا المنطقة الجنوبية المزدهرة بتلك اللغة إلى حد كبير (بطريق مباشر عبر الدانمارك)، كان تأثير تلك اللغة على القرى البعيدة بالساحل الغربي - على العكس - غير كبير، وعندما نالت النرويج استقلالها عام ١٨١٤ كان الشبه بين النرويجيين الجنوبيين أقرب إلى اللغة الدانماركية من اللهجات الغربية، (على سبيل المثال، كانت للنرويجية الجنوبية جنسين نحويين بينما كان للنرويجية الغربية ثلاثة أجناس نحوية).

اتفق النرويجيون بعد الاستقلال على أن تحل اللغة النرويجية محل اللغة الدنماركية كلغة رسمية للبلاد، ولم يكن هذا أمرا غريبا على الإطلاق، لذلك كان على كل مستعمرة اتباع سياسة مماثلة، ولهذا السبب لم يتحول الإنجليز إلى مواطنين دانماركيين، أو بريتانيين أو روسيين من الدرجة الثانية، إنهم أناس شعب متميز ذي هوية خاصة، إن لغتهم هي الشعار المميز لهويتهم على المستوى العالمي.

لذلك اتفق كل أفراد الشعب النرويجي أن تكون اللغة النرويجية هي لغة الأمة الجديدة، لقد ظهر ذلك وكثرت إجماع عام ولكنه لم يكن كذلك، كانت المشكلة تكمن في التساؤل التالي : أى نوع من النرويجية ؟ اقترح بعض النرويجيين أن يتحدث كل المتعلمين شكلا من اللغة النرويجية يشبه اللغة الدانماركية، ولكن اللغة الدانماركية النرويجية حتى يتسنى لهم تقليل حجم التشعبات التي سيحدث من جراء تكوين لغة جديدة، على الجانب الآخر، تبني الآخرون وجهة نظر مختلفة تماما وهي أن الدانماركية النرويجية نتاج غير نقي للغة النرويجية وهي أكثر سوعا من الدانماركية ، لذلك فإن اللغة النرويجية الفعلية هي اللغة المتحدثة بالساحل الغربي والتي لم تتأثر باللغة الدانماركية والتي تعد أنقى أشكال اللغة وهي من أجل ذلك يجب أن تكون لغتهم القومية.

تعتبر وجهة النظر الثانية عما قلناه بشأن التنقية اللغوية كما تعبر عن رغبة عامة من جانب اللغات القومية الحديثة العهد والتي طالما اختلطت بلغات مجاورة أكثر منها قوة وهي الرغبة في "abstand" وهي كلمة ألمانية تعني (البعد اللغوي) فقد حرص المؤيدون لوجهة النظر الثانية على إبعاد لغتهم عن اللغة الدانماركية القريبة الصلة بهم خوفا من أن يعتبرها الغرباء مجرد لهجة غريبة من لهجات اللغة الدانماركية.

لم تتمكن إحدى وجهتي النظر من الانتصار وكانت النتيجة تأرجح الشعب النرويجي - الذي يصل تعدادها إلى أربعة ملايين نسمة - ما بين شكلين نموذجيين للغة النرويجية يتحتم عليه تعلمهما، لقد استعرت هذه الحالة الشاذة حتى يومنا هذا بالرغم من الجهود الشاقة التي تبذلها السلطات من أجل الاتفاق على شكل واحد للغة، تخيل مدى الإهدار في الوقت والمال عندما يضطر كل فرد من أفراد الشعب أن يتعلم كلا الشكلين وأن تصدر التصريحات الحكومية بكلا الشكلين، وهكذا، إن قصة اللغة النرويجية مذكور قوي بمدى عمق المشاعر اللغوية.

تخص الحالة الثانية التي نحن بصددنا الآن اللغة الباسكية والتي تم استخدامها منذ آلاف السنين في أقصى غرب "Pyrenees" (بايرنز)، في منطقة تابعة للإمبراطورية الرومانية والتي تم ضمها بعد ذلك إلى فرنسا وإسبانيا مرورا بالحدود اليمنى للمنطقة المتحدثة للغة الباسكية، كانت هذه اللغة ذات مكانة لا تذكر في ذلك الحين وفي القرن التاسع عشر والقرن العشرين تم اضطهادها بضراوة من قبل الحكومات المركزية في باريس ومدريد والتي نما عندها الاعتقاد بأن استخدام اللغات الإقليمية أمر غير وطني مخرب، ولقد ساد هذا الاعتقاد بين الحكومات في جميع أنحاء العالم في هذا القرن، بلغ هذا الاضطهاد ذروته من الجانب الإسباني بعد انتصار الفاشية في الحرب الأهلية الإسبانية عندما أعلن "فرانكو" الديكتاتور والجنرال الإسباني عدم قانونية تحدث اللغة الباسكية.

بعد الانفراج التدريجي للقيود التي فرضها فرانكو وبخاصة بعد الإصلاحات الديمقراطية التي تبعت موته، بدأت اللغة الباسكية تواصل طريقها حديثا نحو نيل حقوق سياسية، انتهى هذا الطريق بمنح معظم الباسكيين الإسبانين الحكم الذاتي (لم يكن الباسكيين الفرنسيين في مثل حظهم)، سار الجهاد من أجل تمسين مكانة اللغة الباسكية جنبا إلى جنب مع الصراع السياسي.

ترك كل من الإهمال والاضطهاد وكذلك اقتصار التعليم والعمل والسياسة والإدارة والنشر والطباعة والمنح الدراسية - اللغة الباسكية في حالة من الضعف، وكان لانتشار وسائل الإعلام أسوأ الأثر، فقد كانت تهديدا جديدا بالغ التأثير، فقد غرقت المنازل الباقية البعيدة بأجهزة الراديو والتلفزيون التي تبيث إنتاجها بلغات أخرى غير الباسكية.

بدأ الباسكيون في تغيير مكانة لغتهم - مثلهم في ذلك مثل النرويجيين والكثيرين من قبلهم - حتى يتسنى لهم إنشاء تنوع لغوي نموذجي في متناولهم، أملين أن تتساوى لغتهم في المكانة مع اللغة الإسبانية، واجه الباسكيون مثل النرويجيين من قبلهم بعض العوائق المثبطة للهمة والتي تبدأ في التساؤل الآتي " أي نوع من الباسكية يجب تنشيطه ؟ "

بالرغم من صغر مساحة بلاد الباسك فإنها تحوي سلسلة جبلية تقسمها إلى وديان ضيقة، وتختلف اللهجات الإقليمية الباسكية عن بعضها بعضا بدرجة أكبر من

اختلاف اللهجات الإنجليزية بإنجلترا، إذن من الممكن لكل من المفردات والنطق والأشكال النحوية أن تتغير بصورة درامية في كل جزء من البلاد لا تتعدى مساحته الكيلومترات.

تطلب هذا الأمر قدرا من القرارات والحلول الكافية، فقد تاق أغلب الناس رؤية خلق جديد لنموذج لغوي واحد ولكنهم في ذات الوقت لم يرغبوا في ترك الكلمات والأشكال التي ألفوها من أجل أشكال وكلمات يستخدمها آخرون، علاوة على ذلك، كان للباسكيين رأيهم الخاص في التنوعات التي يتحدثها الآخرون، فقد اشتكى الباسكيون الإسبانيون أن اللغة الباسكية الفرنسية تبدو طنانة، بينما اعترض الباسكيون الفرنسيون أن الباسكية الإسبانية تبدو غير مهذبة وجافة، هذا وتمكن اللغويون رفيعو المستوى من أكاديمية اللغة الباسكية من وضع نموذج جديد للغة الباسكية يسمى "Euskara Batua" أو الباسكية الموحدة (يطلق الباسكيون على لغتهم (Euskara)، تقبل الباسكيون النموذج المثالي تدريجيا بحماس تارة وتذمر تارة أخرى حتى أننا نجد المتحدثين من صغار السن يتحدثون ويكتبون لغة "Batua" بجانب لهجتهم المحلية.

لا تسير الأمور عادة سيرا سهلا بلا مشاكل، فقد كانت الحرب التي قامت بشأن صوت "H" واحدة من أغرب الحوادث التي وقعت في التاريخ السياسي للغات الأوروبية ككل والتي أضرت بالبلاد عام ١٩٧٠

يمتلك الباسكيون الفرنسيون الصوت الصامت "H" وينطقونه في مئات من كلماتهم ويكتبونه بهجائهم التقليدي، أي أنهم يكتبون وينطقون كلمات مثل : "hau" (هذا)، "horma" (حائط)، "aho" (فم)، "behar" (يحتاج)، "alhaba" (ابنة)، "ethorri" (يأتي)، من الناحية الأخرى نجد أن الباسكيين الإسبانين فقدوا صوت "H" من جميع كلماتهم منذ قرون مضت وقبل العهد الذي بدأت فيه كتابة اللغة الباسكية، فهم يكتبون وينطقون كلمات مثل : "au"، "orma"، "ao"، "bear"، "alaba"، "etorri"، لذا قررت الأكاديمية كتابة الصوت "H" في كل الكلمات (كالكتابة الفرنسية) فيما عدا إذا كان هذا الصوت مسبوقا بصامت، ولذلك تحولت الكلمات السابقة عند كتابتها بلغة "Batua" إلى "hau"، "horma"، "aho"، "behar"، "alaba"، "etorri".

هل هذا قرار صائب؟ يعتقد ذلك العديد من الملاحظين الذين لم يشهدوا الموقف، ولكن هذا القرار أثر بعنف على الباسكية الإسبانية، تسبب الصوت "H" في حدوث تحالف منقطع النظير بين الجناح الأيسر والجناح الأيمن للباسكيين وذلك في وقت الاضطراب السياسي الشديد (أي الفترة التي استخدم فيها فرانكو قبل موته للمرة الأخيرة سياسته المتشددة في القضاء على تطلعات الباسكيين)، عارض اليساريون بشدة تواجد الصوت "H" في لغة "Batua" بحجة أن الصوامت غير المنطوقة سوف تجعل اللغة المكتوبة مختلفة تماما عن اللغة التي ينطقها العامة (هم بذلك يهملون حقيقة أن الإسبانية النموذجية يكتب بها للمئات من أصوات "H" (غير المنطوقة)، بينما عارض الجانب اليميني بشدة أكبر وحجة أوهى ألا وهي إنهم لم يكتبوا صوت "H" من قبل فما الداعي لأن يكتبونه الآن.

لم تسفر أية مناقشة بشأن تطوير لغة "Batua" عن أية نتائج، كان من المتوقع أن يستخدم حزب اليمين معرفتهم - فهم الأكبر سنا والأكثر معرفة باللغة الباسكية - للتأثير الإيجابي على تطوير تلك اللغة ولكنهم بدلا من ذلك شحذوا أذهانهم وقواهم لكتابة المقالات الصحفية والكتيبات، بل إنهم أصدروا كتابا كاملا يعارض لغة "Batua" بعامة والصوت "H" بخاصة، كما أنهم سخروا من اللغة الجديدة وأطلقوا عليها "eus"keranto" تلاعب بالألفاظ لتشبيه هذه الكلمة لغة الإسبرانتو وهي لغة صناعية شهيرة)، أما اليساريون بدورهم فقد كانوا أقل معرفة باللغة الباسكية وقد انشغلوا بالمناقشات الساخنة التي صدرت في الاجتماعات العامة وكتابة النقد اللاذع في المجلات السرية، استمر عدد من اللغويين وغيرهم من المتخصصين في عملهم الجاد من أجل إنتاج الآلاف من الكلمات الجديدة التي تمكن اللغة الباسكية من التطرق إلى موضوعات مثل الفيزياء والاقتصاد والنشر واللغويات، (تسمى هذه العملية بتخطيط اللغة) ولكن كان شغل رجل الشارع الشاغل في ذلك الوقت هو الحديث عن الصوت "H".

بالطبع تغيرت الظروف فتقدم اليمينيون المعارضون في السن ثم ماتوا بينما بلغ مؤيدو حزب اليسار العمر فكان مهم الأول البحث عن الوظائف وتربية أطفالهم وليس

مناقشة أمر الصوت "H"، بمرور الوقت أصبح كل فرد يكتب هذا الصوت في مواضع بعينها قررتها الأكاديمية، لا نستطيع تذكر آخر مرة سمعنا فيها أحد الأشخاص يذكر أمر الصوت "H"، إن الحرب التي قامت بسبب ذلك الصوت - رغم اختفائها الآن - دليل على المشاعر المثارة من جراء القضايا اللغوية التافهة، وفي هذا أيضا دليل على مدى اختلاف اللغة عن غيرها من الأشياء.